

# جَبَلُ الزَّمَرِ



رواية

مَنْصُورَةُ عِزَّالْذَيْنِ



سازمان اسناد و کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران



سازمان اسناد و کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران

الكتاب: جبل الزمرد  
المؤلف: منصور عز الدين  
عدد الصفحات: 232 صفحة  
رقم الإيداع: 2013/9985  
الترقيم الدولي: 978-9938-886-27-6  
الطبعة الأولى: 2014  
جميع الحقوق محفوظة ©  
الناشر:

  
للطباعة والنشر والتوزيع

مصر: القاهرة - وسط البلد - 8 شارع قصر النيل - الدور الأول - شقة 10  
هاتف: 0020227738931 - 00201007332225  
فاكس: 0020227738932

لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان ابراهيم  
سنتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340  
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس  
هاتف وفاكس: 0021670315690  
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com  
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com  
رقم الناشر: 14/464-36

منصورة عز الدين

# جبل الزمرد

أو

الحكاية الناقصة من كتاب الليالي





«حكاية لو كُتِبَت بالإبر على أماق البصر لكانت عبرة لمن يعتَبر!»!  
حسنًا! فلتكن الكتابة حفرًا على أماق الأبصار، فلتكن طريقًا لعماء  
يعمّق الرؤية!

«وَأَخْتَلَفَ فِي مَعْنَى «قَافٍ» مَا هُوَ؟ فَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَعِكْرَمَةُ وَالضَّحَّاكُ:  
هُوَ جَبَلٌ مَحِيطٌ بِالْأَرْضِ مِنْ زُمْرُدَةٍ خَضِرَاءَ أَخْضَرَتْ السَّمَاءَ مِنْهُ، وَعَلَيْهِ  
طَرَفَا السَّمَاءِ، وَالسَّمَاءُ عَلَيْهِ مَقْبِيَّةٌ، وَمَا أَصَابَ النَّاسَ مِنْ زُمْرُدٍ كَانَ مِمَّا  
تَسَاقَطَ مِنْ ذَلِكَ الْجَبَلِ».

«تفسير القرطبي»

«ثُمَّ إِنَّ بَلُوقِيَا سَأَلَ الْمَلِكَ وَقَالَ لَهُ هَلْ خَلَقَ اللَّهُ جَبَالًا خَلْفَ جَبَلِ  
قَافٍ؟ فَقَالَ الْمَلِكُ: نَعَمْ، خَلْفَ جَبَلِ قَافٍ جَبَلٌ قَدَرَهُ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ  
عَامٍ، وَهُوَ مِنَ التَّلْجِ وَالْبَرْدِ، وَهُوَ الَّذِي رَدَّ حَرَّ جَهَنَّمَ عَنِ الدُّنْيَا، وَلَوْلَا  
ذَلِكَ الْجَبَلُ لَاحْتَرَقَتِ الدُّنْيَا مِنْ حَرِّ نَارِ جَهَنَّمَ. وَخَلْفَ جَبَلِ قَافٍ أَرْبَعُونَ  
أَرْضًا، كُلُّ أَرْضٍ مِنْهَا قَدَرُ الدُّنْيَا أَرْبَعِينَ مَرَّةً، مِنْهَا مَا هُوَ مِنَ الذَّهَبِ،  
وَمِنْهَا مَا هُوَ مِنَ الْفِضَّةِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مِنَ الْيَاقُوتِ، وَلِكُلِّ أَرْضٍ مِنْ تِلْكَ  
الْأَرْضِي لَوْنٌ».

«ألف ليلة وليلة.. حكاية حاسب كريم الدين»

## غبار الطريق

لستُ لي.. أنا منذورة لشيء غامض، وما عليّ  
سوى المضي قُدماً والتوحد بمصريي.

اسمي بستان!

من يعرفونني جيداً، وهم قلة، يسمونني «كاهنة الأبيض والأسود»!  
الآخرون يرونني غريبة الأطوار. لو قُدِّر لكاتب أن يكتبني لوصفني  
بالمراة الحوراء، أو ذات الشعر الفاحم والملابس السوداء، إلى آخر هذه  
الأوصاف المحدودة بالظاهر، غير القادرة على التقاط ما يتأجج بداخلي.  
لن يتمكن أحد من إكتنائه ما أخبئه ولا ما أقدر عليه، كما لن يكون على  
علم بخفايا الوقائع التي جرت قبل قرون، ولها ندرت حياتي، لذا عليّ أن  
أكون الكاتبة، أو بالأحرى الحكاءة المنوط بها ملء ثغرات الحكاية وضم  
أجزائها معاً، حكاية لستُ بطلتها، لكنها لن تكون من دوني.

في العام الحادي عشر من الألفية الثالثة، وفي شقتي المطلة على نيل  
الزمالك، أنكفئ على التدوين بلا كلل. عالم قديم ينهار بالخارج وأنا  
مشدودة إلى كلمات مراوغة، لا تكف عن التسرب من بين أصابعي.  
كسحائب صيف عابرة، تمر بذهني مشاهد متتابعة من أزمان مختلفة،  
أقتنص بعضها، ويتملص مني بعضها الآخر.

أراني طفلة فوق جبال الـ«ديلم» في ستينات القرن العشرين، أعدو  
خلف أبي في تسكعه الصباحي وهو ينشد أبياتاً للرومي أو العطار أو

حافظ. يسبقني بأمطار ثم ينتبه إلى تأخري عنه، فيقف منتظرًا بصبر، وبخار الماء يتصاعد من فمه. ألحق به، فيُجلسني فوق صخرة مجاورة لأرتاح قليلاً. ويحكى لي، كما كل مرّة، شذرات من خبر موطننا الأصلي. وأنا، رغم البرودة الشديدة يدبُّ الدفء في جسدي، وأكمل له ما يغفله من تفاصيل، فيعانقني سعيدًا.

«نحن غرباء أبيدون!» كان يقول كل مرة يُخرج فيها تلك الرقوق والجلود العتيقة من خزانته السرية ويروح ينبئه عليّ الأ أبوح بسرّها لأحد، ساهيًا عن حقيقة أنني أكاد لا أحادث أحدًا غيره. أعده بهذا، فيبدأ في تعليمي كيفية فك شفرة ما بها. ينقل لي ما تعلّمه من أبيه. يهمس لي بأن السلسلة يجب أن تتوقف عندي، أسأله عمّا يعنيه، فيرد بأن ما لديه من علامات، ينبئه بأني الكاهنة المنتظرة، ولا يزيد في الشرح.

أتذكره الآن، بينما أجلس في بيتي القاهري، فتحضرنى روائح جبل «آلموت» ونباتاته، أكاد أبصر السفوح المكسوة بالخضرة والقمم المكلمة بالثلوج والسهل المنبسط محتضنًا القرى المحيطة بجبال الديلم.

ذات يوم بعيد أشار أبي إلى ما أطلق عليه «أطلال قلعة آلموت»، وغاصت ملامحه كلها في أسى لم أدرك أسبابه. كان يقف منتصبًا مبالغًا في شد جسده، وهو يتأمل البقعة التي بصوّب نحوها سبابته. لم أنظر إليها، بل تعلق عيناى بوجه الأليف بلحيته الخفيفة وشعره الرمادي.

انحدرنا نحو الأسفل، وبين برهة وأخرى كان يلتفت إلى الورا ممعنًا النظر في أطلال لم أكن - إلى ذلك الوقت - أعرف عنها شيئًا. بعدها بيومين أجلسني بجانبه تحت شجرة كستناء، وحكى لي عن حسن الصبّاح وطائفة الحشاشين. قال إن لا شيء يبقى سوى الحكايات، تنتهي الذاكرة بموت صاحبها، وتظل الحكايات كذاكرة بديلة متوارثة.



درّبني مبكراً على السرد والكتابة، مسرّباً لي تدريجاً لمحات مما ينتظرنني من مهام، أسمعني مئات الحوادث المستلّة من دهاليز التاريخ الغابر، وأنشد لي آلاف أبيات الشعر. كنت ألتهم، بتشجيع منه، ما يقع تحت يدي من كتب.

اصطحبني تقريباً إلى كل مكان ذهب إليه، معه زرت قبر عمر الخيام المحروس بالورود وقلوب المحبين، وخطوت في أروقة وأزقة مدينة مشهد المقدسة، وتجولت بين نيسابور وشيراز وأصفهان. «هذه مدن يتنفس فيها التاريخ ويعيش، ومع هذا يجب ألاّ تنسينا وطننا المشتهى!» يقول، ثم يغمض عينيه ويغرق داخل ذاته، فيخطر لي أن الوطن المعلوم به ليس سوى فكرة.

«محال أن أنال صحبتك، لهذا أصاحب غبار طريقك!» اعتاد أن يكرر قول فريد الدين العطار، فأعرف أنها رسالة موجهة إليّ، أحدس أنني من سوف يصاحب غبار الطريق، وأن حياتي برمّتها ستضيع على الطريق المستحيل إلى وطن يسكن الكلمات. هشة، متعبة، تنهشني الأفكار والشكوك والهواجس، كان مقدراً لي أن أخطو مخفورة بالغبار.

في الثامنة عشر من عمري، غادرتُ شبه مجبرة، بسبب تصميمه أن مكاني لم يعد حيث يقيم، وأن عليّ بدء رحلتي وحدي، لم أحمل في حقيبة السفر سوى ملابس قليلة كي تتسع لأكبر قدر مما حملني إياه من مخطوطات وكتب وأوراق. في ذاكرتي كانت تضطرم مئات التفاصيل، وفي مفكرة صغيرة، قبع أسماء مدن أعبّر بعضها سريعاً كما يفعل عصفور قلق، وأنظر لبعضها الآخر من علّ نظرة طائر، وأقيم في القليل منها لسنوات تطول أو تقصر. مدن تبدأ من نيويورك حيث كان يفترض بي إكمال دراستي، وتنتهي في القاهرة التي فهم من علامات ونبوءات،

مبثوثة في ثنايا ما ورثه عن أجداده، أنها محطتي الأخيرة التي سأجد فيها ما أبحث عنه، القاهرة حيث أجلس الآن - بعد مرور اثنين وثلاثين عامًا على توديعي له - أنسج الكلمات لأحيك ثوب الحكاية الناقصة من كتاب «الليالي».

«أي حكاية تلك؟ نعرف حكايات كثيرة أُضيفت إلى «ألف ليلة وليلة»، لكننا لم نسمع بحكاية معينة نقصت منه، ثم إنه ليس كتابًا واحدًا، إنما نص لا نهائي لا يني يتغير عبر الإضافة والحذف!».

هذا ما سوف يجول بذهن من يقرأ ما أدوّنه، لكن اسمحوالي أولاً أن أضم أشلاء حكايتي جنبًا إلى جنب! ولتسامحوني إذا لم تتضح لكم معالمها سريعًا، ولتعلموا أن من أصعب الأمور القفز بين الأزمنة والتواريخ ومصالحة ماضٍ سحيق مع حاضرٍ مُعاش. الصبر صياد، فليكن الصبر رفيقكم، كما كان ولا يزال رفيقي الوحيد على دربي الوعر.

كان الصبر معي، قبل سنوات قليلة، في طريقي لذلك البيت الريفي البعيد عن العمران. في تلك اللحظة كنت مغمورة بخجل طارئ من نفسي لانسياقي وراء ما سيراه الآخرون سرابًا.

لكن كلما زارني الشك تراءت لي علامة تعيد لعالمي اتساقه، وتضفي على رحلتي معناها. علامتي في تلك المرة أن البيت، القابع في بقعة تبعد كيلومترات عن القاهرة، مطابق للوصف القديم المدوّن في أوراقِي!

بناء طيني محاط بسياج من أعواد القش، تظللّه شجرة توت ضخمة، وتحيط به أشجار كافور. سرقتني الرسوم المطبوعة على بابه الخشبي العتيق: باخرة حُجّاج ونخلة مثقلة بالتمر وطائر ضخم يستعد للانقضاض على فريسة نسيّ الرسام أن يرسمها. بصعوبة، انتشلت نفسي وطرقتُ الباب.

طرفة واحدة على استحياء، تلتها طرقات أخرى بوقع أشد، حتى فتحت لي صاحبة البيت وحارسته. كانت كما تخيلتها تماماً: سمراء، نحيلة، مطفأة النظرة، تربط رأسها بعصابة سوداء، وترتدي جلباباً فضفاضاً باللون نفسه، لم أعرف ما ينبغي عليّ قوله، ولا كيف أبرر زيارتي المفاجئة لها. لحسن الحظ وفّرت عليّ الكلام.

« استنيتك كثير. »

قلت ثم أنزلت لمبة الكيروسين المعلقة بمسمار إلى الحائط، أطفأتها بنفخة من فمها:

« نور ربنا كفاية. »

نظرت إلى السيارة التي أشعلتها، وأشاحت بوجهها بعيداً. تشاغلّت بالعبث في ثنيات ثوبها الفضفاض، وإن ظلت تتابعني خلسة، وترمق شعري المتناثر بلا انتظام فوق كتفي، وملابسي القصيرة، ونهمي للسيجارة التي أمتصها. تأملت بدوري جسدها الضامر ووجهها المتغصن، خمّنت أنها بلغت الخمسين لتوّها، وهنأت نفسي على مظهر لا يدل على سنّي الحقيقية، لن يصدق أحد أن الفارق بيننا بضعة أعوام.

سألتها عن الغرفة، فأشارت إليها. فتحتُ الباب فباغتني الحيطان العارية، ورائحة بخور نفاذة. أغلقتُ الباب خلفي، خلعتُ حذائي، وخطوتُ حافية على الحصيرة الخوص النظيفة.

بلا نوافذ، خالية إلاّ من سرير خشبي ومنضدة صغيرة فوقها شمعدان فضّي به ست شمعات، وجواره كتب قديمة مصفرة الأوراق. غبار أبيض غطى كل شيء. حاولت مسح بعضه بيدي، فلم أفلح، توقفت عندما تذكرت خطورة تعديل أي شيء في الغرفة، أو حكّي ما مررت به فيها، وضرورة ألا أعادها إلا بعد مرور يوم كامل على دخولي لها، يوم أصوم فيه عن الكلام.

للحظات غلبتني أناي الأخرى، فشعرت بالتوتر وبعض الندم لمجيبني إلى هنا، أشعلت سيجارة ثانية علّها تمدني بالهدوء، وتمددت فوق الفراش.

دسست وجهي في الوسادة، هرباً من رائحة البخور فوجدتها صارت أكثر تركيزاً. جلست مستندة بظهري إلى قائمة السرير. خلت أنني أسمع ضحكات أبي الصاخبة تتناثر على أرضية الغرفة. رغم عدم رؤيتي له منذ ثلاثة عقود، ووفاته قبل أعوام. شعرت بحضوره معي، وشممت رائحة التبغ الممزوجة بأنفاسه. استحضرت نبذة صوته الهادئة وكلماته التي كان ينطقها متمهلاً كأنه يبخل بها على من يحادثه. اندهشت من حضوره الكثيف في مكان لم تسبق له زيارته. كيف لمن قضى جُلّ عمره بعيداً ونائياً عن كل شيء، أن يلاحقني طيفه أينما اتجهت؟

سمعت أصواتاً متداخلة تتجادل بعنف وعصبية، وتردد اسمي - بصيغته الفارسية - من وقت لآخر، وأنا عاجزة عن فهم ما يُقال، الكلمات بلا أي معنى أو دلالة محددة. خفت الأصوات، تحولت إلى وشيش خفيف يحف بالمكان.

وحده اسمي كنت أميزه، يُنطق «بوستان دريا» مرة و«باغ دريا» مرات. مع حلول المساء، أُنيرت الشمعات الست من تلقاء نفسها. لم أشعر بالجوع أو العطش، كما لم أعد في حاجة للتدخين. مرّت حياتي أمامي كشريط سينمائي يتكرر ببطء وبلا نهاية. ذاكرتي باتت حاضرة ومحتفظة بأدق تفاصيل ماضي، مع التركيز على لحظات إخفاق تُستعاد في ذهني، لكنها على عكس توقعي لم تخلف بداخلي ندماً. كنت كالواقعة تحت تأثير مخدر ما جعل ردود أفعالي بطيئة، وأزال أي توتر أو خوف، أو عاطفة.

هادئة تماماً، خلعت ملابسي، وغفوت شبه عارية، في إغفائي سمعت  
أبي يترنم بأغنية غمّص عليّ معناها. رأيتني طفلة تعدو فرحة بجوار  
ضريح سعدي الشيرازي في حديقة السعدية، أهبط درجات وأصعدها  
من جديد، لألعب بين أعمدة الرخام الوردية. أبتعد عن الضريح مسافة  
تتيح لي رؤية قَبْته الفيروزية، وأقترب منه لأدق في الرسوم المنقوشة  
على مدخله: كون أزرق يحتضن شجرة حياة تعكس زهورها وأوراقها  
مهرجاناً لونياً يحتويه إطار ذهبي موشى بالنقوش. في الداخل بدت أبيات  
سعدي المكتوبة على الجدران كتيممة تتحدى الزمن.

غادرت المقبرة المحاطة بأشجار «السرو» متجهة صوب ينابيع الماء،  
مع كل خطوة أخطوها أنتقل من الطفولة إلى المراهقة ثم الشباب حتى  
صرت المرأة التي أنا عليها اليوم، خلّفت السعدية ورائي، بينما أفكر في  
أن لا شيء يماثل ربيع شيراز، تذكرت وطن أسلافي المفقود فغمرني  
الحزن.

حين أفقت وجدتني مرتدية ملابسي بالكامل، وجسدي يؤلمني في  
أكثر من موضع، انتبهت إلى أن الغرفة مختلفة عن السابق، ظهرت فيها  
نافذة تتوسط الحائط عن يميني، ولم يكن هناك أثر للشمعدان بشموعه  
الست، ولا للكتب القديمة بجواره، المنضدة الخشبية نفسها لم تكن  
موجودة. خمنت أن هناك من نقلني إلى غرفة أخرى. اعتدلت في جلستي  
وأنا أتساءل عن مصدر الألم الخافت في جسدي. قمت ببطء، ارتديت  
حذائي، وخرجت بتثاقل.

وجدت صاحبة البيت جالسة في الصالة، تربعت بجوارها فوق «كليم»  
من الصوف. لم أخبرها بما اختبرته في الداخل، ولم يبدُ عليها أنها تنتظر  
كلامي أو تتوقع مني شيئاً.

حملت حقيبة يدي، وخطوت أولى خطواتي في طريق العودة. ثمّة  
مطر خفيف، وظلام يخطو مترددًا. أحكمتُ وضع شالي الأسود على  
كتفي، مددتُ كفيّ أمامي فسقطتُ عليها قطرات مطر، ضمنت قبضتي  
متمنية أن تتحول إلى أحجار زمرد متلائة، تُذكر بحكاية «جبل الزمرد».  
لعله ما طُرِدَت هذه الحكاية من «ألف ليلة وليلة»!

أغفلها الرواة والمدوّنون، في البداية لجأوا إلى تحريفها، وإذا اتبته  
أحد المستمعين، يمكرون فيصححون تفصيلاً أو اثنتين، للتمويه على  
باقي التفاصيل المُحرّفة. مع الوقت اختلفت عن أصلها، بل تناقضت  
معه، تفرّقت دمهيا بين الحوادث الأخرى، وتوزعت تفاصيلها عليها!  
لا أحد يعرف لماذا قُدِّر لها تحديداً أن تُحرّف حد التضاد مع أصلها،  
ثمّة من يقول إن بعض الرواة القدامى وجدوا فيها إزعاجاً مبهمًا لا يقوون  
على تحمله، وهم ينشدون «الليالي» في أزقة وحنات: بغداد، والقاهرة،  
ودمشق. كأن لعنة ما تسمّوها؛ لعنة تنتقل إلى عقل الراوي، وتنخر فيه  
كسوسة شرسة، حتى يستبد به وحش الجنون، كم من راوٍ فقد عقله، وهام  
على وجهه في الدروب!

آخرون زعموا أن التحريف المتعمّد جاء طلباً لسكينة روح الأميرة  
زمردة، ابنة ياقوت ملك الجبال والأحجار الكريمة المقيم في قاف. ادّعى  
هؤلاء أن كل ذكر للحكاية كما جرت وقائعها، خنجر يطعن الفتاة التي  
كانت كعادة أميرات «الليالي» جميلة كالبدر لا يرتوي منها البصر، من  
ينظر إليها نظرة؛ تورثه ألف حسرة.

بالغ بعضهم مؤكداً أن كل كلمة ينشدها راوٍ للليالي تهبط بالأميرة، ذات  
الابتسامة العذبة والخذ الأسيل، درجة في غياهب الجحيم.  
روى العارفون بخبايا «ألف ليلة» ومفسّروها الأوائل أن طرد حكاية

ابنة ملك الجبال من جنة الكتاب الأشهر، كان قدرًا لا فكاك منه، ومع ذلك كان قدرًا جالبًا للّعنة. لعنة «الليالي» كما أطلقوا عليها، ذلك الكتاب القاتل، الملعون، الضّاج بصرخات آلاف الممسوخين والملعونين وشياطين الإنس والجن، المثقل بالتعاون والتمائم الشريرة وكافة أشكال السحر الأسود.

مثلما تأمرت بقية حكايات «الليالي» على هذه الحكاية وطردها من الكتاب، كان للحكاية انتقامها الأسود، كون والد زمردة، وكان ساحرًا لا يُبارى، قد وضع لعنة تصيب كل من يقترب من ابنته المدلّلة بسوء، سواء في حياتها أم بعد مماتها. وهذا ما كان. ردّت الحكاية الحاملة لروح الأميرة المعذّبة الانتقام، ولعنت الكتاب كله. صار مطاردًا منبوذًا في ثقافته الأم، من يقرأه كاملاً يموت مع انتهائه من آخر كلمة فيه.

وحدهم النّسّاك والمتصوفة المتحدرون من جبل قاف، والذين تاهوا - إثر تلاشيهِ - هم ونسلهم في بقاع الأرض المختلفة، هؤلاء الذين ابتعدوا عن إغراءات الحياة، واختاروا، بعد عقود من التّيه، الاستقرار في الجبال والمرتفعات طلبًا للسكينة، وحدهم من حملوا عبء رد الحكاية لأصلها، ومن ثم إعادتها ل«الليالي».

فعلوا هذا اتقاءً لشرّ اللعنة المحدقة بمن ينكرها، وأملًا في استعادة وطن أسلافهم الموغل في القدم، وحبًا في الحكاية التي رأوا أن لا حكاية أخرى تدانيتها جمالًا، لا في كتاب «الليالي»، ولا في «المهابهارتا»، ولا في «الشاهنامه»، ولا في أي كتاب وضعه الأوّلون.

كانوا واثقين من أنها الحكاية المفضّلة لشهرزاد من بين كل حكاياتها الآسرة. وأنها التميمة السحرية التي حمتها من بطش شهريار. كتب النّسّاك في مدوناتهم السرية المحفوظة في كهوف الجبال أن

«شهر يار» نفسه وقع في هوى الحكاية وبطلتها، وأنه كان يخطئ، أحياناً، وينادي «شهرزاد» باسم زمردة. لم تكن تغضب لذلك، بل تبتسم بلطف، وتتمنى لو كانت بالفعل ابنة الملك ياقوت، مليكة جبل الزمرد وحاميته. لكم حلمت شهرزاد بأن تكون هي تلك الأميرة الأجمل من منار السناء، المرأة ذات الريش؛ ابنة ملك الجان في حكاية حسن البصري، والأكثر علمًا من الجارية تودد والأميرة نزهة الزمان معًا، والأشجع من إبريزة ابنة ملك الروم في حكاية عمر النعمان وابنه الأمير شركان.

في حكاية «جبل الزمرد»، كان حضور زمردة الأسر يلوّن الفضاء بلطفه وذكائه وجرأته. لم تعرف شهرزاد أن خبر زمردة، كما وصلها وكما حكته لشهر يار، لم يكن إلا تحريفًا مشؤمًا لقصة حياة أميرة واقعية عاشت ذات يوم فوق جبل قاف السحري، حياة تلاشت ولم تخلف وراءها سوى حكاية خضعت لتحريف مستمر، وتنتظر من يخلصها مما علق بها من آثار التشويه ويحيي ما مات من أجزائها، أو أغرق في ضباب النسيان.

مع الوقت، بدأ النسك المتحدرون من قاف في التناقص. حتى عقود مضت لم يكن قد تبقى منهم إلا سبعة: ناسك في كهف سرّي في جبل قاسيون بدمشق، وآخر في جبال زاغروس، وثالث في جبال الأطلس، ورابع في جبل «سانت كاترين»، وخامس يعيش في الهيمالايا، وسادس عند قمة جبل دماوند في إيران، وسابع على مقربة من أطلال قلعة «آلموت» بجبال ال«ديلم»، وكل ناسك منهم يحرص على أن يختار بعناية، قبل وفاته، ناسكًا آخر، ليحمّله عبء الحكاية.

كان الواحد منهم يعرف كل شيء عن الآخرين من دون تواصل فعلي بينهم. عاشوا مع مرديهم القليلين منتظرين انبعاث أميرتهم الغائبة، لكن سرعان ما قلّ عددهم، إذ مات خمسة منهم بلا وريث مؤتمن على السر،



وغادر السادس جبل دماوند مع طفله الوحيد لتتقطع أخباره عن ناسك  
جبال الديلم، والذي كان يعتبر الأكثر دراية بسيرة ابنة الملك ياقوت،  
خاصةً أن بحوزته مخطوطاً نادراً يحوي علامات وإشارات - معظمها  
ملغز - تقود، في حالة النجاح في فك شفراتها، للنقص من تفاصيل  
«جبل الزمرد»، وتساعد على عودة بطلتها. كان مقتنعاً أنني، أنا ابنته  
الوحيدة، بستان البحر أو «بوستان دريا» - كما اعتاد مناداتي - من سينجز  
هذه المهمة العصية على الإنجاز منذ قرون.

ذكرت النبوءات، المكتوبة على هيئة ألغاز وأشعار غامضة، أن الكاهنة  
المنتظرة ستبعث زمردة من رماد احتراقها، عبر تنقية حكايتها مما أصابها  
من تحريف وإعادة إلى متن «ألف ليلة»، ولحظتها سوف يتجسد قاف  
من جديد وتبطل لعنته، فيرجع إليه أهله بعد قرون من التيه.

كان ناسك جبال الديلم مؤمناً بإخلاص بالقوى السحرية للكلمات.  
بكلمة واحدة تنهار ممالك وإمبراطوريات، وبنسج حرف بجوار الآخر  
تنتهي حيوات، ووحدها زمردة ستسير بمهارة، مغمضة العينين، بين  
حقول ألغام الكلمات، عارفةً خيرها من شرها. كم ابتهل كي يشهد عودة  
الأميرة، كان سيعرف بها في حال تساقط مطر من زمرد؛ حبات خضراء  
لا يراها إلا المؤمنون بحقيقة قاف. من عداهم سيرونها كأبي مطر آخر.

أعمار أجيال من أسلافه النساك ضاعت في انتظار هذا المطر الزمردى  
الآذن بعودة ابنة ياقوت التي ما إن تتجسد من جديد، وتستفيق إلى واقعها،  
وتستعيد تفاصيل ماضيها حتى ينتصب قاف مجدداً، ويتراقص ابتهاجاً،  
وإذ يحصل ذلك ستفصل عن جسده قطع زمرد كمطر منهمر على العالم.  
ساعتها سُبعت العنقاء، وتعود رعية ملك الجبال الناجية إلى موطنها.  
سيواصلون حياتهم من اللحظة التي توقفوا عندها بعد تخلصهم من

لعنة الإخفاء والتهيه. سيمثل لهم الملك ياقوت كراع سرمدي، في حين  
تحكمهم الأميرة مستفيدة من حكمة قاف وفلسفته، تلك الحكمة المؤدية  
إلى فهم الذات، ومن ثم فهم العالم!

## مغناطيس الأجساد

كطفل يشيّد قلاعاً رملية ثم يهدمها احتفاءً  
بقدرته على الخلق والتبديد معاً، أبنّي  
بدوري عوالم وأبيدها!

الطريق، المُزَنَّرُ بأشجار الكافور من الجهتين، بالكاد اتّسع لسيارتي.  
بدا بلا نهاية، خاصةً أن الأشجار رمت عليه ظلالاً كابية، كما ضاعفت  
بساتين البرتقال الممتدة على جانبيه من قتامته ومن ضياعي. خفتُ  
للحظة، لكن إدراكي أن لا مجال للتراجع نفص طيف الخوف عني.  
أي شخص هذا الذي يبني بيتاً وسط بساتين مساحتها خمسون فداناً  
في بقعة شبه مهجورة من دون أن يعبّد طريقاً يُسهّل الوصول إليه؟  
لطمأنة نفسي رحت أفكر في طفولتي، في رحلاتي مع أبي إلى  
«شيراز» تحديداً، كنت أحس عندما أزورها أنني على وشك الخطو في  
أرض مسحورة، تغمرني السكينة، فيما يستغرق أبي في تأملاته أمام قبر  
سعدي، يجلس بالساعات محدقاً في نقطة متخيّلة أمامه، أحاكيه كأنما  
أتدرب بدوري على الصمت، «وتحسب أنك جُرم صغير وفيك انطوى  
العالم الأكبر!»، ترن جملة الإمام علي في رأسي، فأغمس أكثر في ذاتي  
وأجاهد حتى لا أنفصل عمّا حولي.

لكن بينما أقود سيارتي وسط بساتين تكاد تبتلعني بداخلها، يجتاحني

الإحساس بالضآلة، أراني جرماً صغيراً يصارع كي لا يلتهمه هذا الطوفان النباتي. لا وجود لأي صوت بشري. لا شيء سوى زقزقة عصافير بأصوات معدنية حادة، وطين نحل يتسابق على امتصاص الرحيق من زهر برتقال يُعبق الجو بأريجيه.

من بعيد بان البيت المشيد بالحجر القديم كقلعة مصغرة تدير ظهرها للزمن. اتسع الطريق حتى انتهى إلى مستطيل من الأرض الفضاء يتوسطه البيت بأسواره العالية. ركنتُ العربية ووقفتُ مترددة أمام البوابة الحديدية. قبل أن أضغط زرّ الجرس، فتح لي المضيف، فخمّنت وجود شاشة مراقبة تُظهر له ما يجري خارج قلعته الحجرية.

قادني إلى الداخل عبر مجاز متعرج، أوصلنا إلى فناء كبير بمثابة حديقة داخلية تتوسط البيت وتتوزع حولها قاعاته الرئيسية على غرار البيوت العربية القديمة.

«خدي راحتك.. دقائق وراجع لك».

جلست على حافة «الفسقية» التي تتوسط صحن الدار، بينما تأنس أذناي لخرير مائها وتشخص عيناى نحو أشجار الياسمين الهندي وزهور الجهنمية المتوهّجة. لاحظتُ أنه زرع أكثر من شجيرة جهنمية مفسحاً المجال أمامها كي تتداخل ألوانها المختلفة، ليبدو الأمر في النهاية كشجرة واحدة يجتمع فيها الأبيض بالبنفسجي والوردي والأحمر.

كان عبير زهر البرتقال المتسلل من البساتين القريبة لا يزال يملأ أنفي، وبدت السماء فوقى صافية على نحو غير مفهوم مقارنةً بالأجواء القاتمة في الطريق الضيق.

عاد بعلبتيّ بيرة «ستيلا»، ناولني واحدة وشرب رشفة من الأخرى. أشار إلى باب قريب فسبقته نحوه. دخلنا إلى قاعة خافتة الإضاءة بتأثير

ستائر مخملية مسدلة. كان ثمة عشرة أشخاص يتحلّقون فوق بساط من الفرو، مستغرقين في مناقشة منعتهم من الانتباه لنا، انضم لهم وأشار إليّ أن أحذو حذوه.

ضايقني عدم تمكني من رؤية وجوه من أجالسهم بوضوح، ثم تجاوزت الأمر حين علا صوت مضيفي وهو يقرأ ما ذكر أنه الأصل الذي أستلهمت منه حكاية «مدينة النحاس». أنصت الحضور بجدية مبالغ فيها، ولمّا انتهى بدأ آخر يحكي من الذاكرة مقتطفاً من حكاية حسن البصري، ذلك الذي ير حل فيه البصري إلى جزر «الواق واق» لاستعادة زوجته «منار السنّا». بعدها بدأت نقاشات حول التأثيرات الدينية على حكايتي «حاسب كريم الدين» و«رحلات السندباد»، وختم أحدهم الحلقة بمدخلة حول ما أطلق عليه: «طيف النبي سليمان كأب مهيمن على فضاء الليالي». اكتفيت بالإنصات، بينما عمل ذهني كجهاز تسجيل يسجل ما أجده لافتاً للانتباه.

ما إن انتهت الجلسة حتى تسلل الجميع مغادرين وخرج صاحب البيت لتوديعهم طالباً مني انتظاره. أزحت الستائر فتسرب ضوء الغروب الخجول إلى القاعة، وبانت لي زخارف الفسيفساء، والأرائك المكسوة بالحريز في الجانب الآخر منها، في السقف لمحت نقوشاً بارزة بدت كطلاسم تضيفي مسحة غرائبية على المكان، وفي وسطها شريط دائري مكتوب فيه بالخط الكوفي: «أنا قطرة مطر سالت من سحابة سخية، وتعرف أنها سوف تتبدد على الأرض مختلطة بترابها لإنتاج ما يتعدها». دقتُ النظر في الجملة فكدت أرى مطراً منهمراً على غابات وبحار وصحارٍ.

بانضمامي لهذه النخبة، قطعت خطوة كبيرة، لكن نهيمي وطول رحلتي

يمنعاني من الرضا. لم يكن من الصعب تعميق معرفتي بالبروفيسور في فترة قصيرة نسبياً بالنظر لمشاركتنا في أكثر من مؤتمر دولي معاً، وولعنا المشترك بـ«ألف ليلة وليلة». بسهولة كنا نمد خيط النقاش بيننا حول كل ما يخصها. كانت دعوته لي لحضور جلسات جماعته «دراويش الليالي» مسألة وقت. أستاذ سابق في جامعة «ليدن»، مهووس بفكرة النص الأصلي لـ«الليالي»، وحالم بتنقيتها من إضافات المترجمين وما يسميه باحتقار «القصص المزوّرة». يكاد يحفظ مقاطع كاملة من طبعة «محسن مهدي»، ويتحفظ عندما أتحدث أمامه عن اهتمامي بإحدى الحكايات المضافة. من بين أبحاثي العديدة، لفتت نظره دراسة صغيرة عن تمثيلات الجبال في «ألف ليلة».

«ملاحظات جديرة بالاهتمام»!

قال بنصف ابتسامة محافظاً على اقتصاده اللغوي ونفوره من المبالغة والمجاز، ففطنتُ إلى أن هذا أقصى مديح يمكن أن يناله منه أحد. وهو يدعوني إلى بيته الواقع وسط بساتين الفاكهة، أخبرني أن هناك مفاجأة في انتظاري، فعرفت أنني على وشك الانضمام لناديه الحصري. عندما تأخر، خرجت من القاعة إلى الفناء، جلست من جديد فوق حافة الفسقية أتأمل المشربيات والقمريات المصنوعة برهافة من الخشب البغدادي.

لم أنتبه لعودته إلا وهو يضع يده على كتفي، بينما يقول بزهو طفولي:

-إيه رأيك في بيتي؟ سَبَّه بيت أثري زرتَه في دمشق!

كدت أسخر من مفارقة أن يفخر المهووس بالأصل الذي أعرفه بعمل مقلّد؛ تحريف لنسخة أصلية، غير أنني بلعت تعليقي مجاملةً له، واحتراماً للبيت المصنّم بإتقان.

-رائع.

رددت بحماسة.

لم أرغب في المناورة، سألته من دون مواربة إن كان يعرف حكاية «نورسين وملكة الحيّات»، وأخبرته بخطوطها العامة. ذكر أن لديه أكثر من صيغة لها، لكن لا يمكنه الجزم أيها الأدق.

كان هذا بالضبط ما أريده، أن يمنحني مفاتيح الروايات المتاحة عن حدودة نورسين، ومن ثم أفرنها مع ما بحوزتي عن «جبل الزمرد»، وعبر لعبة تبادل وتوافق تطرح كل الاحتمالات أصل إلى ما يفترض أن يكون صيغتها المثلى. لسبب ما همّش أسلافي سيرة نورسين زوجة ملك «قاف» كأنها وصمة عليهم التخلص منها.

\*\*\*

وُلدت نورسين في مدينة تُدعى «جولستان»، تقع بين جبال مكسوة بنباتات زاهية الخضرة وبحر هائج باستمرار، كان والدها علامة؛ أتاح لها مكتبة عامرة بكتب الطب والفلك وأخبار الأمصار المختلفة. كبرت وهي لا تتخيل لنفسها موطنًا آخر. لم يخطر ببالها قط أن القدر كتب على جبينها الانتقال إلى مكان ما كان لها تصوّر وجوده.

في «جولستان» حيث قضت طفولتها وصبأها، قلة فقط هي من أتت على ذكر جبل قاف، وأفراد معدودون على الأصابع هم من حفظوا شذرات من أسراره. فعلوا هذا دونما يقين بوجوده الحقيقي. تراءى لهم في المسافة المخاتلة بين أساطير الأولين والحقائق غير المبرهن عليها.

إلى جانب هذه النخبة، كان ثمة شريحة أعرض لم تسمع بالجبل السحري إلا في مقام الوعيد. كان التهديد بالنقل إلى ما خلف قاف أقوى أنواع التهديد. ومع أن أحدًا لم يتيقن قط من حقيقة الهيكل المقدود من

الزمرّد، ومع أن الحكايات المروية عنه تُجمع على أنه يبعد بمقدار سنوات عن أقرب مكان له، بقيَ منبعاً للرهبة بين من سمعوا به. عجز معظمهم عن تخيل جبل تنتهي بنايته الدنيا وتبدأ حدود الآخرة، وتقع خلفه سبعون أرضاً من ذهب وسبعون أرضاً من فضة، وسبعون أرضاً من مسك. في صباها كانت نورسين تسمع أباهما يتحدث مع رفاقه عن قاف. اعتاد أن يؤكد أنه ليس مكاناً حقيقياً، إنما جوهر الحقيقة صعبة البلوغ.

«في الطريق المستحيل إليه، يمكن لأي شيء أن يحدث! كم من سفن ضاعت وكم من أساطيل تاهت، وكم من رحالة فقدوا البوصلة والدليل، وهم يحلمون بالطّورد الأخضر المحيط بالدنيا والمُحدّد لخط الأفق، ولا يفصله عن السماء سوى 80 فرسخاً. قاف هو الحرف القابض على سر وجودنا والمُلم به كمحارة تحتضن لؤلؤة!»

كانت تسمعه يردد هذا، فيشرد خيالها في بحر من لآلي تخطف البصر. تحفظ الشعر، وتقرأ ما يقع تحت يدها، وتواظب على الإنصات للنقاشات الدائرة في مضيئة بيتهم، محاولةً ملاحقة أفكار رائحتها في الهواء. كانت أكثر لحظاتها ألماً، حين منعها أبوها من حضور هذه النقاشات بحجة أنها كبرت، ولا يجوز لها مجالسة الغرباء. لم تستسلم وراحت تنصت على مجلسهم من وراء ستار، في المساء ترتحل مع كلماتهم إلى عوالم أرحب من جدران البيت وحدود المدينة.

ذات شتاء شاع فيه الجذب، وفرغت مخازن الغلال، لمحها الملك ياقوت خلال إحدى جولاته النادرة على متن العنقاء. مستندة إلى حائط في الباحة أمام بيتهم، رأى فيها أجمل مخلوق صادفه، وقرر أخذها معه إلى قاف مهما كلفه هذا. كان يقطع المسافة الهائلة إلى مدينتها بغمضة عين بفضل العنقاء. لشهر كامل اعتاد أن يحوم على مقربة من سكنها دون أن تنتبه له.



واتته الفرصة حين خرجت مع الجموع للابتهاال استجداءً للمطر. وقفوا فوق تل أمام باب المدينة، وقد رفعوا وجوههم المتوسّلة نحو السماء. بأصوات هامسة رتلوا أدعيتهم، واختتموا طقسهم بالتمرغ في التراب. مئات الأطفال والنساء والرجال تمرغوا فوق التل وتدحرجوا نحو الأسفل، فيما وقفت تتابعهم مأخوذة بطلاوة أهازيجهم المتضرّعة، فبانت بجسدها الممشوق وشعرها النبي المستسلم لمداعبات النسيم، مثل ربّة تبارك المتعبدين طمعاً في غفرانها. في اللحظة التي رفعت فيها رأسها لأعلى وأغمضت عينيها وارتسمت على شفيتها ابتسامة استرخاء، حلّق الطائر الخرافي على مقربة منها، فجفّلت، لكنّ يد ياقوت، كانت أسرع من انتباهتها، التقطها كما لو كانت طفلة، وأجلسها أمامه، فضاعت - عبثاً - محاولاتها للإفلات.

لم ينتبه الغارقون في ابتهاالاتهم إلاّ مع صرختها الثالثة. من نظروا أولاً، رأوا ذراعاً قوية ترفع ابنة مدينتهم في الهواء، أما من تأخروا عن متابعة ما جرى، فأبصروا فقط جناحين عملاقين بلون بنفسجي يكادان يحجبان الأفق، ولم يصدقوا رفاقهم حين أقسموا أن رجلاً فوق هذا الطائر خطف نورسين وطار بها إلى حيث لا يعلمون.

عندما هطل المطر بغزارة لمدة أسبوع، قال أهل المدينة إن ابنة العلامة كانت القربان لغيث لم يشهدوا مثله من قبل. لم يترك والدها مكاناً في «جولستان» وما جاورها إلاّ وبحث عنها فيه، وفي النهاية عكف على الغوص بين مجلدات مكتبته، علّه يجد فيها تفسيراً يقبله عقله. ظلّ يبحث حتى مات كمدّاً.

خلال ثوانٍ قليلة وجدت نورسين نفسها فوق جبل هائل مادته من الزمرد المصقول ومحوره من الياقوت وبحيراته من فضة سائلة تنعكس

عليها أشعة الشمس نهارًا فيتراقص الألق فوق صفحاتها، وتتفادها  
الأبصار، وفي الليل ينعكس عليها ضوء القمر فتتحول إلى مرايا بَرّاقة  
يتأمل القمر فيها نفسه كترجس مضيء!

حاولت الهرب مرارًا، ولم تصدق الملك حين أخبرها أن مدينتها تقع  
على بعد سنوات. بكت لأسابيع وامتنعت عن الطعام حتى كادت تهلك،  
قالت لها الوصيفات إن الجبل الزمردي أكثر الأماكن عزلة في العالم،  
كيف لا وملكة الحيات تلتف حول هيكله كأنما تعتصره؟ حية لا مثيل لها  
تحميه من تطفل أي مخلوق، كما تمنع سكانه من مغادرته وتبقيهم أسرى  
سجن من زمرد ثمين.

وحده الملك ياقوت - ومعه الجان والطيور الجارحة - كان يسافر  
بحرية من قاف إلى الجبال والبقاع الموعلة في البعد حد التلاشي. على  
متن العنقاء يستطيع التحليق من مكان لآخر قاطعًا في لحظات أسفارًا  
تحتاج إلى أزمان طويلة.

في النهاية استسلمت نورسين لمصيرها مؤقتًا على أمل النجاح، مع  
الوقت، في تغييره. كلما اشتاقت إلى عالمها القديم فكرت في العنقاء،  
الرابضة في عش آمن مطمئنة إلى أن أحدًا لا يجروء على تعكير صفوها.  
تتخيل ذلك الطائر الخرافي، يطير بها إلى بلادها، تتذكر لونه الأرجواني  
المتوهج، فتفكر في أنه الوسيلة والغاية في آن.

حين ظهرت عليها أعراض الحمل، بدأت تتعامل مع وجود ياقوت  
في حياتها كأمر واقع عليها التأقلم معه، لم تكن تعلم عنه وعن عالمه إلا  
أقل القليل، على العكس من نهمها للمعرفة وهي في «جولستان»، باتت  
غير مكترثة، وابتلعت فضولها مع تربعها على عرش قاف.  
لم تعرف من أين أتى ياقوت! ولا كيف أصبح ملكًا على كل جبال

العالم وأحجاره الكريمة، ولا لماذا اختار الإقامة في هذه المدينة المعلقة فوق قمة جبل لم تر له مثيلاً من قبل.

عرفت فقط، أنه من بين كل الأحجار وقع في هوى الزمرد. كيف لا وهو يبصره في كل شيء حوله فوق قمة قاف؟ أخبرها، وهو يتأمل جدران قصره الزمردى، أنه رأى في خضرته المتدرجة المُكْمَل لأحمر الياقوت. فقالت: «سنسمي مولودنا القادم باسم الزمرد سواء أكان ذكراً أم أنثى. مرامي أن يكون له بعض من حُسن الزمرد وسببه. فكما تعرف، أعزك الله، لكل امرئ من اسمه نصيب».

راقته الفكرة، وتمنى أن يكون المولود أنثى بعينين براقيتين كحجري زمرد، خضراوين كجبل قاف. بعد بضعة أشهر جاءت زمردة إلى العالم كمالك رقيق بملامح أسرة وعينين لامعتين. هادئة، لا تكاد تبكي، تُرقدُها أمها على ظهرها فوق الفراش فتتأمل السقف تأمل الحكيم العارف. كانت كأنها مولودة بمعرفة هائلة رغم صمتها. في البداية ظننها أبواها بكما لأنها حتى سن العاشرة لم تنطق بكلمة واحدة، كانت فقط تطيل النظر بعينين باسميتين مرتاحتين.

في سن السابعة، وبسبب إلحاح أمها، أحضر لها والدها كبير حكماء قاف كي يعلمها الحرف، ويغرس فيها بذور الحكمة، كان الرجل يطيل الشرح محتاراً، غير واثق إن كانت تفهم ما يقول، أو حتى تسمعه، أم لا. كانت تنظر إليه من دون أن تتكلم. من جانبه أدى مهمته متغاضياً عن مسألة عدم التواصل، كان يتحدث عن الفلسفة وأصول الطب والجبر والفلك، ويحكي عن ممالك بعيدة في السند والهند، ووراء بحر الظلمات، يحكي عن طيور الرخ المحلقة باستمرار فوق مدن موغلة في البعد كأنها سماء داكنة موازية للسماء، وعن رحالة يرتادون الآفاق غير عابئين بالأخطار،

عن الأحجار الكريمة والجبال الممتدة على مساحات شاسعة من مملكة أبيها تفصل بينها بحار ومحيطات بلا نهاية.

رسم لها جغرافيا جبل الماس المحاط بوادي الحيات، حيث يذبح التجار حيواناً ويقذفونه في عمق الوادي فتلتصق الماسات النادرة بلحمه الساخن قبل أن ترفعه النسور الجارحة فوق القمة من جديد، فيخفيها التجار ويلتقطوا الجواهر على عجل.

وأفاض في كل ما تجب معرفته عن جبل السحاب الذي تكاد ذؤابته تلامس الغيم، حيث تسكن البنات السبع لملك الجان في قصر لا يستطيع إنسي بلوغه.

أسمعتها حكايات تخلب اللب عن جن حبسهم الملك سليمان في قمام سحرية مختومة بالنحاس، وتركهم أسرى زمن ميت.

من السابعة حتى العاشرة من عمرها، حشا الحكيم عقلها، بعلم وافر ورصيد لا ينفد من الحكايات، إلا أنه كان يتردى في هاوية اليأس لشعوره بأنه يكتب على الماء، يضيّع وقته الثمين مع مخلوق بالغ الجمال لكنه لا يكاد يفقه شيئاً رغم ذكاء عينيه وبريقهما الأخاذ.

يوم عيد ميلادها العاشر، وبينما يشرح لها قوانين البابلي حمورابي، بعد أن عرفها على أسرار الفرعوني بتاح حُتب، وعلى جغرافيا جبل المغناطيس ولعته المميّنة، بلغ منه اليأس مبلغه. قرر، بتهور، التوقف عن إهانة علمه ورميه أسفل قدمي هذا الكائن الملكي الصامت. لم ينشغل بما قد يجلبه هذا عليه من نقمة وعقاب. ندم - قبل كل شيء - على خيانتة لقناعته الراسخة بلا جدوى تعليم الإناث.

نظر إليها بحسرة، ففهمت ما يفكر فيه، وأرادت ثنيه عن قراره، فكان عليها أن تهجر عالم الصمت. نطقت بكلماتها الأولى:

-سيدي ومعلمي لم يضع جهدك سدى، ويومًا ما ستتيقن من هذا!  
كان صوتها واثقًا، وأمرا بلطف، كأنما تدربت على جملتها هذه مئات  
المرات، كي تترك الأثر الذي تركته في نفس الحكيم. تخلى الرجل عن  
وقاره، صرخ فرحًا، وركض لإخبار والديها أن ابنتهما ليست بكماء صماء  
كما خيّل لكل أهالي المملكة.

من يومها واصلت زمردة الحديث بصوتها ذي الرنة المعدنية العصية  
على النسيان، وكأنما ترغب في تعويض سنوات صمتها، انكبت على  
التعلم بنهم لم يصادفه الحكيم مع أيّ من مريديه. لاحظ انشغالها بالعالم  
خارج حدود قاف، وسؤالها الدائم عن أكثر الممالك نأيا كأنها ورثت  
عن أمها هوسها بالرحيل. كانت متعطشة للحكايات؛ للنهل من عجيبها  
وغريبها. استفسرت مرارًا عن قماقم سليمان، وكيفية تسخير الجن،  
استفسرت عن عشبة الخلود، وهل من سبيل للوصول إليها؟ وعن طريقة  
لترويض جبل المغناطيس واستئناس أحجار الجنون الفضية.  
سعى الحكيم لجرّها إلى أرض الواقع وعلومه، غير أن غرامها الأول  
كان الغيبات. درست على يديه العلوم والرياضيات، لكن كيانها كله كان  
مع الخيال وعوالمه المغرية.

\*\*\*

كان ميلاد زمردة قد مثل نقطة تحول في حياة نورسين، إذ تغيرت  
صلتها بالحياة في «قاف». صارت ابنتها وطنًا بديلًا لها. كانت تتأملها  
بالساعات، في سنواتها الأولى، مبتهلة أن تخصصها ولو بكلمة واحدة،  
وكادت تجن من الفرحة عندما نطقت الصغيرة أخيرًا وهي في العاشرة  
من عمرها.

بدت الأم وقتها كأنما نسيت حينها لمسقط رأسها، وغربتها الإجبارية

في بلاد لا تهمها في شيء، لكنها في العام الأخير قبل اختفائها، داهمها حنين مَرَضِي. كانت شوارع مدينتها وأزقتها تسكن أحلامها. كانت ترى الطرقات والميادين والحرارات كما لو أضحت خالية إلا من مبانيها وأشجارها، لا بشر ولا حيوانات ولا طيور. ثم زارها طيف لعملاق بمسوح داكنة يقطع دروبًا وعرة، وأبى أن يغادر مناماتها. كانت تتابعه كل ليلة تقريبًا وهو يذرع طرقًا لا نهائية بينما تسير خلفه، وفي ذهنها أنه من سوف يدلها على طريق العودة.

ليلة بعد الأخرى، غلبتها الرهبة بينما يمر بمدن مُقبضة، واستسلمت للبهجة وهي تبصر أضواءً تنعكس فوق قباب كريستالية هائلة، وحسبت أنفاسها فيما يتسلق درج جبل حالك السواد، مهددًا بسقوط مدوٍ مع كل خطوة. تركته يغالب قدره في رحلة صعوده، ووجدت نفسها على قمة الجبل تستمع لصوت أبيها كأنما يقرأ من كتاب:

«في المسافة اللانهائية بين جبلي المغناطيس وقاف تكمن أسرار الوجود وخباياه».

لطالما وقف جبل المغناطيس بالمرصاد للرحالة والمغامرين. كان مغناطيسه الأسود يجذب مسامير وحديد السفن، فتنفصل عن خشبها وتتطاير في الهواء منجذبة نحوه، لتتحطم السفن ويغرق ركابها. قد ينجح نفر منهم في السباحة وتسلق درج الجبل نحو الأعلى حيث طيور الرخ بالغة الضخامة، ومن هناك ينظرون للأسفل فتميد بهم الأرض وهم يتأملون الطريق الذي قطعوه صعودًا.

فوق قمة المغناطيس يقتم اللون الأسود ويتمدد كأنما يغطي الكون، أسود حالك يخطف البصر ويجبر ناظره على التحديق فيه كالواقع تحت تأثير سحر لا شفاء منه، يعود لا يبصر زرقة السماء ولا زرقة البحر

المستعارة منها، تتلاشى خضرة الأشجار وأبيض السحب ودُكنة الغيم. ليس على المسحور بمغناطيس اللون أن يبتس، لأن هذا السحر أخف من آخر أشد ضراوة، إذ ثمة أحجار بَرّاقة من فضة شاهقة البياض تتناثر بين المغناطيس الأسود، وإذا كان هو يمغنط المعادن، فالأحجار الفضية تمغنط أجساد البشر، بحيث إذا نظروا إليها تتلألأ؛ لا يقوون على الابتعاد عنها، وتأخذهم أقدامهم رغماً عنهم نحوها ليلتصقوا بها غارقين في ضحك بلا نهاية يقودهم إلى أعماق الجنون. جنون الفضة هذا يختلف عن غيره من أنواع الخبال في اقترانه بالضحك ليصبح مساً ضاحكاً ينتهي بالموت».

لم تحكِ نورسين أحلامها لأحد، كما لم تأت أبداً على ذكر العملاق الذي صارت ترى فيه رفيق درب، لا تدري إلام سيتهي بها. مع الوقت أخذت الأحلام تتضح أكثر، فسرتها بأن الرجل هو من سيعيدها إلى بيت أبيها، ثم بدأ يسكنها هوس جديد؛ هوس جبل المغناطيس بأحجاره الفضية. صارت تخايلها في الحلم، فتصحو غير قادرة على التفكير في سواها. تساءلت أيمن أن تكون قد تمغنطت عن بعد؟ خافت من الجنون، وإن لم تستطع، بل لم ترغب في مقاومته.

في حلم كاشف رأت نفسها على أطراف جبل الزمرد، تحديداً أمام الجميزة المعمرة المسكونة بملكة الحيات، انتظرت طويلاً قبل أن تسمع صوتاً منبعثاً من التجويف في جذع الشجرة يبشّرها بقرب تحقيق مرادها. عندما اختفت نورسين، كانت زمردة في عامها الخامس عشر. استماتت كي يكشف لها والدها سر اختفاء أمها، لكن كلماته القليلة كانت تلف الحدث بطيَّات إضافية من الإبهام. بات اسم الملكة نورسين محرماً على الألسن فوق قاف، ومع هذا حمل الهواء لابتها همسات

تربط رحيلها بملكة الحيّات وجبل المغناطيس، فقد تناقلت الوصيفات أن آخر مكان شوهدت فيه ملكتهم كان مقر الحيّة الحارسة.

في العام نفسه، ولإخراج زمردة من أحزانها، أخذها أبوها إلى عش العنقاء لأول مرة، مرّنها على ركوبها وترويضها، وأخبرها أنها ستكون وسيلتها للتعرف على العالم والسفر فيه ما إن تبلغ الحادية والعشرين، حدّرها بشدة من خرق الناموس المقدس والمغادرة قبلها.

عاهدته على الطاعة، وفي ذهنها أن جبل المغناطيس سيكون وجهتها الأولى، ما إن يُسَمَح لها بالسفر. ستطأ أرضه مهما كانت المخاطر. في أحلام يقظتها كان طيف أمها يخيلها متجولاً بين شعابه ومنحدراته. لطالما حلمت زمردة أن تجوب العالم على متن العنقاء، ثم تحوّل حلمها إلى هاجس مُومضٍ إثر تبخّر أمها.

بدا لها عمر الحادية والعشرين بعيداً، أرادت التعجيل بهذه الخطوة، لتيقننها من أنها كلما سارعت، كلما زادت فرصتها في العثور على أمها. كانت تؤمن بأنها ضاعت في غياهب جبل المغناطيس، بسبب لؤم ملكة الحيّات؛ حارسة قاف وضامنة عزلته.

حين كاشفت كبير الحكماء برغبتها في التخلص من الحية العملاقة بحجة أنها تمنع سكان الجبل من مغادرته، فاجأها فرعه. أخبرها أنها تحميه، وتحفظه من خطر التبدد والزوال، ولم تؤذ أي كائن من قبل، فقط تلتف على هيكل الجبل كأم حنون، ثم تلجأ إلى كهفها الخاص في فترة البيات الشتوي. أضاف أن عزلة قاف قدرية ولا دخل لمخلوق فيها. سايرته الأميرة وصممت، ظن أنها نسيت الأمر لأنها لم تعاود الحديث عنه. في تلك اللحظة السحيقة كانت قد بدأت، دون أن تدري، درب الاحتراق.



## وحدها في مدينة صاحبة

هشة كابتسامة لحظة انطفائها، ارتحلتُ  
من مكان لآخر، حاملةً السرّ بداخلي.

أضاعت هدير زمردة في طفولتها، وقدرها أن تضيع طوال حياتها بحثًا  
عنها!

مَنْ كان ليخبر الطفلة ذات السنوات الست أن خطأً بسيطاً، أو فعلاً  
منسياً نقوم به دونما قصد قد يرسم مصيرنا. لو لم يخلب الفصّ الأخضر  
البراق لُبّها. لو لم تشتتته وهو يتوّج بنصر أمها. لو لم تلتقطه خلسة من  
دُرَج التسريحة، وتخرج به إلى حديقة بيت جدّها، ويسقط منها في كومة  
القش، لو لم يحدث كل هذا، لربما عاشت هدير حياةً أخرى. لربما ما  
كان لحكايتنا أن تكون. لكن من يمكنه إقناع الشابة الجامحة بهذا بعد أن  
كُتِب على مصيرنا التلاقي؟

في طريق عودتي من البيت الكائن وسط بساتين البرتقال الممتدة،  
كنت مشغولة بهدير. غابت عني وقائع حكاية نورسين وذكرى رائحة  
المطر فوق جبال الـ«ديلم»، واستولى عليّ مشهد هدير وهي تترجّل من  
التاكسي:

خرجتُ من العربية، أغلقتُ الباب خلفها بقوة، وجرت حقيبتها ذات  
العجلات على الرصيف المتكسّر في شارع جدتها. كونها لم تزرها في

منزلها منذ فترة طويلة، أخطأت البناية التي تسكن فيها، وطلبت من السائق أن ينزلها أمام بناية مشابهة على بعد أمتار.

في الحادية والعشرين من عمرها، سارت وحيدة، تسحب حقيبة مكتظة بملابسها، وتحايل على الرصيف كي لا يعوق مسار حقيبتها. أمها في طائرة عملاقة في طريقها لزوجها الجديد في كندا، وهي عليها أن تعيش لعام كامل على الأقل مع جدتها لأبيها.

في لحظتها تلك، ذات ظهيرة ممّلة، كانت هدير بشعرها الـ«كيرلي» الأسود القصير، وجسدها النحيل، وملابسها «الكاجوال»، تمر بلحظة مماثلة لتلك التي اختبرتها وهي في السادسة من عمرها، حين أضاعت خاتم أمها الزمردني، ثم هامت على وجهها في الشوارع المجاورة لمزرعة جدها. غير أنها، على عكس تلك اللحظة القديمة، لا تشعر بالخوف ولا الضياع، إنما بحرية ممزوجة بالإنارة والترقب.

لكم رغبت أن تظل في شقتهم حتى المساء، لكنّ أمها رفضت أن تتركها وحدها في الشقة. تأكدت من إغلاق الغاز ومفاتيح الكهرباء، وصممت على أن تغادرا معاً: هي تغادر إلى المطار قبل موعد طائرتها بساعات خوفاً من مظاهرات قد تعطل حركة المرور، وابتنتها تغادر إلى بيت جدتها.

وحدها في شارع مزدحم يضج بالحياة والناس، سارت هدير وقلبها المتوثب يتقاذف في صدرها، لأن نادبة قالت إنها تكره مشاهد الوداع، لذا فلا مبرر لأن ترهق وحيدتها نفسها بمصاحبتها إلى المطار، ذكرت هذا كما لو أنها تفضل عليها بهذا الصنيع؛ كأن مشاهد الوداع في عرض الشارع ليست وداعاً!

ربما لم يكن مشهدهما كذلك بالفعل، لأن نادبة المرتبكة بحقائبها

العديدة، وبأوراقها من جواز سفر إلى تذاكر وخلافه، ساعدت سائق «الليموزين» على وضع أمتعتها في صندوق سيارته، ثم اكتفت بطبع قبلة سريعة فوق جبهة هدير، قبل أن تدخل السيارة وتغلق بابها تاركةً ابتها على الرصيف في انتظار مرور تاكسي يوافق على توصيلها من آخر شارع الهرم إلى حي المنيل في وقت الذروة هذا.

رغمًا عنها تشبث عيناها ب«الليموزين» وهي تتعد، وخيل إليها أنها لمحت أمها تستدير ناظرةً إليها عبر الزجاج الخلفي، وتمرّر كفها الأيسر أسفل عينيها كأنما تمسح دموعًا.

استغرق التاكسي ما يقرب من الساعة، كي يقلّ هدير إلى بيت جدتها. كادت تختنق بداخله، كأن زحام الشوارع يطبق على صدرها، وها هي تخطئ العنوان فيتضاعف إحساسها بالاختناق.

وصلت أخيرًا إلى البناية العتيقة ذات الزخارف والتماثيل البارزة على واجهتها، جرّت حقيبتها نحو المصعد القديم من الحديد المشغول، والمكسو من الداخل بالخشب، تساءلت في سرها عن الطابق الذي تقيم فيه جدتها، قبل أن تتذكر أنه الطابق الخامس وتضغط زرّ المصعد.

فتحت باب المصعد، فأحدث جلبة أزعجتها، خرجت منه، وقفت أمام باب الشقة تلتقط أنفاسها، قرأت بصوت مسموع الاسم المكتوب فوق لوحة نحاسية بيضاوية الشكل: «شبيروت قنديل». ردّده مرة أخرى مُنغمًا، وهي تهز رأسها وترفع حاجبيها، ثم ضغطت على الجرس.

فتحت شبيروت الباب. دققت النظر في الشابة الواقفة أمامها، ثم قالت بصوتها العميق:

-هدير! أهلاً حبيبتى.

وانتحت جانبًا مفسحةً لحفيدتها مساحةً للدخول.

«هدير! أهلاً حبيبتى.» هكذا، دونما قبيلات أو أحضان أو مشاعر مبالغ فيها، كأنها ترى هدير هذه كل يوم. وكان هذا مناسباً تماماً للشابة المتحفزة. تركت حقيبة الملابس في الردهة بجوار الباب، واتجهت خلف شيرويت إلى الصالون. جلست تستريح، وتتأمل جدتها بفستانها الكتان الرمادي القصير، وجسدها الممتلىء، ووجهها المأخوذ، كأن هناك من فاجأها على غفلة منها بشيء يدعو للتوتر والذهول.

دونما كلمات فكّرت كل واحدة كيف ستعامل مع نظيرتها طيلة عام كامل. نظرة هدير شابتها لمحة سخرية هازئة، وهي تفكر في الموازي الكاريكاتوري لشخصية جدتها، أما الأخيرة فتأملت حفيدتها كما تتأمل موضوعاً للفرجة.

بمجرد دخولها الشقة، عادت هدير عدة عقود إلى الخلف. الشقة بسقفها بالغ العلو، ونوافذها المرتفعة، وأثاثها القديم، ساهمت في تعزيز هذا الشعور، إلا أن الدافع الرئيسي له، كان شيرويت نفسها: ملابسها المتممة إلى عقد الخمسينات من القرن الماضي، أو الستينات على أفضل تقدير، العدسات السميكة لنظارتها، شعرها القصير فضي اللون، وكلماتها التي تبدو كأنما خرجت لتوها من فيلم قديم من زمن الأبيض والأسود.

«صباح الخير يا نينا. نهارك سعيد. تشرفنا يا إكسلانس، ممنون لسعادتك.....!» كلمات بدت منطقية جداً إذا نطقت بها شيرويت. سألت هدير عن الغرفة المخصصة لها كي تستريح قليلاً.

-«تاني باب يمين»!

عادت إلى الحقيبة التي تركتها في المدخل وسحبته متجهة إلى حجرة والدها قبل زواجه من أمها، في الداخل سيطر عليها الارتباك،

المكان واسع ومرتب، لكنه لا يشبهها. سرير كبير، دولا ب بمرايا مصقولة، ومكتب فوقه «أباجورة» على هيئة تمثال لفينوس بلا ذراعين. على الجدران صور لفرح فاوست، بروك شيلدرز في طفولتها، راكيل وولش ونجلاء فتحي.

«مين اللي ممكن يعلق صور زي دي دلوقت!»

أحبت فكرة أن تعيش، بشكل ما، في ماضي أبيها، في مكان شهد فترة لم تعاصره فيها، كمال، الطفل فالمرهق فالشاب. بدأت في رص ملابسها وأشياءها في الدولا ب الفارغ، وكتبها الدراسية فوق المكتب. لكنها حين انتهت تأملت الصور المعلقة من جديد وقررت التخلص منها، وتغيير كثير من التفاصيل كي يتلاءم المكان مع ذوقها وعصرها.

Sorry dad! I have to destroy your intimate old world.

ارتمت فوق السرير، وأغمضت عينيها طلباً لبعض الراحة.

لم يبد أي صوت من جدتها بالخارج، كان الصمت هو اللغة الوحيدة السائدة. استيقظت بعد ساعة ونصف الساعة. اغتسلت، ارتدت ملابسها، وخرجت.

تناولت غداءها في «هارديز»، واشترت شموعاً بروائح الياسمين وخشب الصندل والليمون، وبوسترات لجاستين تيمبرلاك وآيمي واينهاوس.

في فراشها وهي تنهياً للنوم، بكت كما لم تفعل من قبل. في هذا الوقت تكون حساسة أكثر من المعتاد. شعرت أنها مهجورة من الآن فصاعداً: والدها في دبي مع زوجته الثانية وطفليه منها، وأمها في «تورنتو» مع زوجها الجديد.

كان الأرق رقيقها حتى الفجر، ومع هذا لم تغادر الفراش. غفت في

الرابعة صباحًا واستيقظت في التاسعة، وفي بالها أن تعاملهما بالمثل وتستثمر الحرية التي يتيحها لها وضعها الحالي في تحقيق حلمها المؤجل بالسفر وحدها.

ظلت في السرير لبعض الوقت، ثم مدت يدها والتقطت طلاء الأظافر الـ«فوشيا» الذي وضعته بالأمس على الكومود، وجلست تطلي أظافرهما، وهي تتراقص على أنغام موسيقى وهمية. تفحصت أدوات زينتها وقارورة عطر «مس ديور» أهدتها لها أمها قبل أسبوع، ثم نظرت لنفسها في مرآة الدولاب، وقررت أن تغيّر قصة شعرها في أقرب فرصة.

لم ترغب في الذهاب إلى الجامعة، ولا الخروج لمقابلة أصدقائها في مقهى «البورصة»، لأنها صارت تتجنب النقاشات السياسية المتواصلة وموجات الإحباط الجماعي بعد هنيهة من النشوة العارمة. فتحت الشباك فوصلتها أصوات الخارج وهوأه البارد. عادت إلى المكتب وسحبت ألبوم صور من بين كتبها الدراسية، وراحت تتفرج على ما فيه من «كروت بوستال» جمعتها بنفسها لمدن عديدة حول العالم. تصفّحت سريعاً مناظر رائعة من سويسرا، الصين، كوريا وأستراليا، وتوقفت أمام مجموعة صور ستوكهولم التي تشغل نصف الألبوم تقريباً. دققت النظر فيها، فشعرت - كما كل مرة - كأنها تخطو في تلك المدينة الإسكندنافية المثيرة لخيالها. عرفت بها لأول مرة، وهي في العاشرة من عمرها عبر إحدى روايات «رجل المستحيل». فنتتها من دون أن تراها، وراحت من يومها تجمع كل ما يخصّها من صور ومعلومات.

أغلقت الألبوم، وأخرجت سيجارة حشيش مخبأة في حقيبة يدها، أشعلتها ووقفت تدخنها أمام الشباك المفتوح وهي تنظر شاردة إلى مدرعة جيش تصفع عينيها كلما أبصرتها. رشّت رشّتين من «مس ديور»

في فضاء الغرفة للتمويه على رائحة الدخان، سرح ذهنها في خيالات تذكّرها بكل لحظات الصفو الممكنة، وقررت قضاء يومها في الكسل على أن تخرج مبكرة في اليوم التالي لتنفيذ ما اعترمته.

\*\*\*

أطلت شيرويت من النافذة. مدت يدها للتأكد من درجة برودة الجو، وعادت برأسها من جديد للداخل. بدا الميدان أهدأ من المعتاد. بائعة الجرائد على الناصية المواجهة انكمشت على نفسها بجوار كشك السجائر، وغطت جسدها بشال صوفي أسود أخفت فيه يدها اليمنى، فيما أخذت تكوّر كفها اليسرى وتنفخ فيها لتدفئتها، بينما تعلّق بصرها بالمدرعة العسكرية الواقفة على مقربة.

راقبتها شيرويت، فانتقلت البرودة إليها. أغلقت النافذة بهدوء، وهي تداري حنقها لأنها سوف تُحرّم من جلستها الصباحية في الشرفة المطلة على زاوية أخرى من الميدان بسبب البرد الشديد. صبرت نفسها بأن الشمس سوف تشرق لا ريب قبل انتصاف النهار، وساعتها ستعد فجان القهوة الأثير لديها، وتتابع من الشرفة حركة الناس في الميدان، والشوارع القريبة، المفضية منه وإليه.

خرجت هدير في وقت مبكر. أفاقت شيرويت من نومها على صوت اصطفاق باب الشقة. قاومت كسلها وألم مفاصلها، ونظرت في الساعة على «الكومود» المجاور. فوجدت أنها السابعة ونصف. حاولت النوم مجدداً دون جدوى، ظلت راقدة في فراشها لمدة ساعة ونصف الساعة، قبل أن تغادره في التاسعة. حين فوجئت بهذا الطقس البارد غير المعتاد في أبريل، وتذكرت أن لا محاضرات في الجامعة اليوم، ولا نظاهرات معلن عنها مسبقاً، تعجبت أكثر من الخروج المبكر لحفيدتها. شعرت

ببعض الندم لأنها وافقت على تحمل مسؤوليتها إلى أن تنتقل للإقامة مع أمها في كندا.

تحركت ببطء نحو المطبخ، أعدت لنفسها شايًا بالحليب، رصت بعض قطع البسكويت في طبق وضعته على صينية، واتجهت إلى غرفة المعيشة حيث جلست تقضم قطعة بسكويت، ثم تتبعها برشفة من الكوب، وهي تقرأ الجرائد باهتمام مبالغ فيه. سهت قليلاً عن إفطارها، أمسكت قلمها «الفلوماستر» الأخضر، وبدأت تضع خطوطاً تحت العناوين التي تلفت نظرها، أو ترسم دوائر حول الأخبار الصغيرة المهمة. أجلت تدوين ملاحظاتها حول ما تقرؤه في جرائد الصباح حتى يصحو الطقس.

من سنوات طويلة لا تثير صفحات السياسة في نفسها إلاّ الامتعاض. تقرأ بنهم، وتحاول، عبثاً، ربط الأحداث والتفاصيل ببعضها بعضاً عليها تفهم الآلية التي تسير بها الأمور. تقرأ لغة فاسدة وكلمات تخون معناها. تحاول ردّ الكلمات إلى معانيها الأصلية، والحدث إلى سببه الحقيقي، تقارن ما نُشر عنه في الجرائد القومية بالمنشور في الجرائد المستقلة والمعارضة فتميد الأرض بها، من فرط التناقض.

من الشارع جاءها ضجيج عربة داس السائق مكابحها فجأة فتوقفت بصخب، أصاحت السمع لتبين هل صدمت العربة أحدهم أم لا، وحين لم تصلها ضجة تالية للأولى، عادت لجريدها. وصلت إلى صفحة الوفيات، أجالت بصرها بحثاً عن اسم تعرفه، منذ مدة باتت تُفاجأ بصور لرفاق قدامى تزيّن هذه الصفحة من آن لآخر.

ما هي إلاّ لحظات حتى رأت صورة «سمية رفعت»؛ النسخة المُسنّة من «سمية» أو الرفيقة كريمة، بكامل رزانتها، تبتسم ابتسامتها الحذرة، برفقة سطور قليلة: حرم الدكتور شاكر عبد السلام وأم المهندس أسامة



شاكر. حياة ثرية اختُزِلت في تعريف لا يليق بصاحبته، الرفيقة الأكثر راديكالية. أخذت بيد شيرويت وغيرها كثيرين وكثيرات. كانت شعلة من نشاط وحيوية، قبل اختفائها عن الأنظار إثر خروجها من اعتقال دام سنوات.

عدلت نظارتها بسبابتها اليمنى في حركة لا إرادية وهي تدقق النظر، ثم رفعت عينها نحو ساعة الحائط فوجدتها العاشرة ونصف. طوت الجريدة ونحّتها جانبًا. تحركت ببطء في الصالة وقد شعرت بخدر يسيطر على ساقها اليمنى. منذ سنة تقريبًا تحس أنها تنفصل عنها وتتمرد عليها. تخطو فتأكد أنها لم تعد تتحكم بهذه الساق العاقية، التي تخذلها وتستسلم للارتعاش المفاجئ. تؤلمها الركبة اليمنى تحديداً؛ شاخت أكثر من باقي الجسد، كأنها أم لهذا الجسد لا جزء منه.

تعرف أنها تجاوزت عتبة الشباب قبل عقود، لكن ما يؤرقها هو انعدام الانسجام بين أعضاء جسدها. أيمن أن يشيخ جزء أكثر من باقي الأجزاء؟

لطالما اعتبرت أن الزمن شيء هلامي يصعب تحديده أو قياسه. قضت عمرها كله في زمن سائل فضفاض يصعب القبض عليه. قاتلت طوال حياتها، عبثًا، من أجل تقسيمه، والإحساس بالفواصل بين مراحلها. عاشت حتى الأربعين بإحساس الصبية التي كانتها، بعدها راحت تمسك بالزمن فقط عبر آثاره على وجهها وجسدها، تجعيده هنا، بقعة داكنة هناك، كيلوجرامات زائدة شرعت تغزو جسدها بدايةً من الخمسين، قبل أن تهلّل الأمراض على استحياء. تواءمت مع كل هذا لأنها شعرت بجسدها كتلة واحدة متناغمة، لكن ما إن بدأت الساق اليمنى تنشز عن إيقاع الجسد حتى أصبح لشيخوختها قوام.

التفتت يسارًا فلمحت الجريدة المطوية. استعادت الوجه الهادئ الجاد للرفيقة سمية رفعت، فهاجمتها غصّة مفاجئة. عندما أشرقت الشمس، وصارت الحركة في الميدان أكثر حيوية، أعدت قهوة الصباح وخرجت لتشربها في الشرفة، في طريقها تذكرت خروج حفيدتها المبكر، التقطت هاتفها المحمول من فوق الطاولة وتابعت سيرها البطيء.

في الشرفة حاولت الاتصال بهدير، لكن هاتفها كان مغلقًا. ارتشفت القهوة وهي تنظر نحو الميدان. بحثت بعينها عن المتشرد أخضر العينين، فوجدته جالسًا أسفل شجرة «الأثاب»، متربّعًا على الأرض كعادته، وقد أشعل نارًا يتدفأ بها. لافتاته المكتوبة بالإنجليزية والفرنسية موضوعة خلفه بينما يحملق في النار، انتظرت أن يبدأ حركاته الشبيهة بالتمرينات السويدية كدأبه كل صباح، لكنه لم يفعل، شعرت بالأسف لأنها فوتت على نفسها عرضه منذ بدايته.

بعد برهة قام من مكانه كي يجمع الأوراق وعلب العصير الفارغة، هواء خفيف حرك ورق شجر متساقط، فألقى الرجل ما جمعه من قمامة على الأرض غاضبًا. ركل الهواء، قبل أن يعاود جلسته المتأملة في النار. حركاته على محدوديتها أضحت تسليتها اليومية.

لا تعرف من أين يجيء ولا كيف وصل إلى هذه الحال؟ خمنت أن خلفه حكاية مثيرة، لافتاته بجملها الغريبة، والأغنيات الفرنسية التي يصدح بها حين يروق مزاجه تدل على حياة مختلفة عمّا يعيشه الآن.

ترسل له الطعام بعد الظهر يوميًا مع زوجة البواب، فيقبله مرة ويعيده مرات دون سؤال عن مصدره. إن قبله يغسل يديه أولاً من زجاجة مياه يحملها معه، ثم يبدأ الأكل بأناقة مناقضة لوجهه المترب وملابسه

المهلهلة وشعره الأشعث، يمضغ بهدوء فيما يرفع رأسه لأعلى كمن يبحث عن شيء فوق أغصان «الأثابة» التي يستظل بها.

حين تنزل شيرويت بعد حلول الظلام لا يكون موجودًا، تسير بتناقل سنواتها السبعين، وهي تحمل كيسًا مليئًا ببقايا أطعمة توزعها على القطط المتجمعة أسفل السيارات المركونة. تمر المرأة السبعينية الممتلئة بالشجرة فلا تجد أي أثر يدل على أنه قضى يومه هنا، يكون المكان نظيفًا وخاليًا من أي آثار أقدام أو مخلفات. تدخل المصعد لاهثة كأنها بذلت مجهودًا ضخمًا، وتخرج منه إلى شقتها. تتجه فورًا إلى غرفتها وتمتدد فوق فراشها طلبًا لبعض الراحة.

قررت أنها لن تنزل لإطعام قطط الشارع هذا المساء. ساقها اليمنى تؤلمها أكثر من المعتاد مما يعكّر مزاجها، عليها الركون للراحة. «لكن إزاي أرتاح وأنا مش عارفة هدير راحت فين بدري كده؟». وضعت فنجان القهوة فوق طاولة البامبو، وعادت لمتابعة المتشرد أخضر العينين.

\*\*\*

اصطفق الباب بعنف رغمًا عن هدير وهي تغلقه خلفها صباحًا، نظرت في ساعة يدها فوجدتها تقارب السابعة ونصف، هبطت الدراج بهدوء مصطنع، وهي تراجع في سرها قائمة الأوراق المطلوبة. بمجرد خروجها من البوابة الحديدية للبناء صفعتها برودة لا تتناسب مع طقس أبريل الربيعي، ضمت معطفها القصير حول جسدها بقوة وهي تعبر الميدان شبه الخالي. كانت هناك أم تصطحب طفلتها إلى المدرسة القريبة، وأشخاص قليلون يسرون مسرعين إلى أعمالهم. كشك السجائر لا يزال مغلقًا. الميدان كله يتشاب تحت وطأة برد مفاجئ.

متجنبية النظر إلى مدرعة الجيش الرابضة في مقابل الكشك، أوقفت عربة أجرة لتقلها إلى ميدان طلعت حرب.

أغاني الصباح انثالت من المذياع، وفرضت على السائق صمتاً محبباً إلى نفس هدير في هذا الوقت من اليوم. راحت تفكر في احتمالات قبول طلبها للتأشيرة، وكيف ستقنع جدتها بسفرها، وهل عليها إخبارها أم لا؟ والدها لم يأخذ رأيها في مسألة سفره إلى دبي وإقامته هناك منذ سنوات، كما أن رأيها لم يكن ليفرق كثيراً مع أمها بخصوص زواجها الثاني ثم قرارها الهجرة مع حبيب القلب إلى كندا. وبالتالي، هي أيضاً من حقها أن تقرر مجريات حياتها بمفردها، خاصة أن شهوراً قليلة فقط تفصلها عن التخرج من الجامعة.

تذكرت جدتها، فشعرت بالذنب، إذ ليس من الملائم أن تغادر البلد، كالهاربة، من دون إخبارها، ثم ارتأت تأجيل التفكير في هذه النقطة إلى ما بعد حصولها على التأشيرة.

دفعت الأجرة واتجهت نحو مكتب السياحة لاستخراج وثيقة تأمين صحي دولي، وجدت المكتب مغلقاً، فقررت التسكع في شوارع وسط البلد حتى يفتح. رسوم الجرافيتي الغاضبة لونت الجدران القديمة بشغب صار سمة للبلد كله، انتابها إحساس بالارتياح وهي تقاوم حينئذ جارفاً لميدان التحرير والشوارع المحيطة. قبل أقل من شهرين ونصف الشهر، كان وطناً بديلاً لها ولملايين غيرها.

خطت في ميدان طلعت حرب باتجاه تقاطعه مع شارع 26 يوليو. الجو لا يزال بارداً والسماء غائمة وبعيدة. وصلت إلى مقهى «إكسيلسيور»، دفعت بابه الزجاجي، وجلست إلى طاولة تطل على أول شارع عدلي. طلبت ساندويتش «سلامي» وكوباً من الشاي بالحليب. تشاغلت

بالنظر إلى الخارج عبر زجاج المقهى. المكان مثير للأسى والشفقة، يقاتل للاحتفاظ بقايا مجده القديم، فيبدو كمليونير مفلس يستमित في التمسك بمستوى حياته السابق، لكن ظروفه الحالية تدفعه نحو السقوط. انطلق صوت «لويس أمسترونج»، مغنياً «What a wonderful world» فبان النشاط بين الأغنية الرائقة وبين تفاصيل المقهى التي يدل كل ما فيها على البؤس: الزهور الصناعية في مزهريات بيضاء فقيرة على الطاولات، الكراسي رديئة الذوق، نباتات الظل الذابلة، الزبائن القليلين وقد تناثروا هنا وهناك.

شاب بقميص قطني مقلم يحل الكلمات المتقاطعة بتكاسل، كهل بنظارة طبية يتجادل طويلاً مع زوجته قبل أن يقرر ماذا سيطلبان، امرأة بشعر ملموم على هيئة كعكة وبنظارة سميكة العدسات، وملابس عملية تملأ استمارات رسمية بلا كلل، زبون بملامح غير مريحة لم يكف عن الحديث في هاتفه المحمول بصوت مرتفع، وامرأة اقتربت من الأربعين تشكو لزميلتها من امرأة ثالثة تنغص عليها عيشها.

على الرصيف المقابل فرش بائع صيني بضاعته من أجهزة المحمول المقلدة، بقميصه الأزرق الخفيف غير الملائم للطقس البارد، وحذاءه الرياضي الأبيض، وانتقاله المرتبك من الوقوف إلى الجلوس القرفصاء بجوار بضاعته، بدا ناتئاً عن المشهد المجاور له غريباً عليه. كان يدخن سيجارته متملماً وهو يتفرّس بعينه الضيقتين في وجوه المارة من حوله بحثاً عن مشتريين محتملين لبضاعته الكاسدة في هذا الوقت المبكر.

تناولت هدير فطورها سريعاً، ثم نظرت في ساعتها فوجدتها تقارب التاسعة. انطلقت صوب مكتب السياحة. استخرجت وثيقة التأمين الصحي ووضعتها مع باقي الأوراق والوثائق في الملف، واتجهت إلى السفارة السويدية في شارع محمد مظهر بالزمالك.

هناك، خيّم هدوء تام، لا ضجيج، ولا مشاحنات بين المارة، لكنه لم يكن سوى مجرد سطح خادع بالنسبة لهدير، باتت تلمس عنفاً مكتوماً في كل شيء حولها: حركة المرور، اللفتات، وحتى الجمادات. ثمة استماتة في التأكيد على هدوء مزيف، لكنها - بدلاً من هذا - تنبئ عن عنف موشك على الفيضان.

أمام سفارة السويد جلس العشرات، فوق كراسٍ صُنفت متجاوزة فوق الرصيف، منتظرين الحصول على تأشيرة سفر. الجو لا يزال بارداً، والسماء متمسكة بغيومها والجميع نافدو الصبر رغم أنهم في ساعات الصباح.

انشغلت هدير بمحاولة تخيل دوافع كل منهم للسفر: هذا المهمة عمل، وذاك للهرب، وهذه أملاً في هجرة دائمة.

لَوْنُ الغثيان نظرتها للعالم بسبب سيماء الاستسلام في النظرات وعلى الوجوه، فكرت لثوانٍ في مغادرة المكان، لكنّ ولعها المهيم بفكرة السفر أجبرها على المكوث.

هربت من ملل الانتظار إلى أحلام يقظة عن عوالم جديدة ستفتح أبوابها لها، تارة تتخيل نفسها نجمة مشهورة، وتارة أخرى تحلم بأنها في السويد وقد نجحت في مد إقامتها هناك. أفاقت على صوت الموظف ينادي رقمها. في الداخل كان هناك ملصق مبهر لستوكهولم مكتوب عليه «جمال على الماء»، تزايد عزمها على السفر لمعاينة هذا الجمال بنفسها. لكنه حلم سرعان ما تحطم، فعندما عادت بعد أسبوعين لاستلام جواز سفرها وقد زينته التأشيرة، فوجئت برفض طلبها، مع أنها ظنت أن قبول السفارة لملفها يعني ضمناً الموافقة على منحها «الفيزا».

سارت من محمد مظهر حتى 26 يوليو. وصلت إلى مطلع كوبري «15»

مايو» المواجه لفندق «ماريوت»، فصعدت السلم لأعلى الكوبري، ومنه نزلت إلى كورنيش ماسبيرو حيث المعتصمين أمام مبنى التلفزيون. لم تتأمل النيل كعادتها حين تخطو بموازاته، كانت شاردة في الفراغ أمامها. استمرت في سيرها حتى وجدت نفسها عند كوبري قصر النيل، احتارت هل تتجه إلى ميدان التحرير علّها تقابل أحد معارفها هناك، أم تواصل تسكّعها. بعد برهة أعطت ظهرها للميدان، وعبرت الكوبري إلى الضفة الأخرى من النهر. تجاوزت دار الأوبرا، وكوبري الجلاء وأصبحت في شارع التحرير. هناك فقط انتبهت إلى الزحام الشديد.

قرب نهاية الشارع كانت العربات تتراص خلف بعضها بعضاً في انتظار فتح إشارة المرور. الجو خائق، وثمة إحساس، يحمله الهواء، بانفلات الأعصاب. إحساس يمكن تلمّسه من عشوائية حركة الأجساد الكسولة وهستيريا الضغط على كلاكسات السيارات.

لفت نظرها ترقب الباعة الجوّالين والمارة الذين تراحموا ناظرين لأعلى، رفعت رأسها بدورها فلمحتة واقفاً في نافذة إحدى البنايات. رجل بشعر أشيب مهوّش يحيط بصلعة لامعة في مقدمة الرأس، وجهه المكتنز مرهق، وصوته عالٍ مشروخ، يصرخ بكلمات، حولها الضجيج وبعده المسافة إلى مجرد فحيح.

تمنت لو تعرف لمن يوجه كل هذه النقمة، غير أن الصوت كان يضيع في الهواء المثقل بعوادم، و«كلاكسات» السيارات الضجرة من اختناق مروري دائم. كان الرجل كأنما يشتم شيئاً أو شخصاً ما، لكن كمّ الغضب المتسرب من ملامحه وطريقة أدائه يوحي أنه يصب لعناته على الوجود بأكمله.

نزلت عينا هدير إلى الجزء الظاهر من جسده تاركةً وجهه، فرأته

مرتديًا فانلة قطنية بحمالات رفيعة، ولا ينقصه إلا تاج ملون من الورق المقوّى وصافرة حكم كرة قدم كي يقترب من المجانين كما يظهر في الأفلام المصرية القديمة. حوّلت صرخاته، المتلاشية في الفراغ، العالم بدوره إلى جنون مواز. نسيّت هدير كل ما يخصها، وفي لعبة تخمينات راحت تتخيل سببًا لهذه الهستيريا: هل فقد أحد أبنائه على يد الأجهزة الأمنية؟ هل تعرض لظلم هائل كملايين غيره وهذه طريقته في الإعلان عنه؟ هل أضرت الأحداث المتلاحقة منذ يناير بمصالحه؟ أم أنه أحد الذين لا يحتملون العيش في ظل وضع غامض؟

تصورته كأب فقد سلطته على أبنائه ممن أخذوا أدوار البطولة تاركين له فقط التحذير المضرجر من عواقب الثورة، قبل أن يستسلم هكذا للصراخ في وجه السماء اعتراضًا على اختفاء العالم كما يألّفه. وقفت تراقبه حتى غاب في الداخل، ثم استدارت عائدة. أوقفت «تاكسيًا» أمام سينما «التحرير» وطلبت من السائق التوجه بها إلى المنيل. حين وصلت، قصدت غرفتها على الفور، وأغلقتها عليها، ارتمت في فراشها وقد خلا ذهنها من أي فكرة، ظلت تحرق في السقف ساهمة حتى نامت.

\*\*\*

طريقة واحدة، تلتها طرقتان، فصمت لبرهة!  
طريقة أخرى، تلتها طرقتان، فصمت أطول!  
وأخيرًا جاء صوت شيرويت عميقًا مبوحًا:  
- هدير! هديبير!

- .....

- يلا اصحي. إيه رأيك نفطر برا النهارده؟



أفاقت متململة على صوت جدتها. ليست معتادة على النهوض باكراً صباح الجمعة، لكنها لم تُرد أن تُغضب العجوز الواقفة بالخارج، رغبتها في الخروج حدث نادر، لذا رأت أن تشجعها عليه، رفعت رأسها عن الوسادة قليلاً ودعت عينيها، ثم قفزت من الفراش بحيوية:

-فكرة جميلة يا شيرو!

عند الساعة العاشرة كانتا تنتظران عربة أجرة في الميدان الذي بدا خالياً إلا من المتشرد المنهمك في هز أغصان الشجرة بعضا رفيعة، تاركاً لافتاته بجملها المبهمة مستندة إلى السور الحديدي القصير للحديقة الصغيرة في منتصف الميدان. تابعته شيرويت بإشفاق في حين ابتسمت هدير بسخرية قبل أن يصل التاكسي ليحملهما بعيداً.

لا تزال شيرويت تعيش في قاهرته القديمة، قاهرة الخمسينات والستينات. لا تتحرك إلا في المنيل أو وسط البلد أو الزمالك. تأخذ مواعيدها النادرة في جروبي شارع عدلي، إكسلسيور أو في «كافيه ريش» في أفضل الأحوال، وتعود مكفهرّة كأنما اكتشفت مجدداً أن القاهرة كفت عن أن تكون مدينتها.

لم تتوقع هدير أن تصطحبها جدتها إلى خارج حدود المناطق الثلاث التي تألفها، لذا فوجئت حين سمعتها تقول للسائق: مصر الجديدة لو سمحت! صحيح أن مصر الجديدة حي عريق مثل الأحياء التي تفضلها الجدة، إلا أنه بعيد عن المنيل، كما أن شيرويت، مع التقدم في السن، اختزلت حياتها إلى أقل عدد ممكن من الأماكن والأفعال، اختصرتها إلى ما هو جوهرى، مخلّفة وراءها مجبرة المرأة الهادرة التي كانتها يوماً.

وصلتا إلى «الأمفريون»، وجلستا إلى طاولة في مساحة مشمسة. حكّت شيرويت لحفيدتها، بينما تتناولان فطورهما، عن علاقتها بالمكان

منذ كانت طفلة تقيم في «هليوبوليس» مع أبيها، وتأتي بصحبتها إلى المطعم كل جمعة. قالت إن الملك فاروق كان من رواده، واعتاد أن يلعب فيه القمار مع أصدقائه المقربين.

تألقت عينها، كعادتها كلما تحدثت عن أسرة محمد علي. تحكي بحماسة فتساءل هدير: كيف لشيوعية قديمة أن تكون على هذا القدر من الانبهار بالملكية؟

تحت شمس «الأمفريون»، بدت شيرويت مسترخية وتلقائية أكثر من عادتها. ارتسمت على شفيتها ابتسامة حلوة وهي تلتهم فطورها بشهية، وتتحدث بلا انقطاع، كأنها تركت العجوز التي تقضم البسكويت بفتور، وتحتسي خلفه رشفة شاي بالحليب، هناك في الشرفة المطلة على الميدان، وجاءت هنا متخلصة من أعبائها.

-إيه رأيك نفضل هنا للغدا؟

وافقت هدير بهزة محايدة من رأسها.

-ناوية عملي إيه بعد التخرج؟ إيه أحلامك وخططك؟

تكره هدير هذا النوع من الأسئلة، تنهرب عادةً من الرد، أو تجيب بوقاحة ساخرة. حارت في كيفية الرد دونما سخرية أو ادعاء، غمغمت بكلمات مفككة قريبة مما تتصور أن جدتها تحب سماعه، وأربكها أن الأخيرة جاوبتها بابتسامة ماهرة.

انتقلتا من موضوع لآخر، ومن حكاية لأخرى. حكّت شيرويت مطوّلاً عن ماضيها: نشأتها في عائلة برجوازية، وخروجها عليها للالتحاق بصوف اليسار أثناء دراستها الجامعية رغم معارضة والدها، اعتقالها لفترة قصيرة، سفرها إلى فرنسا وحصولها على درجة الماجستير ثم الدكتوراه من هناك، زيجاتها الثلاث الفاشلة، وحياتها كما تعينها هدير الآن.

أخيراً وبعد الغداء، وبينما تتشاركان زجاجتي بيرة، سألتها شيرويت  
بلا موارد:

- ناوية تسافري السويد امتي؟!!

- عرفتِ منين؟ ردّت هدير وهي مغمورة بالخجل.

رأت نفسها لحظتها مخادعة ضئيلة، وبدا العالم أمامها بسوقية لون  
أصفر فَجَّ.

قالت جدتها ببساطة:

-أبدأ. سُفّت بالصدفة استمارة طلب الفيزا في درج مكتبك قبل  
أسبوعين.

-خلاص مش مسافرة، طلب التأشيرة اترفض. صدقيني كنت  
هأقولك، بس استنيت لَمَّا آخذ الفيزا الأول. وبصراحة خفت  
تمنعيني.

-إطلاقاً دي حياتك، ولو بابا أو ماما كانوا رفضوا كنت هاقنعمهم،  
بشرط إنك تكوني متأكدة من قرارك ومصممة عليه.

أضافت شيرويت بغموض، أنها ستعوّض هدير بالسفر إلى مدينة  
لا مثيل لها. ما إن تنتهي من امتحاناتها الجامعية، سوف تمنحها تذكرة  
ذهاب وعودة إلى مكان لن تنساه أبداً، وستحجز لها عشر ليالٍ في فندق  
رائع هناك.



## الباحث عن الليل

فلأكن يدًا حمقاء تخط بلا أمل، يدًا عمياء  
تتخبط في عتمتها.

في اللحظة التي نطقت فيها زمردة كلماتها الأولى، كان ثمة، في الطرف الآخر من العالم، رجل بجرم هائل اسمه إيليا على وشك أن يصير شخصًا آخر يُعرَف بالعملاق الأعمى. وكانت هناك مدينة تغرق أكثر في الظلال بعد أن ظلت منذ وُجدت أرضًا لشمس دائمة، لا يزورها الليل ولا يعرفه أهلها. لم يعد في المدينة من الألوان سوى الرمادي وبجواره، على استحياء، الأسود والأبيض.

عندما قالت زمردة لحكيم مملكة الجبل: «سيدي ومعلمي، لم يذهب جهديك سدى، ويومًا ما سوف تتيقن من هذا»، كان في الشوارع الرمادية للمدينة القصية بشر كثيرون يسرون ببطء ناظرين إلى نقطة ثابتة أمامهم، هدوء ثقيل يخيم على كل شيء، وإيليا بجرمه الهائل يسير متفكرًا، غير عابئ بالمتلصّصين عليه، تلصّصهم على كل دخيل. كان يحسد بمجيء عملاق ذي عباءة داكنة وسحنة متجهّمة وخطى ثقيلة، ثم ساد الهرج وبدأ الناس في العدو هاربين.

شعر أن الأرض تهتز على وقع خطوات ذي العباءة الداكنة. يعرف أنه يظهر في الشوارع على فترات متقاربة، يخطو بقوة متكئًا على عصاه

الأبنوس، تتحرك نظرتة العمياء بين الوجوه المقابلة، وحين لا يرى شيئاً يصرخ صرخة ملتاوعة ترتجف لها المدينة بأسرها. غير أن العملاق لم يظهر ولم يصرخ هذه المرة رغم اهتزاز الأرض والفوضى التي سادت تحسباً لصراخه المدوي. ثمة فقط حالة ترقب لظهوره، وزلزلة خفيفة كالتي ترافقه أينما ذهب.

لم يجرؤ أحد على إخبار إيليا السائر بشرود أنه والعملاق شخص واحد، فالعملاق ليس حدساً أو خيالاً يعيش في عقله، إنما تجليه الأكثر إظلاماً الذي يحوِّله في لحظات من رجل صموت إلى كائن يرتعد الجميع خوفاً من غضبته. تحت تأثير الهلع، تركوه مواصلاً خطوه البطيء داعين الله ألا يُخرج وجهه المظلم في هذه اللحظة، ومكتفين بمراقبته عن بعد. خطأ محافظاً على تجهّمه وبروده. عدلّ من وضع عباءته على جسده، ورفع رأسه نحو السماء كمن فوجئ بقطرات مطر في غير موعدها، ثم استكان إلى شروده.

بعد عودته من رحلة بحثه عن الليل، لم يمنعه عماه من إعادة اكتشاف المدينة، كان يجوس في شوارعها بلا توقف مرهفاً السمع لأخفت صوت.

بالنسبة له كانت مدينة العالم. منذ دخلها لأول مرة، قبل سنوات - بعد أن كان قد قضى معظم عمره في الغابة المتاخمة لها - انشغل بالكتابة والتدوين. رصد كل ما رآه، وكل ما هجس به وتخيله، على رقوق جلدية حفظها بعناية. أراد تخليد مدينته الحلم، وتحنيطها فوق الرقوق كما سمع أن المصريين القدماء حنطوا موتاهم. طمح إلى إدخال مدينته التي تبدو كأنها خارج العالم إلى قلبه الأكثر صحباً.

كتب أنها كانت تُسمّى مدينة الشمس الدائمة. لم تكن شمسها تغيب

طالما بقي أحد سكانها مستيقظاً. كانت تغرب فقط حين ينام آخر واحد منهم، وتشرق قبل استيقاظ أولهم، حُرِّموا جميعاً من الليل. لم يعرفوا بوجوده أصلاً.

في ماضيها هذا، لم يكن ثمة عملاق، ولا شوارع رمادية، ولا بشر راكضين، إنما نهار دائم، وشمس متوهجة تكاد لا تغيب. شوارع المدينة بالغة التشابه كأنها تكرارات أبدية للشارع نفسه، عماراتها تبعث على الرهبة بأقواس بارزة وأبراج مستدقة، وزخارف ونقوش متماثلة لوجوه صارخة بعيون متسعة بفعل الفرع. ميادينها مربعة، وحدائقها أشبه بغابات ممتدة على أطراف المدينة.

هي نفسها الغابات التي جاء منها منذ وقت طويل قبل أن يعرفه الناس بالعملاق ذي العينين المطفأتين. لكنّه وقتها، لم يكن أعمى، وكانت نظرتة محمّلة بالإغواء لا التجهم. اعتاد التحرك بخفة مبشراً بشيء خارق الجمال يُدعى الليل، قرأ عنه في المخطوطات الكثيرة التي تملأ كوخه المعزول في الغابة، وحكى له الصيادون في البحيرة المجاورة للكوخ عنه. قالوا إنهم رأوه في مدن أخرى وقت كانوا يجولون على سفن الصيد في البحار البعيدة.

اعتاد إيليا أن يغمض عينيه ويتكلم عن الليل كما لو كان رآه. «سواد عظيم لا تقوى آلاف المصابيح على تبيده، فقط تموّه عليه قليلاً مانحةً إياه مزيداً من الجمال». يقول وهو يمرر لسانه على شفته السفلى متذوّقاً فكرة الليل.

غادر مدينة الشمس بحثاً عن الليل. سار آلاف الأميال، مرت أيام وأسابيع ثم أعوام. سأل كل من التقاهم عنه، وصفه لهم بكلمات مبتورة ومرتبكة، ولم يحصل على جوابٍ شافٍ.

مع مرور الوقت بدأ ييأس، لكنه بمكابرة، واصل المسير. مشى مسافات لا يعلم مداها، يأكل مما يجده في طريقه، ويشرب من مياه الينابيع، حتى وجد نفسه في طريق العودة إلى مدينته.

عرفها من الأبراج المستدقة الشاهقة، والقباب الكريستالية التي تنعكس عليها أشعة الشمس فتخلق أضواءً باهرة. لم يقدر على إبعاد عينيه عن البريق المخيف المنعكس على تلك القباب، حتى بدأ يشعر بالنور ينسحب منهما. كلما توغل في المسير مقتربًا، كلما خفت البريق وضعف بصره. لم يدرك في البداية كنه ما يواجهه، ظن أن العالم من حوله تخفت إضاءته، وتتلاشى على مهل. عندما غرق في الظلام أدرك أنه وصل إلى مبتغاه. التقى الليل وجهًا لوجه. فرح لأنه سوف يصطحب ليله الخاص عائداً به إلى مدينة الشمس.

المسافة المتبقية، كانت على قصرها، الأكثر صعوبة في رحلته الطويلة. تخبّط في خطواته، دار حول أسوار المدينة أكثر من مرة، قبل أن يدخلها في النهاية ليُفاجأ به أهلها وقد أصبح هذا العملاق المتجهّم ذا الخطوات الثقيلة، وليكتشفوا أن مدينتهم مع عودته أضحت أخرى مترددة بين نهار غادر بلا رجعة وليل يأبى الوصول.

اعتكف إيليا بنظرته التي أصبحت مطفأة في كوخه بالغبابة لفترة، اعتاد الإنصات لحفيف الأشجار وزقزقة العصافير وصخب الرياح حين تهب، وعندما يمل من وحدته وصمته، يخرج إلى الشوارع بخطواته الثقيلة التي تهز الأرض تحتها. متوكئًا على عصاه الأبنوس، محتميًا بتجهمه وعماه، ومسلحًا بخبرته في الإنصات للأشياء.

عششت المدينة في عقله أكثر من ذي قبل. كان يعيش طوال الوقت بمخيلته مع شوارعها المتمائلة، وميادينها المربعة، والزخارف الدقيقة



لوجوه صارخة على واجهات مبانيها. يحلم بها كما عرفها قبل عماء، ويفيق ليجد نفسه كأنما يسير في دروبها مبصرًا. يصحو فجرًا مثقلًا بما رأى، وتتحرك أقدام عملاقة في رأسه. تعاوده رؤية نظرتة وهي تتحول من التجهم إلى الإغواء كسابق عهدها، تبدو هذه النظرة الوهمية العابرة كأنما تدعوه للعودة إلى ما كان عليه، للقبض على ماضيه وتثبيته عبر الذاكرة. على الرغم من إظلام عينيه، واصل الكتابة محاولاً - عبثاً - استعادة خطه المنمق وحروفه المرسومة بإتقان، بينما يفكر كم تغير ولم يعد يشبه ذلك الشخص الذي كانه.

بدت له المدينة كمكان مارس عليه سحرًا وثنيًا غامضًا، يدفعه إلى الكتابة بلا توقف، كتابة دونما مشاعر وبلا غرض. ظل يكتب بتفانٍ نادر عن المدينة التي حولته في البداية إلى مجرد عين تلتقط التفاصيل أمامها، ويد تدون ما يراه بلا كلل، قبل أن تسحب نور عينيه، وتتركه شخصًا عاجزًا عن رؤية ما تخطه يده، منغمسًا في كتابة كل ما رآه في السابق، وما يتخيل أنه «يراه» الآن.

حين تعوزه التفاصيل الواقعية يروح يكتب عن مدينة مخترعة واقعة بين جبال مكسوة بنباتات وأشجار زاهية الخضرة، وبحر هائج باستمرار يغلف الجو برائحة اليود، وتلفظ أمواجه طبقات كثيفة من الملح على الشاطئ كل صباح.

بيوتها مبنية بكاملها على جرف مخيف يمتد بين الجبال والبحر الهائج، كأنها في وضع سقوط أبدي. وسكانها يقاومون الجاذبية طوال الوقت، يسرون ببطء صعودًا أو هبوطًا محاذرين الوقوع من هذا العلو إلى جوف البحر الذي تتلاطم أمواجه بأصوات مجلجلة. تناسى كل شيء آخر، وانشغل فقط بتسوיד رقوق كدسها في أرجاء

كوخه. كان يكتب متجاهلاً وجع أصابعه، وألم عموده الفقري من طول الانكفاء، خالطاً بين مدينته والمدينة المحصورة بين الجبال والبحر الهائج، بين الميادين المربعة والعمارة المقبضة بالوجه الصارخة فوق مبانيها، وبين الجرف الخطر والبيوت المقاومة سقوطاً أبدياً، بين البشر الخائفين من العملاق ذي النظرة العمياء في الشوارع الشاحبة، وبين من يتخيلهم بسيرهم الحذر صعوداً وهبوطاً على حواف الجرف.

حين لا يعود قادراً على الكتابة من فرط الإنهاك، يلقي بجسده كيفما اتفق فوق أرضية الكوخ حتى يغرق في غياهب النوم، يستيقظ على أدنى جلبة تحدث في الغابة، يمد يديه مفزوعاً بحثاً عن رقوقه، يطمئن حين يلمسها، يتحسسها بنهم كأن أصابعه قادرة على القراءة بدلاً من عينيه.

يخرج من كوخه المحاط بنباتات وأشجار كثيفة متشابكة مستنداً إلى عكازه، يُفاجأ بمدينته تصطخب في رأسه. يطبق جفنيه مستسلماً لظلام مضاعف، فيفتح أمام عينيّ خياله مشهد عامر بشر كثيرين يسرون ببطء ناظرين إلى نقطة ثابتة أمامهم، و«يرى» نفسه يسير متفكراً، ويسمع وقعاً صاخباً لخطوات ثقيلة كأنما تصدر عنه.

\*\*\*

لم يملّ إيليا ليله الخاص، لكنه كان يشفق من وقت لآخر لرؤية ما حوله من تفاصيل يرغب في تدوينها، عاش وهو يخشى أن تذوي مخيلته، فلا تعود قادرة على مده بديل مناسب لما يعجز عن رؤيته. رجع للحديث مع الصيادين، الذين دلوه بدورهم على البحارة في ميناء قريب. هذه المرة لم يكن يبحث عن الليل، بل أراد استعادة بصره الذي خطفته أشعة الشمس المنعكسة على القباب الكريستالية.

هلح البحارة من مظهره القاتم وتجهمه وجرمه العملاق، غير أنه بدا

لهم مسكينًا بئسًا عندما بدأ في البوح بمشكلته، بحلمه شبه المستحيل باستعادة قدرته على الإبصار. أخبروه أنهم، في رحلاتهم القادمة، سيبحثون عن إجابة لطلبه. ودّعهم على أمل أن يعودوا بما فيه شفاؤه.

بعد ثلاث سنوات جاءه بحّار عجوز بالمعلومات المطلوبة. طرق باب كوخه لاهثًا، وقبل التحية أخبره أنه استشار حكماء المدن التي توقفت فيها سفينته، معظمهم ردّ بأن لا شيء قادر على هذا الفعل المعجز، غير أن ثلاثة أجمعوا من دون سابق معرفة بينهم على أن العلاج موجود في جبل المغناطيس.

شرح لإيليا المندهش أن ثمة أحجارًا فضية نادرة بين صخور المغناطيس، إذا حدّق فيها المبصرون تسحرهم حتى يلتصقوا بها ويفقدوا عقلهم منطلقين في ضحك لا يتوقف سوى بموتهم. أما لو حملق فيها العميان لمدة فسوف يستردون بصرهم ويتحصنون ضد سحرها الأسود. حكى له البحّار العجوز عن أثر جبل المغناطيس على السفن. عن جذبه لحديدها مما يحطمها ثم يغرقها. كاد إيليا يرتطم بقاع اليأس، إلا أن الرجل حدّثه عن سفن مصنوعة بكاملها من الخشب، لا أثر فيها للمسامير الحديدية أو لأي معدن آخر. قال: وحدها هذه السفن تتحايّل على قوة جذب الجبل.

صمت إيليا لبرهة بعد أن انتهى الرجل من كلامه، قطّب جبينه واسترجع ترحاله السابق بحثًا عن الليل، انقبض قلبه تحسبًا لصعوبات الطريق، ومع هذا اتخذ قرارًا بالمغادرة مرتاحًا إلى صحبة البحار العجوز الذي أقلّه إلى واحد من موانئ السفن الخالية من الحديد، والمارة في طريقها بالجبل المرهوب. استقل إحداها، وبعد شهور من الإبحار وصل إلى وجهته المرغوبة. كي يطمئن قلبه، أخرج إيليا من طيات ثيابه خاتمًا

حديدياً صغيراً، وضعه في كفه المفتوحة فطار نحو الجبل، لحظتها تيقن أنه على أعتاب حلمه.

اقتربت السفينة من جسم الجبل لأقصى درجة ممكنة، وساعده أحد بحارتها على النزول، ثم سحبه من يده نحو الدَرَج المنحوت في الصخر، تركه البحار شبه واثق من أن رجلاً ضريراً سوف يهلك بلا ريب في وحشة المكان المخيف، ثم قفز إلى المركب الذي انطلق مبتعداً.

كان إيليا قد جمع، من البحارة، كل الحكايات المتاحة عن جبل المغناطيس، بعضها يتناقض مع البعض الآخر، وكثير منها غير قابل للتصديق. لكن بالنسبة له لا شيء عصي على التصديق. حدثه عن الجبل والدَرَج الصاعد إلى قمته، عن آلاف المسامير والحدائد الملتصقة بهيكله الضخم، عن كهوفه المخيفة المتوارية عن الأعين، ونباتاته القاسية كأنما قُدت من صخر. ما كان يشغله، وهو يلتمس الصعود ببطء محاذراً السقوط، هو كيف سيتعرف على الحجر الفضي. لم ينشغل بالهلاك المحتمل، ولا بوحوش الجبل وجوارحه، ارتحاله السابق في مطاردة الليل دَرَبه على التصالح مع الخطر.

بدا له الدَرَج، بينما يصعده، كشعرة تفصل الجنة عن الجحيم، وصله ضجيج الأمواج صاخباً، فمال إلى الأمام حتى لمس يديه الدرجات التي كان يقف عليها منتصباً قبل قليل، اعتمد على أطرافه الأربعة في الصعود، بينما يقبض بيده اليمنى على عكازه ساحباً إياه خلفه.

بدا كحيوان قاتم اللون، يجلس لفترة طلباً للراحة قبل أن يواصل صعوده. انتهى الدَرَج إلى مساحة أرحب، مديده للتأكد من اتساع الأرضية أمامه، وزحف بعيداً عن الحافة. اطمأن لوصوله إلى القمة، أرهف السمع فأتته أصوات متداخلة بعضها خافت والآخر مرتفع. عماء الطويل شحذ

حاسة السمع لديه، صارت أذناه عيينين بديلتين. كان قادرًا على التقاط أدنى احتكاك للنسيم بأوراق الأشجار القريبة من كوخه في الغابة، تؤرقه أبسط الأصوات وتوقظه من نومه مهما بلغ عمقه. فوق جبل المغناطيس، كانت الأصوات المحيطة غير مألوفة لأذنيه. فكر أنه سيحتاج إلى بعض الوقت لترويضها والتألف معها، عليه أن يفعل هذا إذا أراد النجاح في مسعاه، لكن لا بد أولاً من التعرف عبر حواسه المتبقية على كل بوضة من مسرحة الجديد.

اعتاد السير بوجل متوكئًا على عكازه، متلمسًا الطريق. مع أن معظم البحارة أكدوا له أن الجبل شبه أجرد، ترقَّب أن تلتقط أذناه حفيف أشجار محتملة، خطا بين الشعاب حتى حمل له الهواء الحفيف المرغوب. اقتفى أثره إلى أن وجد نفسه بين أشجار يهز النسيم أوراقها.

مد يديه يتفحص الأغصان بحثًا عن ثمار. عند الشجرة السابعة قبضت كفه اليمنى على ثمرة مستديرة، بدون تردد بدأ في التهامها، لم يهتم إن كانت صالحة للأكل أم لا، كان جوعه موجهًا، كما أن المقامرة صارت الصفة الغالبة عليه منذ ارتحل مطاردًا الليل. إما أن ينجح في مسعاه أو يهلك دونه. ما كان يملك أبدًا رفاهية تعدد الخيارات.

أكل حتى الشَّبَع ثم استسلم لنوم ثقيل استمر لساعات. حين أفاق كان لا يزال شبعًا، سمع خرير ماء على مقربة فزحف نحوه. تحسَّس بيديه بدايات جدول ينساب ماؤه نحو الأسفل، غرف منه بكفيه وشرب حتى ارتوى.

قرر الاستقرار في هذه البقعة من الجبل، مطمئنًا إلى غذائه. كان يرهف السمع ليل نهار، يشرب من الجدول الجاري، ويأكل من ثمار الأشجار حتى يتخم.

صار الصوت الأكثر قرباً لقلبه هو صوت تحطم سفينة ما أثناء مرورها بجبل المغناطيس، ينصت لصراخ ركابها وعويل بحارتها ووقع ارتظام حديدتها بهيكل الجبل، ويتنظر صعود الناجين القلائل إلى قمته. سيحظى برفقة ولو من بعيد. يتوارى عنهم بين الأشجار. يصيخ السمع ويتخيل ما يفعلونه مما يترامى إليه من أصوات متباعدة. يشحذ حواسه بالكامل حين ينطلق ضحك مجنون، يدرك حينها أن ضحية جديدة وقعت في براثن مغناطيس الأجساد فضي اللون. يصبر مكرهاً للتأكد من أن الحجر الفضي قد أسر الناجين من الغرق، وحين لا يعود الفضاء يحمل سوى هذا الضحك الشرس المخيف الذي صار مألوفاً له، يتجه من فوره نحو الضاحكين بلا انقطاع رغماً عنهم، يقترب منهم وقد فقدوا كل سيطرة على أنفسهم، يلمس الحجر الممغنط لهم، يحاول جذبه نحوه بلا فائدة. يكون الحجر ملتصقاً بحيث لا يمكن فصله عن ضحيته. يتفحصه إيليا بأصابعه، وينطلق متلمساً صخور الجبل وأحجاره، علّه يستطيع التمييز عبر حاسة اللمس بين الأحجار السوداء، والأحجار الفضية الموصوفة لشفائه، غير أنه يفشل.

يحمل أحجاراً مشابهة في ملمسها للأحجار جالبة الضحك والجنون، يرفعها أمام عينيه المطفأتين فلا يحدث الأثر المرجو. بدلاً من الركون لليأس، يقنع نفسه بأنه أمسك بالحجر الخاطئ، ويواصل محاولاته كأنما يتدرب على صبر لا حدود له.

لا يعلم كم مرّ عليه من الوقت منتظراً، فقد شغفه بالتدوين، كان يتحسس الرقوق، التي حملها معه في رحلته مربوطة حول خصره، من دون أن يجد في نفسه الولع القديم بالإضافة إليها. بدأت الأشياء تخفت في ذاكرته وتبهت، يحاول استعادة ما تشير إليه كلمات مثل،

القمر، الشمس، الغابة، فتتملكه الحيرة. وحده الليل حافظ على ألقه في وجدانه، إذ لم يفارقه منذ التقاه على أبواب مدينته حين أعمته الإضاءة الباهرة المنعكسة على القباب الكريستالية.

في يوم لا يختلف عن أيام عديدة سبقته، سمع صوت تحطم سفينة أخرى، أنصت إلى العويل والصراخ المعتادين، ووقع ارتطام المعادن بالجبل. انتظر كعادته صعود الناجين من ركابها بلا أمل في أن يبذل هذا من مصيره.

لم يصل إلى قمة الجبل سوى اثنين، عرف إيليا هذا لأن أذنيه لم تميزا إلا صوتين مختلفين فقط. احتفى بملجئه بين الأشجار، أكل من ثمارها ونام، وحين استيقظ استقبله صوت الضحك المجنون تُردد جنبات الجبل صداه، فيبدو كالصادر عن جوقة كاملة.

تسحب بهدوء متوجهاً نحو مصدر الصوت، فكتشف أن الضحك نابع من شخص واحد. قبض بكفه على الحجر الفضي، وحاول زحزحته من مستقره، تحسسه كعادته، لكنه فوجئ بالضحية الجديدة، رغم التصاقها بالحجر، تطوَّح يديها بعنف مما أوقعه على الأرض. لم يقدر على النهوض سريعاً. كاد المجذوب إلى الدائرة المغناطيسية للحجر أن يقضي عليه. أخذ يدوسه بعنف مستمراً في الضحك حتى توقف قلبه عن النبض ومات واقفاً ملتصقاً بمغناطيس الأجساد.

خلَّص إيليا نفسه بصعوبة، وبحث عن عكازه. قام مستنداً إليه، واتجه صوب الأشجار المتشابكة الأغصان، وقد نسي أنه استمع بالأمس إلى صوت رجلين لا واحد. جلس يلتقط أنفاسه، ثم زحف إلى الجدول، ونهل منه حتى ارتوى. تمدد على حافته، وراح في النوم. صحا بعد قليل على حركة مريبة بين الأشجار، انتفض جالساً، وتناهى إليه وقع خطوات

مترددة تقترب منه. ثم سمع من يقول:

- لا تخف، لن أوذيك. تحطمت سفيتتنا، وصعدت مع ربانها  
للاحتماء بالجبل. سبقني إلى القمة وحين أدركته وجدت عينيه  
معلقتين بالحجر الفضي، قبل أن ينجذب كامل جسده نحوه.  
اختبأت خلف صخرة ضخمة أراقبه محاذراً التحديق في الحجر  
في آن، ثم رأيتك تقترب منه قبل أن تسقط ويدوسك بقدميه.

- من أين أتيت؟ وإلى أين تتجه؟

- جئت من مدينة بعيدة، وأبتغي الوصول إلى جبل قاف المقدود من  
زمرد!

- جبل من الزمرد؟ لم أسمع به من قبل. جيد أنك تحاشيت حجر  
الجنون وإلا لواجهت مصير زميلك نفسه.

- ماذا تفعل في هذا المكان الموحش؟

- لم أسع مثلك إلى جبل من زمرد، قطعت آلاف الأميال بحثاً عن  
الحجر الذي عليك أن تتحاشاه.

حكى إيليا للناجي حكايته كاملة، وشرح له أن عودة بصره مرهونة  
بتحديق عينيه المطفأتين في حجر الجنون، لكن المشكلة تكمن في أن  
عماه يمنعه من تمييزه عن سواه. داهمه فضول مفاجئ، فسأل الناجي أن  
يقص عليه قصته. سرحت عينا الأخير في الأفق وبدأ في الحكى:

وُلدت لأجد نفسي في رعاية جدة عجوز، لا أعرف لي أباً ولا أمًا.  
الجيران ينظرون إليّ بشفقة، والأطفال يتعاملون معي بحذر، والهمسات  
تسيّجني أينما ذهبت. كانت تصلني في صغري، كهمهمة سرعان ما  
اتضححت لتكشف عن سهام مصوّبة نحو أمي الجميلة التي ماتت وهي  
تلدني، من دون أن تخبر أحداً بهوية أبي. بعضهم قال إنها لم تكن تعرف



من هو، حين وقع بصرها عليه في سوق المدينة وأغرمت به بمجرد أن رآته. غريباً كان. وصل للتجارة، لم يمكث سوى أسابيع قليلة، وغادر مع وعد لم يتحقق بالعودة.

آخرون ذكروا أن أمي حملت بي من أحد ملوك الجن، وأنها لم تكن تخرج من البيت. كانت فقط تصعد إلى السطح لتبيت فوقه في الليالي المقمرة، وهناك رآها ملك الجن هذا وعشقها. تجسّد لها في صورة بشر فأحبهته، وأنجبتني منه، قبل أن يطير بها إلى قلعة حصينة فوق قمة جبل الدخان حيث تعيش معه هناك، وتأتي لتزورني كل شهر حين يكتمل القمر. شخصياً، لا أصدق هذه القصة، لأن أمي لم يسبق لها أن زارتني، ولطالما تساءلت: أي أم هذه التي تترك طفلها وتعيش محاطة بالجن؟ لم أفند مزاعمهم، لأنها أولاً كانت تُحكى، من وراء ظهري، وثانياً كانت تضيئي عليّ هالة من رهبة أملت أن تكف الأذى عني.

جدتي بدورها كانت لها حكايتها الخاصة، إذ أكدت أن ابنتها الوحيدة كانت متزوجة من ابن عم لها سافر للتجارة وهي حامل بي ولم يعد، وأنه حين يفعل سوف يصدّم كثيراً لموت زوجته الحبيبة، لكنه سيفرح بي، وربما يقرر البقاء معنا والكف عن الترحال.

كانت جدتي مؤمنة بحتمية رجوعه، وتعيش في حالة انتظار دائم له. ما إن يطرق أحدهم بابنا حتى يتهلل وجهها، وتقول إنه أبي، وفي ليالي أرقها، اعتدت أن أسمع ابتهالاتها من أجل أوبته. غير أنها مع التقدم في السن باتت تخلط حكايتها عن أصلي بتقوُّلات الجيران الذين دأبوا على التحرش بي، ولم يرفعوا يدهم عنيّ إلا حين كبرتُ وأصبحت أقوى أبناء حارتي وأكثرهم رعونة، ذلك الذي يتودد له الجميع انقاءً لشره. لم يفتن أحد إلى أن هذا كان غطاءً يخفي وحدتي ويُتمني.

حين بدأت أخرج للهو مع أقراني، وأقضي في الحانات والأسواق وقتاً أكثر مما أقضيه في البيت، خافت جدتي من يوم أرحل عنها فيه إلى حيث لا تعلم، فتوسلت إلى نيروز الفارسي، أمهر صائغي المدينة كي يقبلني صبيّاً في ورشته لأتعلّم منه أسرار الصنعة. سقاني نيروز ما يعرفه عن الجواهر والمعادن النفيسة: أنواعها، وكيفية تشكيلها وسبكها. كنت ألمح نظرات الإعجاب في عينيه من سرعة تعلّمي، ومهارتي في ابتكار تصميمات جديدة. حدثني ذات يوم عن جبل كامل من الزمرد بالغ النقاء. من ساعتها وأنا أحلم به، ولَمَّا آن الأوان ارتحلت علّني أبلغه، وها أنا أمامك بعد أن تحطمت سفيتتي وغرق كل من عليها ما عداي أنا وربانها. بسماع الحكاية لانت ملامح إيليا المتجهمة، أنس للناجي الذي عرض عليه أن يرشده - بشكل غير مباشر - إلى حجر الجنون. اقترح أن يختبئ خلف الصخرة، ويقرب إيليا من الأحجار ويلمسها، واحداً تلو الآخر، فيما يراقبه من وراء ساتره وهو يغطي عينيه بكفه تاركاً فسحة ضيقة يرى منها لينبه إيليا ما إن يضع يده على حجر فضي.

قاد الناجي إيليا إلى حيث لا يزال البحار الميت يقف وقد التصق بطنه بحجارة الجبل. اختبأ خلف الصخرة فيما خطا الآخر ببطء متجهّاً صوب الأحجار، حرّك كفيه عليها حتى وصله صوت الناجي يخبره أن الذي تحت يديه الآن فضي اللون.

حاول إيليا تخليص الحجر من بين الصخور المجاورة له، فلم يفلح. انحنى بجسده حتى أصبحت عيناه في مستواه، فتجهما عن آخرهما كأنما يرى المستطيل البراق في مواجهته. ظل على هذا الوضع مبالغاً في تركيزه إلى أن وقع مغشياً عليه من الإنهاك. لمحه الناجي يسقط غير أنه لم يجرؤ على الاقتراب منه خوفاً من لعنة الضحك المميت.

بعد مدة أفاق إيليا على صداع شديد، وإنهاك غير محتمل، لم يفتح عينيه على الفور، وحين فعل كان كمن يحملى في ضباب كثيف بلا قدرة على اختراقه. لم يعد كفيفاً كسابق عهده، لكنه أيضاً لم يستعد قدرته كاملة على الإبصار. بدا كمن يرقب العالم عبر غمامة. لم يستطع النهوض، ظل راقداً في مكانه لفترة مغمضاً عينيه وقد بدأتاً تؤلمانه. حين عاود فتحهما كان العالم مهتزاً، وإن بدأت ضبايته تقل. أعاد الكرة أكثر من مرة، يغمض عينيه ثم يفتحهما بالتدريج، فيفاجأ بالاهتزاز مائلاً كما هو، في حين تقل كثافة الضباب مفسحة الطريق لمزيد من وضوح الرؤية.

مع غروب الشمس، أصبح إيليا قادراً على الوقوف، سار مقاوماً إحساسه العارم باهتزاز العالم، لحق به الناجي، جلسا صامتين بجوار أجمة الأشجار. بدا إيليا منفصلاً عمّا حوله، وسرّب هذا إلى الناجي أمراً غير منطوق بمواصلة الصمت.

خلال أيام عاد له بصره كاملاً، ورجع للعالم ثباته في عينيه. أبصر رفيقه لأول مرة بوضوح، فوجئ بأنه في مقتبل العمر مع أن صوته يوحى بأنه أكبر. استكشفا معاً معظم خبايا جبل المغناطيس في جولات حرص الناجي خلالها على تحاشي النظر المباشر للأحجار الفضية، فيما التهم إيليا بعينه كل ما رآه، محاولاً استعادة الألق القديم لذاكرته، وشحذ خياله ليعود وحشياً كما كان.

لم يرغب في المغادرة، ولم يشعر بالحنين إلى مدينته أو إلى كوخه في وسط الغابة، بالأحرى خاف من العودة كي لا يفقد بصره مجدداً على مذبح الأشعة باهرة الضوء. عكف على مخطوطاته يقارن بين خطه المنمق القديم، و«الشخبطات» العشوائية التي خطها في محبس عماء.

ساعدته الرقوق الواضحة على إعادة تشييد ذاكرته، أما «الشخبطات» التي فك شفرة بعضها واستعصى عليه بعضها الآخر فحفّزت خياله على اختراع سياقات مفترضة لها. قضى شطراً لا بأس به من عمره يدوّن آلاف الكلمات، وها هو يقضي معظم وقته إما في قراءة ما سبق ودوّنه، أو في حل طلاسم الملغز منه.

استيقظ إيليا ذات صباح فلم يجد الناجي في الجوار، انتظره بلا طائل، فظن أن رفيقه المؤقت غادر بحثاً عن جبل الزمرد. كان الناجي قد صحا مبكراً وتسحّب على أطراف أصابعه كي لا يوقظ إيليا النائم بجواره، أراد استكشاف مناطق جديدة بعيداً عن أحجار الجنون المهددة، سار مسترشداً بمنحدرات الجبل، سلك شِعاباً لم يسبق له الاقتراب منها في جولاته السابقة.

كان النسيم يهدد وجهه في جو الصباح الصحو، واستنشق أنفه رائحة عطرية أنعشته للحظات، قبل أن يستحوذ عليه شعور خفيف بضيق التنفس. واصل سيره حتى وجد نفسه في منطقة مزروعة بأشجار ثمارها بيضاوية كبيرة. كان أخضر الأشجار يحجب اللون الأسود للجبل. قطف ثمرة ناضجة وبدأ في التهامها، وما إن انتهى منها حتى فوجئ بألم حاد في بطنه أخذ يتلوّى تحت ثقله.

تضاعف إحساسه بضيق التنفس كأن العالم خلا من الهواء، وأحس بغيمة داكنة تمنعه من الرؤية. كان، غير قادر على الحركة، ضائعاً في هلاوس تتخللها كائنات متوحشة تهاجمه. رأى نفسه يغرق في مياه بالغة الغور، ثم أفاق على جسده يُجرّ على أرضية مسننة تثخنه بالجراح. تدحرج فوق الصخور خارجاً من إطار العالم كما يألّفه. استعاد ذكرى غرق السفينة وصراعه مع الأمواج الهائجة للنجاة قبل أن يتعلق في لوح

خشبي، لينتهي به الأمر مرمياً على سفح جبل المغناطيس. زارته تلك الذكريات كلمحات خاطفة يصرع بعضها بعضاً.

جالت روحه في أقاليم مرعبة، توالى عليه صور من خلفهم وراءه: جدته وقد أضحت عجوزاً بائسة تطوف الشوارع بحثاً عنه، معلمه الصائغ، وقد تكالبت عليه الديون والأحزان، رفاق الصبا المستغرقين في لهوهم وقد أداروا له ظهورهم.

دفعته الصور للغوص أكثر في مأساته الراهنة. حين فتح عينيه، كان ملقى في صدع مستطيل من صدوع الجبل، جسده مُدْمَى في أكثر من موضع ومُوشَى بآثار سحل. أبصر، في الأعلى، وحشاً متحفزاً يشبه الكائنات التي ظن هجومها عليه مجرد أو هام.

رغم إدراكه أن إيليا لن يسمعه لبعده المسافة بينهما، فإنه صرخ منادياً عليه بكل ما يعتدل في نفسه من رغبة في الخلاص. حين بدأ المساء زحفه، كان الوحش المتحفز لا يزال مطلاً عليه من فوق حافة الصدع. استسلم الكون للعممة، وبقي هو يعاني من الجوع والألم والخوف. انتبه إلى كيان ضخم يحط على مقربة منه ليغطي جسده، وينشِب مخالبه في ثيابه حاملاً إياه لأعلى. متأرجحاً يغلبه الدوار ويكاد الهلع يقتله، تواءم الناجي مع مصيره. منعه الليل من رؤية أسره. من إحساسه بقبض ما يشبه المخالب على ملابسه، استنتج أنه طائر عملاق، وتذكر ما سمعه من أعاجيب عن طائر الرخ الأسطوري. ثم أصبح ذهنه فارغاً وفارقه الوعي.



## جبل الحياة

فلأهدر حروفي كمطر أحرق يهمني على  
مستنقعات بلد استوائي.

كانت هدير متوترة!

لم يسبق لها أن سافرت بطائرة، وفوق هذا، كان الشيء الآخر يثير  
رعبها.

ذلك الشيء المخفي بعناية في حقيبة السفر. ندمت بشدة لأنها لم  
تستمع لصوت العقل، وأحجمت عن أخذ قطعة الحشيش معها. فكرت  
مرات - وهي تجر حقيبتها خلفها منصتةً لصوت عجلاتها على أرضية  
المطار المصقولة - في سحبها إلى دورة المياه لتفتحها وتخرج ما بها من  
حشيش، وتلقيه في «التواليت» مغرقةً إياه بضغطة من إصبعها. تخيلت رد  
فعل جدتها الموقرة شيرويت قنديل إذا عرفت أن حفيدتها ألقى القبض  
عليها بتهمة حيازة الحشيش. سيكون مشهداً لا يُنسى بالتأكيد.

غير أن أوان الندم فات، فهدير الآن في الطائرة، مستسلمةً لحزام  
الأمان تراقب سحباً تبدو عبر النافذة كحقول ممتدة من القطن الأبيض  
المندوف. كانت قد طلبت من موظفة «البوردينج» الجلوس بجوار  
النافذة، ثم أنبت نفسها على هذا.

«مش هتبطلي هبل بقي؟»

كادت ابتسامة نزقة ترتسم على شفيتها إلا أنها قمعتها بسرعة. النظر لأسفل يدوّحها، ومع هذا لم تقدر على الامتناع عن النظر. تذكرت دوخة قديمة كانت تعمرها في الملاهي، حيث اعتادت، في طفولتها، الذهاب بين حين وآخر بصحبة أمها وأبيها، وقتها لم يكونا قد انفصلا بعد. يخرج ثلاثهم من البيت قبل غروب الشمس بقليل، تشد أمها على يدها وهي سائرة بجوارها دون أن تتكلم، فتبدو كما لو كانت تصطحبها لعقاب، لا إلى فسحة. صامتة معظم الوقت، فتصمت هدير بدورها. يركن أبوها السيارة ويلحق بهما. هناك حيث الأرجوحة الكبيرة، والعجلة الضخمة الدوارة، وحيث أسر سعيدة خرجت لتنزّه أطفالها، وصغار مرحون يتقافزون بعفرتة، كانت هدير وأبواها يبدون مختلفين لدرجة محرجة.

يتصرف والداها كأنما يعيشان في عالم يخصهما وحدهما. ثمة دوماً موضوعات ملحة تحتاج للنقاش حولها، بصوت منخفض وباستغراق تام، حتى في الملاهي. كأن حاجزاً ما يمنعهما من الاندماج مع الآخرين ويدفعهما للاتصاق ببعضهما بعضاً. وبدأت هدير تتصرف مثلهما. كانت طفلة خجولة، تلعب وحدها غالباً. يجلس والداها بعيدين عن الآباء الآخرين، يراقبونها بسمة مشجعة، فترغب ساعتها في أن تكون خفية، لكنها ترد بهزة رأس مرتبكة.

اختلفت نادية كثيراً حين انفصلت بعدها بسنوات قليلة عن كمال، لم تعد تلك المرأة الصموت العصبية، أصبحت أكثر حيوية ونشاطاً. ظلت على علاقتها الطيبة بزوجها السابق وظلا قادرين على الغرق في مناقشاتهما الودية الحميمة.

بقيت هدير معها بعد الطلاق، اتفقا على أن هذا هو الأفضل لابنتهما، كالعادة لم يسألها ماذا تريد، هي نفسها لم تكن لتعرف. حين تزوج أبوها زوجته الثانية، اعتادت أن تقضي معه يوماً كل أسبوعين، ثم أصبحت



الفترة الزمنية تتباعد، مع انشغاله بحياته الجديدة، قبل انتقاله إلى دبي، وحتى حين تزوجت طليقته لم يرغب في أخذ ابنته للعيش معه هناك. «إيه النكد ده بقى؟»، كادت هدير تنطق بهذه الجملة، حين استعادت ذكرى ابتعاد أبويها عنها، لولا أنها لمحت المضيفة تبتسم لها بينما تمر بجوارها. لم تعرف ما الذي يدفعها لاستدعاء هذه الذكريات الحزينة. قالت إن هذه الرحلة ستكون بداية مرحلة تعتمد فيها على نفسها بالكامل، شعرت بالاستقلالية، لطالما وصفتها نادبة بالعنيدة والتمردة، لكنّ أحدًا لم يخبرها، قبل شيرويت، بأنها قوية وجميلة، وما عليها إلا رؤية هذا الجمال، والتصالح مع هذه القوة وعدم التنكر لها. «صلبة كالماس، جميلة كالوردة، وناعمة كالقטיפه» هكذا تراها جدتها. تناست مؤقتًا الحشيش ومخاوفها من اكتشافه ومنّت نفسها بتجربة مثيرة في «ثاكا تيكاس». حاولت تخيلها فلم يسعفها خيالها سوى بصور نمطية مستلة من أفلام هوليوود عن المكسيك. قرأت ما وجدته عنها على شبكة الإنترنت، لكنها رفضت تصفّح صورها، كي لا تفسد عنصر المفاجأة. حين منحتها شيرويت تذكرة السفر، كانت هذه أول مرة تسمع فيها بالمدينة، اندهشت من مقدار بعدها عن القاهرة، وسوس لها شيطانها أن العجوز ترغب في التخلص منها، فأرسلتها إلى أبعد مكان ممكن. حدثتها شيرويت عن تربة حمراء، حقول صبار ممتدة، وجبل مكسو بالنباتات، وعن سفرها في الماضي لحضور مؤتمر هناك، قالت بحنين، كانت هدير لتسخر منه في لحظة أخرى «يا ما حلمت إنني أراجع للمكان ده تاني». ضحكت حين لاحظت تردد هدير: «مش مدينة الزمرد، وأنتِ مش دوروثي في مغامرة بحثها عن ساحر أوز، لكنها هتكون مدينتك ورحلتك لعشرة أيام».

\*\*\*

حين هبطت الطائرة في ثاكتيكاس بعد مرّتيّ «ترانزيت» في مطاري «شارل ديغول»، و«بينتو خواريث» وصل توتر هدير إلى أقصى درجاته، عاودها الذعر مما خبّأته في حقيبتها. تلكأت في الخروج من الطائرة. انتظرت حتى غادرها الجميع، وسارت في مؤخرة الصف الطويل في الممر الضيق الموصل إلى مبنى المطار.

تبتعت بتناقل اللافتة التي تشير إلى مكان تسلّم الحقائب. خطر بيالها ترك أمتعتها والمغادرة بسرعة، ثم نفضت الفكرة عنها. لا تثق في حدسها عادةً، لكنّ شيئاً ما أخبرها أن تتبعه هذه المرة، وحدّسها همس لها بأن لا مشكلة!

جرّت حقيبتها خلفها، وهي مستسلمة لشعور عارم بالترقب. في الخارج قابلتها أشجار كافور وماغوليا وأنواع أخرى لا تعرفها. كانت الشمس قد غربت منذ مدة تاركةً آثاراً برتقالية تلوّن الأفق، فكرّت هدير في أن مدينة تستقبل زائرها بالأشجار ولبيل وشيك الحلول، تستحق هذه الساعات والساعات من الطيران.

تفحصت المنتظرين، كأنما تبحث عن مُستقبل لها. وقفت مكانها لبرهة، حقيبتها على الأرض، وعيناها تتجولان في الفضاء المواجه للمطار. بعد قليل، اتجهت نحو «تاكسي» ينتظر في المكان المخصص لعربات الأجرة، وأعطت لسائقه ورقة بعنوان الفندق، اكتفى بهز رأسه لكنه عوّض صمته بالانطلاق بسرعة فائقة. أحسّت بالرهبة، وهي وحدها، في بلد غريب، في سيارة يقودها رجل يفهم بالكاد كلماتها بالإنجليزية. مرّاً بحقول شاسعة من الصبّار قبل أن يدخل المدينة. الشوارع كانت شبه خالية. جميع المحال مغلقة، وثمة رائحة ثقيلة بدت ملتصقة بالهواء كأنها طبقة أخرى تجعله أكثر كثافة.

وصلت أخيراً إلى فندق «إمبريال» في الوسط التاريخي لـ «ثاكا تيكاس»؛  
بناية أثرية تحولت إلى فندق مع الحفاظ على طابعها القديم. أنهت  
إجراءات تسجيل الدخول، وصعدت إلى غرفتها. كان جسمها مهدوداً  
من أثر الطيران لساعات طويلة بلا نوم، فارتمت فوق الفراش دون حتى  
تغيير ملابسها. نامت في السابعة مساءً واستيقظت بعد تسع ساعات.  
كانت المدينة لا تزال غافية فتشاغلت بمشاهدة التلفاز، ورغم عدم فهمها  
للإسبانية، تابعت بشغف قناة للأغنيات الحديثة.

في العاشرة نزلت لتناول فطورها بمطعم الفندق، ثم تجولت في  
الشوارع القريبة منه. اختارت مقهى رصيف أعجبها، وجلست تستمتع  
بالشمس، وهي تتناول «آيس كريم»، وتأمل الوجوه المارة في الشارع.  
الجالسون إلى الطاولة المجاورة كانوا يتحدثون بصخب، ومن وقت  
لآخر تفرقع ضحكاتهم فيتأفف بعض مجاورهم. ثم أبصرته يقرب.  
رجل أربعيني بشعر أسود مموج وبشرة برونزية، كانت قد لمحته يتناول  
إفطاره، بصحبة امرأة جميلة، في مطعم فندقها قبل قليل.

وصل إلى طاولتها وسبق سلامه بانحناءة مسرحية مصحوبة بجملة  
نطقها بإنجليزية متساوفة:

«Honored to meet you, your majesty!».

اتخذت على الفور سمت الملكات وحيته بهزة مترفعة من رأسها،  
شوشت عليها ابتسامة ساذجة، لا تليق حتى بأميرة مزيفة في مسرحية  
ردئية. من ملامحه خمّنت أنه إيطالي، غير أنه بادرها بعربية متقنة.

-اسمي كريم خان. واضح أنك عربية. صح؟

-صح. اسمي هدير كمال.

سحب كرسيًا وجلس في مواجهتها من دون استئذان:

-تعرفي ليه قلت لك «يور ماجيستي»؟ عشان أنتِ برج السرطان زَيِّي!  
اندهشت لمعرفته برجها، لكنها لم تظهر دهشتها للحد من اقتحاميته،  
اكتفت بابتسامة خفيفة فواصل:

-أنا من إيران، عشت في مصر خمس سنين، وقضيت في الكونغو  
ستين عرفت فيهم كثير عن الأبراج وقراءة الكف!  
طلبت منه أن يقرأ كفها، فلم يمانع. أمسك يسراها ليستطلع خبايا  
العمر والحب والحظ، ارتسم الانزعاج على قسماته وهو يحدّق في  
خطوطها، قبل أن يسحب الكف الأخرى محاولاً التأكد من أمر ما.  
عاد الارتياح ليسكن ملامحه. أخبرها متنهداً أن خط العمر في كفها  
اليسرى يبدو كأنما ينقطع قبل منتصفه، لكنه بتدقيق النظر لاحظ أن ثمة  
خيطةً واهياً يربطه بخط يكمله ويعلوه. والأمر الجيد أن هذا لا يتكرر في  
يمينها، إذ يظهر الخط قوياً، وإلا دلّ تكراره على أن حياتها ستنتهي مبكراً  
أو على الأقل ستعرض لحادث مأساوي. سألتها عمّا تعنيه هذه الانعطافة  
في كف واحدة؟ فأجاب بالفصحى، وبجدية بعيدة عن لهجته اللاهية:  
«ستصيرين أخرى»!

انتفض فجأة متعللاً بأنه تأخر على صديقتة، ووعدها بجلسة أخرى  
موسعة. تابعته يغادر في اتجاه الفندق بخطوات سريعة. فكرت في قراءته  
لكفها، وأخافها خاطر أن تصدق نبوءته. لم تفهمها تماماً، لكنها شعرت  
بانقباض مبهم.

\*\*\*

جبل الحياة!

قال كريم إن هذا لقب «سيرو دي لا بوبا» المطل على المدينة  
المكسيكية كأنما يحرسها من هجوم منتظر.

ألقت هدير نظرة خاطفة نحو الجبل، فبدا جميلاً بنباتاته الخضراء والبيوت الملونة المبنية على سفحه. نسمة الصباح المنعشة، والرائحة المنتشرة في الهواء، والضجة الخفيفة لفتح المحلات والمقاهي في شارع «هيدالجو» سرّبت بهجة غامضة إلى حواسها، وأضفت لمسة سحر على الجبل الذي يكاد اللون الأخضر يغطيه، لولا أن ألوان البيوت الموزعة بين الأحمر والزهري والأرجواني والأزرق، أصرت على منازعته في إضفاء حضورها اللوني.

ضحكت مندهشة من اللقب، سألت عن سبب التسمية، فردّ بوجود تفسيرات عديدة، أشدها غرابة هو اعتقاد قديم بأن قمته يتوقف فيها الزمن الأرضي كما نعرفه.

نظرت إلى القمة، كأنها ستمنحها سرها بمجرد النظر، وأحكمت وضع الكوفية حول رقبتها اتقاءً للبرد. شعرت فجأة بغرابة موقفها. هي هنا في مدينة تبعد عن مسقط رأسها بآلاف الأميال، تسير مع رجل تعرفه بالكاد، يكبرها بقرابة العشرين سنة، ورغم هذا تشعر بألفة تفتقدها أغلب الوقت.

ليس من الحكمة أن نفتح هكذا على غرباء، هذا ما قد تقوله نادية بنظرة مؤنبة لو كانت تشاهد ابنتها عبر شاشة ما من بيتها في كندا. غير أن شيرويت، كانت ستبادل حفيدتها نظرة متواطئة، مشجعة إياها على المغامرة. «سافري، جربي، وارجعي»، قالت لها وهي تهديها تذكرة السفر. فلما سألتها هدير: «وليه أرجع؟ أجابت: «عشان هنا مكانك».

كان لا يزال يتحدث عن الجبل، ولم يفتن لشرودها. «رائع» قالت بحماسة كي تعطيه انطباعاً بأنها تتابعه. ضحك ملتفتاً إليها: «يه الرائع في معركة قضت على مئات البشر؟

- معركة؟

- آه معركة. واضح إنك كنتِ في عالم ثاني.

ابتسمت مُحرّجة ولم ترد، فأخبرها أنه لاحظ أن الشرود سمة أساسية عندها. وأنها قادرة على أن تكون وحدها وسط الضجيج. «العزلة في قلب الصخب» كانت تلك كلماته التي عكست تفكيره فيها وخروجه بملاحظة صائبة عنها منذ لقائهما الأول.

تجولوا في المدينة حتى حلّ المساء. كانا يسيران تحت مطر خفيف حين مرّا بمطعم خافت الإضاءة تنبعث منه موسيقى شجية. دونما كلمات سحبها من يدها متجهًا نحو المطعم لتناول «مشروب سريع»، فلم تمنع. جذبتها «بورترية» نجمات السينما الإيطالية في الخمسينيات والستينيات، المعلقة على الجدران: جينا لولو بريجيدا المتباهية بانحناءات جسدها الباذخ، وصوفيا لورين بملامحها ذات الشراسة البدائية الفاتنة، وأنا مانياني وهي تحاول كبح جماح غموضها كما كانت تكبح نيران غيرتها من إنجريد برجمان.

تاهت بين نسوة من زمن آخر قبل أن تسأل:

-المطعم إيطالي؟

-تقريبًا!

صور الجميلات القديمات جلبت لها هواءً متوسطيًا محببًا. رأت بعيني خيالها شوارع صاعدة هابطة شاهدهتها في فيلم إيطالي قديم، وشرفات واسعة وبحرًا هائجًا وأيضًا في آن. تذكرت شقتهم القديمة في منطقة رشدي بالإسكندرية، حيث اعتادت في الماضي أن تقضي مع والديها شهرًا كل صيف.

-رحتِ فين؟

سألها مستعيذاً إياها إلى أجواء المكان. اقترب النادل بزجاجة نبيذ أحمر لم تنتبه إلى كريم وهو يطلبها. صبّ له النادل قليلاً من النبيذ فقرب الكأس من أنفه يشمّه قبل تذوّقه، وهو يهز رأسه في رضا، فصب الرجل المزيد، ثم استدار نحو هدير وملاً كأسها هي الأخرى. تحفّزت حدقتا كريم، وهو يحتسي السائل القاني بتلذذ، وللحظة عابرة، ارتسمت ابتسامة غامضة في عينيه. التفت إلى هدير، لاحظ اهتمامها بال«بورترهات» على حوائط المطعم، ثم واصل الغوص في عالمه النائي عنها.

كانت عيناه تلمعان، وهو يضحك على أبسط كلمة أو لفظة منها. بدالها سعيداً بصحبتها. كان يجلس أمامها باسترخاء مضطجعاً قليلاً للخلف. يتأملها تتحدث ويرد باهتمام. يده لا تكف عن الرّج الدائري الناعم لكأس النبيذ، يرتشف رشفة ويعاود الرّج من جديد.

بدأت تتوتر بسبب خجل مفاجئ ألمّ بها. تزايد حضور كريم وملاً الفضاء حولها. هدوؤه واسترخاؤه ونظراته المفعمّة بالحنو أشعرتها أنه كأنما يعانقها، لا يجلس فقط إلى الكرسي المقابل.

لا تعرف الكثير عن لغة الجسد، وإلاّ لكانت فهمت أن كريم خان كان يرغب فيها بشدة في تلك اللحظة. ساقاه المنفرجتان تقولان هذا بوضوح، وكذلك تحريكه لكأس النبيذ بهذا الشكل الدائري، واحتضان يديه لاستدارة الكأس.

لكن جهلها بلغة الجسد لم يمنعها من ملاحظة أن الجنس يسيل من عينيه وتصرفاته كلها. أربكها هذا لاكتشافها بداخلها رغبة مماثلة فيه، ردتها لتأثير النبيذ، ودفء كريم المباغت في التعامل معها.

مد يده فجأة، ومسّ خصلة من شعرها. ثبتها خلف أذنها، وبحركة

عفوية لمس وجتها بسبابته، ثم عاد لتجرّع كأسه. أبعدت وجهها عنه بانزعاج ظاهري. شحنتها لمستته بإثارة منعشة. فكرت في سؤاله عن صديقه ثم قررت أن الوقت غير ملائم.

كأنما قرأ أفكارها، قال بصوت حازم، بعيد عن مزاجه السابق:

-بوسي أكيد قلقت بسبب غيابي، لازم نمشي.

-أوكي. أنا كمان محتاجة أرتاح.

ردت بألية. دَفَعَ الحساب، وأمسك بيدها إلى الخارج. كان الجو باردًا، فخلع سترته الصوفية ووضعها على كتفيها. أدخلت ذراعيها في الكمّين، وضمت السترة على جسدها النحيل. ظلت صامتة حتى وصلا إلى الفندق. في بهو الاستقبال ودّعها بقبلتين محايدتين على وجنتيها، وطلب منها الاحتفاظ بالسترة حتى الصباح كي لا تصاب بالبرد.

في غرفتها، علقت الجاكت بعناية في الدولاب، وألقت بنفسها فوق الفراش، واستغرقت في نوم عميق. صباحًا، استعادت كل تفاصيل لقائهما بالأمس: نظراته، لمستته لوجهها، سترته وهي تحتضن جسدها، رغم الصداع والإرهاق، فضلت تناول فطورها في مطعم الفندق على أمل رؤيته. لم يظهر حتى انتهت من تناول الطعام. ظلت جالسة، تشرب قهوتها وهي تتصفح كتيبًا سياحيًا عن المدينة. أخيرًا، دخل مطعم الفندق بصحبة بوسي. كان يضمها بذراعه اليمنى، ويضحك بينما يقول لها جملة أضحكتها هي الأخرى.

لمح هدير تجلس إلى طاولتها، فهزّ رأسه محيياً إياها. اختار طاولة بعيدة، في آخر صالة الطعام، وجلس معطيًا ظهره لها، ومواصلاً مناغاته الحميمة مع رفيقه. انتهت هدير من قهوتها وغادرت.

أرسلت إليه الجاكت مع عاملة خدمة الغرف، مع قرار بتفادي مقابله.



آخر ما تبحث عنه توريط نفسها في مشاعر من طرف واحد مع شخص يكبرها، لديه صديقة، وفوق هذا لا تكاد تعرف عنه شيئاً. تعلم رأي أمها مقدماً في هذا، أما ما يمكن أن تراه شيرويت في موقف مماثل، فلا علم لها به.

قالت لها: «جربي، وغامري، واكتشفي الحياة بنفسك». غير أن هذا لا يتضمن بالضرورة الوقوع في هوى «دون جوان» غامض.

خرجت للتسكع. بدأت من شارع «هيدالجو»، حيث يقع فندقها مواجهاً للكاتدرائية التي تعد أهم معالم «ثاكايتيكاس»، دارت حولها أكثر من مرة، تأملت الزخارف والمنمنمات على واجهتها منبهرة بالباروك المكسيكي المبهرج والمبهج بفطريته.

من خلف الكاتدرائية واصلت سيرها في شارع «تاكوبا». مرت بساحة «خينارو كوردينا» والسوق الذي يحمل الاسم نفسه، عبرت بائعي مكعبات الفواكه المقطعة في كؤوس زجاجية وبلاستيكية: مانجو، خوخ، كوكتيل. اشتتت كأساً من المانجو الباردة. وقفت أمام البائعة وطلبتة بإسبانية ركيكة. كانت البائعة بدينة بحاجبين كثيفين، ويدين خشنتين مشققتين وترتدي على رأسها قبعة «سومبريرو». قطعت المانجو بسرعة ووضعتها في الكأس. وقبل أن تتبته هدير رشّت فوقها مسحوقاً أبيض تلتته برشة من مسحوق أحمر وقطرات من عصير الليمون.

التقطت هدير الكأس والشوكة وغادرت وهي تُمني نفسها بالتهم المانجو الشهوي في الساحة القريبة، لكنها حين جلست هناك وبدأت في الأكل اكتشفت أن المسحوقين المرشوشين ما هما إلا ملحاً وشطة حوَّلاً، بمساعدة عصير الليمون، مكعبات المانجو إلى مذاق غريب أصابها بالغثيان.

جرّبت البحث بالشوكة في أسفل الكأس عن قطع مانجو لم يصلها المزيج، لكن كل القطع كانت مشبعة بالمسحوق الحارّ. رمت الكأس بكاملها في صندوق القمامة المجاور، وعادت لجلستها وهي تلعن البائعة، وكريم وصباحها السخيف هذا.

عادت إلى الفندق بعد ساعتين. من غرفتها هاتفت كريم فلم يرد. اتصلت بموظف الاستقبال لتسأل عنه فأخبرها أنه في نزهة بالجبل. خلعت ملابسها ببطء أمام المرأة الطويلة، تركتها ملقاة فوق أرضية الغرفة، ودخلت لتغتسل، ثم لقت جسدها في منشفة كبيرة وتمددت في الفراش تشاهد التلفاز.

في الخامسة تقريباً استسلمت لنوم لم تنفك منه إلا منتصف الليل على إحساس مؤلم بالوحدة. مرّت رفيقة كريم ببالها فرددت اسمها بسخرية. «بوسي! بوسي! اسم مناسب لقطّة. بوسي كات!».

قضت هدير يومها التالي أيضاً في التعرف على معالم المدينة. كررت جولاتها السابقة، مرّت بالشوارع والميادين نفسها أملهً أن يمدها التكرار بزوايا جديدة للرؤية. وبالفعل مع كل جولة كانت تكتشف ملمحاً كان متوارياً عنها، انتبهت لطرافة أسماء المحال والأماكن التي تقابلها: الكناري السعيد، صالة الفردوس، ومنجم عدن. فهتمت لماذا يصف الأهالي مدينتهم بأنها بـ«وجه وردي وقلب من فضة»: المباني الأثرية مطلية كلها بلون وردي هادئ، ومناجم الفضة ظلت مصدر الدخل على مدى قرون.

في المساء، هاتفها كريم يدعوها إلى العشاء في مطعم بالجبل. أردف كأنما يقرأ أفكارها: بوسي فضّلت تروح حفلة مع ناس تعرفنا عليهم النهارده، ويمكن تلحقنا لو انتهت الحفلة بدري.

«أوكي» ردت بلا حماس. وجدته ينتظرها في ردهة الفندق، كان متأنقاً أكثر من المعتاد، وفي عينيه لمعة سعادة لم تخطئها.

المطعم كأنه محفور في الجبل. كهف لا يدل مدخله المتقشف على أنيقة الداخل. الطاولات والمقاعد منحوتة من الصخور، والمصابيح الموضوعة في كوى على مسافات متساوية بالحائط، لوّنت المكان بإضاءة حمراء دافئة، وأضفت عليه لمسة عتيقة.

لم تغامر بطلب أطباق لا تعرفها بعد «مقلب» المانجو بالشطة والليمون، واكتفت بسلطة خضراء وقطعة «ستيك»، في حين طلب هو طبقاً تقليدياً.

تناولت طعامها مستمتعة. فاجأها رقي المطعم وفرادته. طلب كريم ويسكي، واكتفت هي بصودا. بعد الكأس الثالثة بدا مرتاحاً أكثر. أصرّ عليها أن تشاركه الشراب، فوافقت مترددة. بدأ يتحدث عن الأحجار الكريمة. قال إنه خبير بها. سألته إن كان هذا مجال عمله، فردّ بأنها مجرد هواية. تفحص حُليها الفضية: قرطين على شكل هلالين، وخاتمًا يعلوه مستطيل حُطّت عليه كلمات بخط كوفي لم يتبين ما هي، وقلادة تنتهي بهلال أكبر من هلالتي القرطين. خلت حُليها من أي أحجار باستثناء السوار المطعم بفصوص فيروز بيضاوية.

كانت عيناها مكحولتين بكحل كثيف، فيما تركت شعرها مموجاً على طبيعته ليكمل مع «مكياجها» الخفيف بألوانه النحاسية مظهرها كابنة للطبيعة.

تأملها كريم وفي باله أن ملامحها فرعونية بدرجة ملفتة، وأنها لا تفهم، إلا أقل القليل، في المجوهرات والأحجار الكريمة، ورغم انطباعه الأخير هذا سألها عن الحجر المفضل لديها.

فكرت قبل أن تجيب:

- بحب الفيروز.

ثم هزت رأسها يميناً ويساراً نافيةً جملتها السابقة:

- لآ، ممكن تقول إني بحب الزمرد أكثر!

- ذوقك حلو، بس اشمعني الزمرد؟

- لسبب غريب. ماما كان عندها خاتم بفص زمرد وأنا صغيرة، وكنت

بحبه كتير.

\*\*\*

وحيدة ومعزولة عن العالم جلست هدير في الصباح التالي في حديقة «إنريكي سترادا». الشمس مشرقة والجو معتدل مع «لطشة» برد منعشة وهي ملتصقة بمقعد حجري، والصداع يكاد يقتلها. ليتها لم تدخن سيجارة الحشيش التي لفتها قبل خروجها، ووضعتها في جيب حقيبة يدها، أو بالأحرى، ليتها لم تجامل كريم بمشاركته في شرب الويسكي. جاهدت لاستعادة ما حدث بعد عشاء أمس، تتذكر تفصيلاً حوارها معه على الطعام، لكن ما تلا هذا ملفوف بغمامة.

الخروج المفاجئ من المطعم، التلال المزروعة بنباتات لا تعرفها، أشجار الذهب والفضة، مرتفعات الزمرد، والبشر المتحركون بهمة وحبور والمرحبون بكريم بحرارة كأنما يعرفونه من قبل. كان ثمة عجوز بجسد طيفي، رتل تعاويذه وهو يمسّد شعر هدير وجبهتها: «باسم الأميرة الغائبة. باسم الملك ياقوت. باسم السر المكنون في حجر الزمرد السحري. باسم جبل قاف والجبال الأربعة تتوسطها البحيرة المسحورة، باسم جزيرة الأبنوس ومدينة النحاس، باسم الحروف الحافظة لتناغم الوجود وتوازنه. ابعث أميرتنا من رماد احتراقها».

أبخرة بروائح عطرية مميزة تكاثفت في الجو وموهت زمرد التلال  
البراق بالأبيض الخفيف، وبدأت هدير تغيب عن الوعي، تتعد رويدًا  
عن حياتها وذكرياتها القديمة، عن العالم كما تعرفه، وتقرب من هلام  
غامض لجماع ذكريات لا تخصها. رأت: قصرًا باذخًا من الزمرد المزين  
بالياقوت والماس، صالاته كل منها مصنوع من حجر كريم مختلف  
ويوانه من الذهب. أبصرت: أميرة طاغية الحسن تركض في ممرات  
حديقة على هيئة متاهة، وطيور رخ محلقة، وعفرات سابحة في السماء،  
ومسافرًا تقبض على ثيابه مخالب طائر عملاق، ومدينة من النحاس،  
وممالك البحار الغامضة.

حاولت المقاومة لإبطال أثر سحر يمارسه مرتل التعاويذ عليها، فلم  
تفلح، لم تعرف أصلًا كيف فهمت الكلمات المنطوقة بلغة تجهلها.  
جاهدت للنظر نحو كريم خان. كان متهلل الوجه مشيرًا نحوها براحتة  
اليسرى، أن تهدأ وتستسلم لحركة اليد فوق رأسها. بقيت هذه التفاصيل  
في ذاكرتها، لكنها لا تدري هل حدثت فعلاً أم أنها هلاوس سُكر  
وحشيش.

غادرت الحديقة وفي نيتها أن تسأل كريم عمًا جرى بالأمس؟ كيف  
صعدا إلى هذا المكان الغريب حيث مرتفعات الزمرد والقصر الباذخ من  
الأحجار الكريمة؟ وهل فعلاً حقًا؟

السؤال الأخير جعلها تتردد، ماذا سيظن بها إذا كان ما «رأته» مجرد  
أوهام؟ قررت أن ما يهمها هو معرفة الحقيقة.

هانفته من استقبال الفندق، أخبرته أنها تريده لأمر مهم. كان صوتها  
حاسمًا وكلماتها مقتضبة. نزل بسرعة، اصطحبها إلى مقهى مجاور.  
تكلمت كأنها واثقة من كنه ما اختبرته وسألته أن يفسره لها. صمت لبرهة

ثم أخبرها أن المسألة شرحها يطول. طلب منها أن تبحث عني: «لَمَّا  
ترجعي القاهرة، دوّري على بستان البحر، دي صديقة عزيزة جدًا».  
-مين بستان البحر؟ وإيه علاقتها بسؤالي؟  
-هتفهمي في الوقت المناسب، مش هقدر أنا أشرح لك.  
-طيب، عاوزه عنوانها أو رقم تليفونها.  
-الاسم هيدلك على صاحبتة.  
لمح نظرة غيظ تحتل عينيها، فأضاف:  
-ما تسألهاش عن أي حاجة بشكل مباشر، لو عملتِ ده هتتهرب  
منك. قولي لها إنك من طرفي وسيبي الأمور تتطور على مهلها!  
صدقيني مش هتندمي.

## بلوقيا يطاء قاف

أكتب لأحكم الخناق حول ذاتي. بالكلمات  
أقيم جدراناً تحمي عزلتي وترعاها.

وجدوه ملقى على قارعة طريق مهجور!  
أو على نحو أدق، عثر عليه راع كان يتجول سابحاً في ملكوت ذكرياته  
البعيدة مستعيداً تفاصيل تأبى أن تفارق ذهنه، دافعةً إياه للاستغراق فيها  
بدلاً من عيش لحظته الحاضرة.  
كان الناجي ممزق الثياب مُدْمَى الوجه، على يديه وعلى جلده آثار  
سحل لا تخطئها العين.

ظنّه الراعي جثة هامدة بسبب سكون جسده. اقترب منه بحذر، قلبّ  
الجسد المستسلم لغيوبته. جسّ نبضه فاكتشف أنه لا يزال متشبثاً بقايا  
حياة لم تغادره بعد. رفعه بصعوبة، وحمله على دابته متجهاً به إلى كوخه  
البسيط. هناك، أرقده، ومسّ شفاهه بقطرات ماء بارد، قبل أن يمسح  
وجهه ورقبته.

فكّر أن ضيفه الغائب عن الوعي سيحتاج لا بد إلى شيء يأكله حين  
يفيق، فخرج الراعي للصيد ولجمع بعض الثمار والأعشاب كي يوفر له  
ما يسد رمقه.  
في المساء فتح الناجي عينيه.

كان مذهولاً، يحملق في ما حوله، لم يرفع رأسه، أو يحاول النهوض، بدا قانعاً برقدته متوائماً معها. اكتفى فقط بالتجول بعينه بين في الكوخ. حين أبصر الراعي يراقبه، لم تتغير نظرتة ولم تكتس بتعبيرات امتنان لمضيفه القلق، لأنه لم يفهم أين هو، ولا ما علاقة هذا الجالس قبالتة بإنقاذه. اقترب منه الراعي بابتسامة مرحة، مسح على رأسه، وساعده على الجلوس ممدداً ساقيه أمامه. أحضر له قدحاً من الأعشاب المغلية وتابعه وهو يشربه بنهم. اختفى للحظات، وعاد ببضع ثمرات بيضاوية في وعاء خشبي، اختار أكبرها وقدمها له، لكن الأخير نظر إليها بفرع وتحسس بطنه. احتار الراعي، ولم يعرف كيف يقنعه بأكلها.

-كُلها! كُلها!

قال برجاء، فردّ الناجي بهزة رأس رافضة. استراح الراعي لأن الرجل فهم كلماته. نظر له باستعطاف مشفق، ثم خطر له أن يأكل هو من الثمرة كي يطمئن ضيفه أنها غير ضارة. قضم قزمة صغيرة ومضغها بشهية وهو ينظر في عيني الجالس أمامه الذي سرعان ما خطف الثمرة والتهمها، ثم استلقى على ظهره، وبعد دقائق أخذه النوم بعيداً.

لم يخطر في بال الناجي أنه في جبل الزمرد، ولج أرض النعاس وهو يظن نفسه في كوخ قريب من جبل المغناطيس. خمّن أن طائر الرخ - لا بد - قد ألقاه بعد وقت قليل من التقاطه له.

صحا ليجد الراعي جالساً إلى جواره ناظراً إليه بفضول.

«أيها الغريب، احكِ لي حكايتك، منها نأخذ عبرة، ومنها نسري عن أنفسنا!»

أحسّ الناجي بنوع من المودة والثقة تجاه مضيفه. وفكر أنه ربّما إن حكى له حكايته قد يساعده.



بدأ حكايته وفي ذهنه البوح بما سبق وأخفاه عن إيليا، برغبته المُحرقة  
في لمس ما لا يلمَس، والإمساك بما لا يمكن الإمساك به، وقلقه الموجه  
بلا سبب جلي:

منذ صباي كان ثمة هاجس يلح عليّ أن أرحل وأتية!  
هاجس لئيم كسوسة تنخر في رأسي وتنغص عليّ تواصلني مع الناس  
حولي ومع الواقع المحيط بي، في البداية تجاهلت وساوس شيطاني  
الخفي، انغمست في اللهو مع أقراني والتسكع في الأسواق بعد الانتهاء  
من عملي في ورشة الصائغ نيروز الفارسي، حصّنت نفسي بملاحقة  
الظلال الهاربة لشموس لا يراها ولا يشعر بها سواي، إلى أن حلّ السكون  
- ذات ظهيرة - على العالم. كنت في وسط سوق حافل بأصوات صاحبة  
مقاطعة: مساومات، مشاحنات، هتافات لتسويق بضائع كاسدة. ثم ران  
صمت تام بدون سابق إنذار.

شعرتُ لحظتها بأني وحيد في عالم أخرس، لم أعد أرى من كانوا  
يجاورونني أو أحس بهم، لم يبق أي وشيش أو أذن صوت، خطرت لي  
أن الحياة انتهت، والزمن توقف، لكنّ مشهدًا، بدأ في التشكل أمامي  
مبددًا هذا الموات. اختفى السوق بروّاده ونبع من العدم جبل من الزمرد  
المتلألئ بفعل انعكاس أشعة الشمس عليه، استحوذ عليّ منظر الجبل  
الباذخ، وقفتُ حائرًا غير واثق إن كان حقيقيًا أم محض أوهام، تابعت  
دخانًا أبيض وهو يغطي قاعدة الجبل الزمرد صاعدًا لأعلى حتى ابتلعه،  
ولم يبق في مواجهتي سوى فضاء أبيض أشبه بضباب كثيف سرعان ما  
انقشع كاشفًا لي عن مشهد جديد لحديقة غنّاء؛ زهور ونباتات مألوفة لي  
وأخرى لم أتخيل وجودها على الأرض، طرقات الحديد كانت متشعبة  
على هيئة متاهة نباتية. جداول ماء عذب ونوافير أضفى خريف مائها على

المشهد حيوية مضاعفة، وطيور ملونة يتناغم تغريدها ليعزف لحناً ملهماً. من بين خميلة أشجار جانبية خرجت أميرة بعينين خضراوين لامعتين وأنف دقيق وشعر أشقر طويل يتطاير خلفها، سارت في ممرات الحديقة وهي تتغنى بكلمات مبهمة، ثم تلاشى المشهد بأمرته التي ملكت قلبي، وعاد وسواسي للسيطرة عليّ من جديد، واختزل وسوساتي الماضية في خاطر مهيمون: هناك مكاني!

في تلك اللحظة قررت عدم مقاومة وكعي، المقموع، بالرحيل أكثر من هذا، أحصيت مدّخراتي فوجدتها أقل من أن تساعدني على تحقيق حلمي، أعطيتها لجدتي وحسنت أمري أن أسافر خلصة، كنت موقناً أنني لن أحتمل لوعتها إذا عرفت بما عزمْتُ عليه، الأفضل أن تُفاجأ باختفائي. خلال يومي الأخير في ورشة نيروز الفارسي كنت مطيعاً على غير عاداتي، نفّذت تعليماته بلا إبطاء أو مجادلة، رحت أتحين فرصة يسهوَ فيها كي أسرق منه خاتماً بفصّ من الزمرد الذبابي صاغه بتفانٍ لابنة شهيندر تجار مدينتنا، ولم يسلمه لها بعد.

عملنا حتى غابت الشمس، وحين تعب أقنعتُه بالذهاب إلى بيته، على أن أمرّ عليه لإعطائه المفتاح بعد أن أغلق الورشة، وعندما قال لي إنه يمكنني الاحتفاظ بالمفتاح حتى الصباح، تحجّجت بأني ربما أتأخر في صباح الغد إذ أنوي أن أسهر الليلة في العمل.

كنت مرتبكاً، وأحسّ بتأنيب ضمير. وعندما خيم الظلام، أطفأت النار، والتقطتُ الخاتم، ودسسته بحرص بين ملابسي، قبل أن أغلق المحل وأتجه إلى بيت نيروز الفارسي لأعطيه المفتاح محاولاً مداراة ارتباكي.

لم أرغب في المبيت مع جدتي، ذهبت مباشرة إلى الميناء حيث يلتقي

النهر بالبحر، تكوّمت كيفما اتفق في ركن منزوٍ انتظاراً لانبلاج الفجر. كان الظلام دامساً، فحرصت على عدم إصدار أدنى جلبة قد تلفت النظر إليّ، كانت القطط المتخمة من أكل بقايا سمك يتركها الصيادون تمر من فوق جسدي المكوم فلا أهشها بعيداً، وكائنات تشبه الفئران تحوم حولي من دون أن أراها، فقط أشعر بحركتها إذ تلمس أطرافي، فلا أتحرك رغم اشمئزاي.

مع أول خيوط الضوء انطلقتُ بحثاً عن سفينة يقبل ربّانها بحملي معه إلى أبعد مكان ممكن مقابل الخاتم المسروق. كنت أعرف أن لا أحد سيرفض لي طلباً مقابل ذلك الخاتم الثمين. لم أختبر لنفسي وجهة محددة كوني أعرف أقل القليل عن البلدان والممالك البعيدة.

قلت لربان أكبر سفن الميناء إنني أرغب في السفر إلى حيث لم يذهب أحد قبلي، إلى آخر الدنيا حيث كل شيء مختلف عمّا عرفته وتعلمته، ضحك الربان من حماستي، سألني عن الأجرة فأعطيته الخاتم، انبهر به، وتفحص جوهرة عميقة الخضرة بفضول، فأخبرته أنه أغلى بما لا يقارن من الأجرة المطلوبة، وأنني أتوقع أن يمنحني بضائع أو عملات ذهبية مقابل الفارق، قلت هذا خوفاً من أن يظن أنني أجهل قيمة الخاتم، فيتهمني بسرقة.

رحب بي الربان على متن سفينته الموشكة على الإبحار. أسرّ لي بأن اندفاعي راقه، إذ لمس فيه شيئاً من خصال الرّحالة الأصلاء وميلهم للمقامرة. لم ألتفت إلى الخلف، كانت عينايتي متشبثتين بالأمام، كأنني أستعجل وجهتي التالية وأستبق الوصول إليها. حتى عندما غابت مدينتي في الضباب، وباتت على وشك التلاشي في سديم لا نهائي، لم أحنُ عليها بنظرة وداع أخيرة.

بعد أسابيع من الإبحار سألتُ الربان إن كان سمع بجبل من الزمرد،  
وإن كان يعرف السبيل إليه؟

-تقصد جبل قاف؟ لم يسبق لأحد أن بلغه. يُقال إن الأمر يتطلب  
سنوات وسنوات.

.....-

-إنني حتى أشكُّ في وجوده. كل ما يُشاع عنه أقاويل منقولة عن من  
لم يروه.

-يجب أن يكون موجودًا، وإلا من أين نبعث هذه الأقاويل؟  
-لم أسمع عن بحار وصل إليه. يُحكى أن الطيور وحدها يمكنها  
ذلك.

لم أخبره بأن قاف وجهتي المرغوبة، فقط همست:  
-جبل كامل من الزمرد! ما أجمل هذا وأغربه!

تركني الربان لأحلامي، وانغمس في النقاش مع طاقم سفينته. انشغل  
عني في الأيام التالية. فرحت أتعرّف إلى المسافرين الآخرين؛ خليط  
عجيب من بشر لا يجمع بينهم سوى تسليم كل منهم أمره للبحر وأمواجه،  
حين كان أحدهم يسألني عن غايتي من السفر، أقول التجارة، خفت أن  
أكشف لهم دافعي الحقيقي لأنه عصيٌّ على التصديق، بل ساورني الندم  
لسؤالي الربان عن جبل قاف، غير أن ندمي سرعان ما غادرني ليحل محله  
شعور جارف بالرهبة، منبعه ضباب بدأ يخيم على البحر بكامله لدرجة  
لم أعد معها قادرًا على رؤية كفي. عماء مطلق سيطر علينا. كنت محاطًا  
بعويل ولطم ركاب انهار بعضهم، مع تكاثف الضباب لأيام متصلة،  
وألقي بعضهم بنفسه في البحر. كان البحارة يصرخون والربان يحاول -  
عبثًا - شد أزهرهم. فكرت أن أقفز في الماء بدوري لكنني جئنت بسبب

هدير الموج المتلاطم. توصلت إلى الربان باكياً أن تتوقف في عرض البحر حتى ينقشع الضباب. صرخ فيّ الرجل بأن أملنا الوحيد هو الإبحار بعيداً عن هذه البقعة الضبابية.

كنا كالعميان في سفينة ضريرة يقودها طاقم فقد عقله، وفوق هذا اشتدت الرياح فجأة وطوّحت المركب على نحو مرعب. بعد مدة اتضح الرؤية، فبان جبل عملاق بالغ السواد، يسد الأفق. صرخ البحارة بهلع: «جبل المغناطيس!» وحاولوا نزولاً على أوامر قائدهم الانحراف بسفينتهم كي يتعدوا عن الطّود المخيف بدلاً من الاصطدام به، غير أن طاقة هائلة غير مفهومة كانت تجذبنا نحوه. المحاولات اليائسة للابتعاد تبددت في الهواء. تفككت أوصال السفينة بلا سابق إنذار. تحطمت على صخرة جبل المغناطيس الذي جذب إليه مساميرها وحديدتها وتركها ألواحاً خشبية متناثرة في لجة بحر غاضب.

صارعتُ الأمواج متشبثاً بلوح عريض، ثم غبت عن الوعي وأفقت لأجدي مرمياً فوق إحدى صخور السفح، وإلى جوارى الربان لا يزال مغشياً عليه، وما إن انتبه وأدرك حقيقة ما حدث حتى راح يندب حظه ويتنف لحيته حزناً.

بدا كشخص آخر، سكنه الدهول، وكسرتة الصدمة، شرع يهذي بكلمات غير مترابطة عن هيكل المغناطيس العملاق، والأساطير المنسوجة حوله، من بين هذيانه فهمت أن للجبل درجاً صاعداً إلى قمته، سحبته من يده وخطونا فوق الصخور الملاصقة للبحر بحذر إلى أن عثرنا على الدَرَج. أثناء تسلقنا قص عليّ ما سمعته عن وجود أحجار فضية تسبب جنوناً يفضي إلى الموت. ولسخرية القدر وقع هو في فخها ونجوت أنا منها.

واصل الناجي سرد حكايته من لحظة صعوده مع الربان حتى إنقاذ طائر الرخ له من مصير بائس في قاع الصدع. وأنصت الراعي بكل حواسه، مندهشاً من غرابة ما سمع.

التفت الناجي حوله وسأل: أين أنا الآن؟

فأجاب الراعي: في مملكة الجبال والأحجار الكريمة.

لم يعن اسم المملكة شيئاً للضيف المتعب، اعتبرها مكاناً يشبه أي محطة أخرى في رحلة ضياعه. تعمّد الراعي ألا يخبره أنه وصل إلى قاف، خشية أن يغادر كوخه من فوره لاستكشاف المكان الحلم الذي خاطر بحياته لبلوغه. تمنى الرجل الذي يعيش وحيداً أن يؤنسه هذا القادم من بعيد لأطول فترة ممكنة.

تذكر أن ضيفه لم يذكر اسمه مع أنه أفشى الكثير من أسراره، فسأله عن اسمه.

فوجئ الناجي بنفسه يجيب:

-أنا هو، بلوقيا التائه في سديم الزمن، الباحث عن المستحيل!

أطرق الراعي، ثم أعان بلوقيا على النهوض، وسنده حتى وصلا إلى خارج الكوخ حيث أجلسه وراح يجمع حطباً كوّمه أمامه، تشاغل بإشعال النار، ثم تقليبها، والتحديق فيها متحاشياً الجالس في مواجهته، لم يكن ثمة نباح لكلاب هائجة، أو عواء لذئاب بعيدة كما اعتاد بلوقيا أن يسمع في ليل مدينته الأم، فقط هسيس خافت لهوام وحشرات مضيئة تحلّق على مقربة من النار. كان القمر بدرًا، وخُيّل له أنه يختلف عن القمر كما يألفه في بلاده. بدا القمر تلك الليلة مكتملاً ومتألّقاً على نحو مدهش. استغرق في تأمله فرآه دائرة من الفضة اللامعة تخالطها مسحة وردية خفيفة. لاحظ ارتباكاً سكن عيني الراعي منذ أخبره باسمه، لا يدري أي

شيطان دفعه للنطق بالاسم بالطريقة التي نطقه بها، كما لا يدري سبب شرود مضيئه منذ سمع به.

بعد صمت ثقيل تساءل الراعي بطريقة من لا ينتظر جواباً:

- بلوقيا التائه في سديم الزمن؟

تأمل الشاب الجالس في مواجهته قبل أن يسأله:

- أتعلم من هو سميك؟

أجاب بلوقيا بالنفي، فبدأ الراعي الحكيم وهو يقرب كفيه من النار: بلغني أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل في مصر كان له ابن يدعى بلوقيا، ولمّا مات الملك تولى ابنه الحكم، وفتح خزائن أبيه فوجد باباً خفياً يقود إلى خلوة صغيرة، عثر فيها على كتاب عرف منه صفة محمد نبي الإسلام، فتعلق بحبه، وقرر أن يسبح في البلاد على أمل مستحيل بلقائه. في جزيرة قابل حيّات جهنم، وفي أخرى التقى «ملكة الحيات»، وبوصوله إلى بيت المقدس تعرف إلى عفان - قارئ التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم - الساعي لبلوغ تابوت الملك سليمان القابع في مكان أبعد من البحور السبعة، طمعاً في الحصول على «خاتم سليمان» الذي يتيح لمن يضعه في إصبعه التحكم في كل الكائنات. أخبر عفان بلوقيا بغايته وسمع منه حكايته، ثم قال له إن زمن نبي الإسلام هو آخر الزمان، والسييل الوحيد لبلوغه أن يصطحبه بلوقيا إلى ملكة الحيات ثم يأخذانها معهما كي تدلهما على العشب الذي إذا عُصر ودُهنت به القدمان يتمكن صاحبهما من السير فوق الماء. وهكذا يستطيعان عبور البحار مشياً حتى الوصول لتابوت سليمان، وبلوغ بحر الظلمات حيث «ماء الحياة» سر الخلود الذي سيمكّن بلوقيا من البقاء حتى يلتقي نبي الإسلام. «ساعدني في الوصول لملكة الحيات، أساعدك في الاجتماع بنبي آخر الزمان!». قال عفان لبلوقيا.

وصلا لملكة الحيّات، وحبساها في صندوق حملاه معهما حتى دلتهما على العشب وعصراه في زجاجتين، ولمّا عرفت غرضهما، بعد أن أعادها إلى الجزيرة التي أخذها منها، أخبرتهما أن نيل خاتم سليمان مستحيل، لأن مُلك سليمان لا ينبغي أن ينتقل لأحد بعده، وأنه كان من الأجدى لهما أخذ عشب الخلود. ندما ندماً شديداً وواصلًا طريقهما، عبرا من بحر لآخر حتى وصلا إلى تابوت النبي سليمان المحفوظ في مغارة بجبل، وحين حاول عفان الاقتراب لخلع الخاتم، أحرقته حيّة تحرس التابوت، فصار كومة من تراب، فيما نجا بلوقيا، واستمر هائماً في بلاد الله من جزيرة تشبه الجنة، إلى أرض لم يصلها إنسي قبله. التقى ملوكاً وملائكة، طيوراً ووحوشاً، وفي نهاية ترحاله قابل نبي الله الخضر الذي أعاده إلى مصر في غمضة عين.

انبهر بلوقيا بحكاية الراعي، سرح بخياله مع ذلك الهائم على وجهه راغباً في بلوغ آخر الزمان. لم ينتبه إلى أن الراعي لم يخبره بأي معلومة عن نفسه، أو عن أسباب عيشه في هذا المكان المهجور. لم يسأل عن السبب لأنه لم يتصور أن مضيفه كانت له حياة أخرى مختلفة، أو كان له خيار بخصوص مكان عيشه.

تمدّد الراعي على ظهره بجوار النار، متأملاً نجم «الشعري اليمانية»، والبدر الفضي، ثم أطبق جفنيه على حلم قديم. تناسى الجالس بجواره وحفيف أوراق الأشجار، وغرق في ذكرياته حين كان يعيش في بيت فخم على مقربة من قصر الزمرد ببساتينه الغنّاء. رافقه وجه زوجته «مروج» المُزَيّن بابتسامة ذكية أوجعته، ففتح عينيه وعاد لتأمل السماء.

\*\*\*

استمر القمر بدرًا لأسبوعين متتاليين، تصاعدت أبخرة ساخنة من



بحيرات الفضة السائلة الموزعة بين أرجاء المدينة، توقفت الطيور في حدائق قصر الزمرد عن التغريد، غمر الخوف الأهالي وقد بدأوا يسمعون أصواتًا غريبة تنطق بجمل لا يفقهون كنهها، ذبلت الورود وتساقطت عن أغصانها، ووقعت زمردة في براثن الصمت من جديد رغم توصلات أبيها إليها كي تعاود الكلام.

كانت تنظر إليه كالتائهة، بدت عيناها كما لو كانتا قد انسحبتا من الواقع، وغرقتا في عالم قصي.

اجتمع ياقوت بحكماء الجبل ونسأكه، علّ أحدهم يملك تفسيرًا للتغيرات الطارئة. أنصت مهتاجًا نافذ الصبر لنقاشات بدت له سفسطة. انتظر كلمات كبير الحكماء، معلم ابنته ومُخرِجها قبل سنوات من سجن الخرس، غير أن الرجل تريث حتى فرغ زملاؤه من جدلهم، ثم نطق بجملته واحدة مفادها أن ما يحدث معناه تعكّر صفو الجبل بقدم غريب وطأ أرضهم المقدسة في غفلة منهم.

استبعد الملك هذا الاحتمال لأن من شبه المستحيل بلوغ قاف من دون مساعدة العنقاء، كما أن زوجته الغائبة نورسين عاشت لسنوات فوق قاف وهي غريبة عنه، ومع هذا وعلى سبيل الاحتياط، أمر الحراس بتمشيط المملكة بحثًا عن أي دخيل. قسّم الحراس أنفسهم إلى مجموعات، وقرروا البدء بالأحياء المحيطة بالقصر، على أن يتعدوا عنها رويدًا حتى يصلوا إلى الأطراف وأكثر الأماكن عزلة.

في الأحياء الغنية، لم يجدوا صعوبة في التعرف إلى معظم قاطنيها، فحتى الأشخاص غير المعروفين للجنود، كان من السهل عليهم إثبات معرفتهم بأحد كبار المملكة.

أما في الأطراف فكانت الأسئلة عن تاريخ المملكة وخبايها وأحداثها

البارزة خلال السنوات المنصرمة، وسيلة التأكد من الهوية والانتماء. بعد أيام، بدأ الملل يتسرب إلى نفوس كثير من الحراس ممن شعروا بأنهم يطاردون اللا شيء. باستثناء الملكة نورسين التي أحضرها ملكهم على متن العنقاء، لم يسمع أي منهم باستقبال أرضهم الزمردية لغريب، غير أنهم كانوا يعاودون التفتيش بهمة كلما طالعهم القمر بدرًا دائمًا، أو أبصروا الورود الذابلة ملقاة في الأرجاء، أو تذكروا خرس أميرتهم المحبوبة وتوقف الطيور عن التغريد. أنبأهم حدسهم أن كارثة غامضة وشيكة الحلول لو لم يتحركوا سريعًا لوأدها في المهدي.

كان كوخ الراعي على أطراف المملكة آخر مكان بحثوا فيه. عندما وصل إليه فريق منهم خيّل لهم أنه يقع خارج الوجود، واندهشوا كيف يختار أحد سكان الجبل هذه البقعة المنعزلة المطلة مباشرة على الهاوية، للعيش فيها منقطعًا عن الجميع مع توافر أماكن كثيرة صالحة للسكنى وسط العمران.

تأملوا الحرش القريب بحشائشه الغزيرة، والأشجار المثمرة، والأعشاب ذات الروائح العطرية الفوّاحة، وتوقفوا لبرهة أمام الجرف الخطر على بعد خطوات من الكوخ المتقشف المبني من عروق الخشب الجافة، والمعرّش بالغاب المغطى بأغصان غزيرة الأوراق كأنما قُطعت بالأمس فقط.

اقتحموا الكوخ ليجدوا بلوقيا ممددًا فوق الفراش المبسوط على الأرض. كان وحده، إذ غادر الراعي قبل مدة لرعي قطيعه من الماعز البري. ارتابوا فيه بسبب ملابسه المقطّعة في أكثر من موضع، وآثار خفيفة لكدمات على وجهه. نظراته المندهشة كانت لا تكاد تستقر على شيء بدت لهم كأنما تحمل غربة الدنيا بأسرها.

-من أنت؟ ومن أين أتيت؟

سألوه بخشونة.

-أنا بلوقيا، جئت من الطرف الآخر للعالم.

جرّوه إلى الخارج بعنف غير متنبّهين أن للكوخ مالكا عليهم أخذه هو الآخر لاستجوابه، وبلوقيا الغارق في خوفه وارتبائه خشي أن يطلب منهم انتظار الراعي.

\*\*\*

بالقبض على بلوقيا عاد القمر لدورته المعتادة، وواصلت الطيور تغريدها، وتوقفت الورود عن السقوط ذابلة عن أغصانها، لكن الأميرة لم تعد للكلام. استمرت في صمتها وتحديقها نصف الواعي، كأنما تنظر إلى الواقع من حولها من دون أن تراه.

اعتادت في تلك الفترة السير بلا انقطاع. كانت تخطو، طوال الوقت، في أروقة وطرقات القصر وحدائقه الممتدة، ترهف السمع إلى ما لا يدركه سواها، وتواصل تجوالاً لا نهائياً دءوباً، ثم امتد تسكّعها إلى خارج حدود القصر، صار الناس يصادفونها تخطو كالمسرنمة في الشوارع والأزقة، لا تلتفت خلفها ولا تتطلع نحو أحد أو شيء. تسير حتى يهدّها التعب، فتتكوّم على نفسها في أحد الأركان، حينها يظهر الحارسان، المكلفان بمتابعتها خلسة، ويحملانها إلى القصر. خلال مشاورها المرهقة، يتحاشى الآخرون اعتراض طريقها، أو حتى المرور بجوارها: يغلق التجار أبواب دكاكينهم مختبئين داخلها إلى أن تمر، ويقف الباعة الجوالون كأنهم طوبة في جدار إذا فاجأتهم في طريقها إلى لا مكان.



## الطريق إلى بستان البحر

الأسود هو الجوهر المعرّف لوجودي، هو أنا  
وقد استحلّت لونا!

احتاجت هدير - بعد عودتها من المكسيك - ثلاثة أيام، قضت معظمها في النوم، لتأقلم ساعتها البيولوجية على فارق التوقيت. هناك كان الجو مائلاً للبرودة، أما في مدينتها فرطوبة وحرّ الصيف أضفيا بصمتهما على مشهد صاحب أصلاً. فالقاهرة بحرّ هائجٍ تتلاطم أمواجه كل لحظة بملايين البشر، مدينة الفرص الضائعة والأحلام الموءودة هي مدن عدة في واحدة، مرور مزدحم، إيقاع فوضوي، وجنون لا ينتهي. بعد الراحة في البيت لأسبوع، مرّت بميدان التحرير في الحادية عشرة صباحاً، فشعرت كأنها في ثكنة عسكرية: عساكر الأمن المركزي كانوا متمرسين خلف دروعهم بتحفّز، ومدركات الجيش وقفت قرب مداخل الميدان، الضباط ينظمون المرور بأداء مبالغ فيه، ويرفعون أصواتهم بخشونة متحمسة. الجميع يتصرف كالمنتصر في حرب شرسة. نظر سائق التاكسي حوله حانقاً: «واضح إن العساكر همّ اللهي هيعتصموا في الميدان».

أفاقت على واقع كانت قد نسيتها في ثاكايتيكاس. فهتمت من الرجل أن الجيش أخلى الميدان بالقوة أمس. على واجهة مجمّع التحرير بدا جرافيتي «ياللي أنت حبك حرية» غريباً وخارجاً عن السياق.

خطر ببالها ما عايشته في مطعم الجبل، تمتّ لو أن حياتها تمضي هكذا؛ لو أنها تسبح في فضاء من تلال زمردية، وسحب بيضاء، وعوالم عجائبية. شملتها سكينه انتشلتها من محيطها. قررت، لحظتها، البحث عني. كانت تعرف أنه في زحام القاهرة وفوضاها يشبه هذا البحث عن نقطة ماء في محيط. قالت لنفسها، إنها لن تخسر شيئاً، سيكون الأمر تسلية جديدة تهجرها حين تمل منها.

فكرت بوسط البلد كنقطة انطلاق لتصوّرها أن امرأة باسم موح كاسمي لن تسكن إلا هنالك، في شارع عدلي أو شريف، أو طلعت حرب، وفي بناية عتيقة بسقف مرتفع، وزخارف وتمائيل صغيرة على الواجهات، ومصعد من الحديد المشغول. بناية شُيِّدت في عهد الخديوي إسماعيل أو بدايات القرن العشرين مما يتيح للسيدة المبجّلة، التي هي أنا، تصدّيع رؤوس زائريها القلائل بالشكوى، على عادة شيرويت، من الخراب الذي أحاق بكل شيء بعد سقوط الملكية، وبتعداد أفضال الخديوي، الذي تولّاه في حب الإمبراطورة أوجيني، على مصر الحديثه.

بالنسبة لهدير، لا بد لامرأة تُدعى «بستان البحر» من أن تكون قاربت الثمانين، وتحفظ عن ظهر قلب حكايات كثيرة عن تاريخ المدينة: عمارتها، شوارعها، وسكانها البارزين. تخيلت الشابة النزقة شقتي كمكان شحيح الإضاءة، يعج بمقتنيات ثمينة تراكم عليها غبار يبدو للزائر كأنما يتراكم على جسدي وملامحي أيضاً.

أضحت هدير لا تكاد تغادر وسط البلد. تسير في شوارعها بالساعات يومياً. في رحلة تفتيشها عني، صارت تتطلع بحرص إلى اللافتات فوق واجهات البنايات المختلفة، تقرأ أسماء الشوارع باهتمام، لكن شيئاً لم يقدها إليّ.

في شقة جدتها، جلست على الأرض متربعة، وأضاعت ساعات وهي تبحث عني على الإنترنت، وجدت أكثر من بستان، لكن لا وجود لـ«بستان البحر» تحديداً. هناك بستان سليم، بستان المصري، وبستان الحلبي. لم تعرف قبلاً بوجود كل هذه «البساتين» في المدينة الإسمتية. وسّعت من نطاق بحثها ليشمل «جاردن سيتي»، والمنيل، والزمالك. سألت عدداً كبيراً من أصحاب المحلات والمقاهي، مخترعة حكايات متنوعة. مرة تسأل عن الطيبة بستان البحر الموجودة عيادتها في هذا الشارع، وأخرى تسأل عن المحامية بستان البحر، وثالثة عن بستان البحر قريبتها من بعيد التي قيل لها إنها تسكن هنا.

«مفيس بساتين بحر. كريم خان معتوه وأنا مجنونة إني بأضيع وقتي». قالت في نهاية شهر من البحث الدءوب. فكرت في شغل نفسها بتعلم لغة أجنبية جديدة، كما نصحتها شيرويت، كي تجد وظيفة ملائمة بعد أن تخرجت في الجامعة، بدلاً من أن تصبح رقماً مضافاً إلى ملايين العاطلين عن العمل. انتوت التوجه في أقرب فرصة إلى معهد «ثرانستس» للسؤال عن موعد بدء دورات اللغة الإسبانية. ومكافأة لنفسها على عدم تردها في اتخاذ قرار مصيري كهذا، اشترت فستاناً جديداً وبقاقة قرنفل.

في المساء وصلتها رسالة إلكترونية من كريم، يخبرها فيها أن ترور مشتل «بستان البحر» في شارع أبو الفدا، إن كانت مهتمة بالوصول لي، طلب منها ألاّ تسأل عني هناك، عليها فقط تفحص تفاصيل المكان. استغربت رسالته لأنه أخبرها في السابق أن الاسم الغريب سوف يدلها على صاحبه، ورفض مدّها بعنوان أو رقم تليفون. استنتجت أن له مصلحة في أن تعثر عليّ، وخاف أن تكون أهملت الأمر، فحاول معاونتها.

توجّهت في اليوم التالي للزمالك وقطعت شارع «أبو الفدا» من أوله

لآخره، فلم تجد المشتل. دخلت مقهى «سيلانترو» للراحة قليلاً في جو مكيف. طلبت «كافيه لاتييه» بنكهة الفانيليا، وجلست تفكر في كريم ورحلة الجبل. «هل توجد بساتين في البحر؟ المسألة كلها نكتة سمجة ما كان عليّ التورط في تصديقها». لامت نفسها على سذاجة مفرطة دفعت كريم خان للسخرية منها على هذا النحو. حاولت تقليل اهتمامها بالأمر، لكن فضولها كان جارفاً.

وضع النادل المشروب أمامها، وابتسم متلطفًا. سألته عن المشتل وهي لا تتوقع نتيجة، لكنه وصف لها مكانه. قال إنه الأفضل في القاهرة. انتهت من مشروبها بسرعة، وخرجت. على بعد عشرات الأمتار وجدته. كان لا يكاد يُرى إلا لمن يعرفون بوجوده مسبقًا. لافتة صغيرة، وباب ضيق يقود إلى سلالم هابطة نحو الشتلات المزروعة في حوض النيل مباشرة.

لاحظت أن الممرات بين النباتات مصممة في أشكال هندسية. كان هناك عامل واحد في قرابة الستين من عمره. بدا هادئًا، غير مكترث إن كانت ترغب في الشراء أم مجرد الفرجة. تشاغل عنها بتنقية التربة حول نبتة زهرتها متوهجة البياض.

أجالت بصرها في المكان فلمحت لافتة مكتوبًا عليها اسم المشتل بخط جميل، وأسفله رقم هاتف أرضي. اندهشت من وجود لافتة كبيرة هكذا بالداخل، في حين أن اللافتة الخارجية صغيرة ولا تلفت النظر. تأملتها مرة أخرى فاتبتهت إلى أن رقم الهاتف ليس من أرقام منطقة الزمالك. سألت العامل العجوز:

-عندكم فروع ثانية؟

فهز رأسه بالنفي من غير أن ينظر إليها.



دوّنت الرقم في دفترها الوردي الصغير، وخرجت بهدوء.  
في غرفتها جلست تتأمل الرقم حائرة. هل تتصل للسؤال عني أم لا؟  
ماذا لو لم يكن لي وجود؟ ثم الأهم: ماذا لو كنت حقيقية؟ أي حكاية  
غامضة ستورط فيها ما إن تفتح هذا الباب؟  
تربعت فوق فراشها، وحاسوبها المحمول مفتوح أمامها. من الصلاة  
أتاها صوت نينا سيمون تغني:

«I put a spell on you» فخمنت أن شيرويت تشرب قهوتها صامتة في  
رحاب صوت تعشقه.

تخيلت هدير أن الدفتر يتراقص أمامها للفت انتباهها. تحول إلى  
سرداب قد يقودها إلى عالم مخالف لما حولها من ضجيج.  
«اتصلي بالرقم. ماذا سيضريك إن فعلت؟ سيقول لك المجيب: هذا  
رقم مشتت لا منزل سيدة، وسينتهي الأمر بدلاً من أن تعيشي بوهم أنك  
أدرت ظهرك لسر خطير». هكذا ألح عليها وسواسها الداخلي.

جرّبت الانشغال بتصفح الإنترنت. انتقلت من «الفيسبوك» إلى  
«تويتر» بلا حماس، ثم فجأة مدّت يدها نحو الهاتف الموضوع فوق  
«الكومود» المجاور. رفعت السماعة وطلبت الرقم. بصوت متردد  
سألت عني. قالت إنها تحمل لي رسالة من كريم خان ويجب أن تقابلني.  
صمت الطرف الآخر ما إن أنهت جملتها. ثوانٍ مرت كأنها دقائق طويلة  
قبل أن تسمع تساؤلاً مندهشاً:

-رسالة من مين؟

اعتبرت هذا علامة على أنها على الطريق الصحيح، فخرج صوتها  
واثقاً:

-من كرييسيسيم خااااان!

-طيب. سجلي العنوان ده وتعالى بكره 01 الصبح.

دَوَّنتُ العنوان بسرعة. كان في وسط البلد كما توقعت في البداية. بناية عتيقة في شارع عدلي على مقربة من المعبد اليهودي. ضايقها أنها مرت أمامها عشرات المرات في رحلة بحثها السابقة عني، لكن كيف كان لها أن تعرف أن هدفها على بُعد خطوات منها؟

أغلقت الحاسوب ونحّته جانبًا، تمددت في الفراش، أغمضت عينيها فقفز كريم إلى ذهنها، أين هو الآن؟ وماذا يفعل؟  
اندهشت لإحساس بالغيرة تسلل إليها عندما تذكرت رفيقته، تساءلت هل ما زال معًا؟

«يا خبر بفلوس بكره يبقى ببلاش!» شدّت الغطاء فوق جسدها لتنام. حلمت أنها تزرع نبتة صغيرة. كانت تحفر الأرض بصعوبة بيديها، انكسرت أظافرها، ثم وجدت بجوارها كوبًا من الماء، سكبته في موضع الحفر فطاوعها التراب، واحتضن نبتتها. انتابها فرح شديد وهي ترقب براعم زاهية اللون تنمو بسرعة. تبدّل المشهد المحيط ليستحيل فضاءً صافيًا، ثم خيم ليل زَيْنه بدر فضي تشوبه مسحة من وردي خفيف. وتسبح حوله تلال زمرد تشبه ما رآته فوق «سيرودي لا بوفًا».

في العاشرة دَقَّت جرس الشقة الموصوفة لها. لم يفتح أحد فكبست زر الجرس مجددًا. أحسّت بحركة مرتبكة في الداخل. انتظرت هادئة تنصت لوقع الخطوات المقتربة، انتبهت لمظروف أبيض صغير دفعه أحدهم من عُقب الباب، التقطته لتجد بداخله ورقة مكتوبًا عليها عنوان آخر في الزمالك.

وضعتها في حقيبة يدها وظلت لبعض الوقت واقفةً على أمل أن يخرج لها أحد، ولمّا لم يحدث غادرت متجهة إلى العنوان الجديد، حيث شقتي القريبة من مشتل «بستان البحر».

عندما وصلت، كنت في انتظارها. كان الباب مواربًا. طرقته طرقة خفيفة، ودخلت لتُفاجأ بي أجلس في عمق الصالة أضع ساقًا فوق الأخرى وعلى شفتي ابتسامة هادئة. بينما تقترب مني، تعلقت نظرتها بعينيّ المكحولتين بكحل كثيف.

- أهلاً وسهلاً.

قلت، وأشرت لها أن تجلس في مواجهتي.

امتثلت، وسألت بتوجس:

- مدام بستان؟

- أيوة.. أنا!

خمنتُ أنني في نهاية الأربعينيات. إحساس بالرهبة تسلل إلى قلبها، وهي في حضرتي، ترجمته نظرة تهيب لم تُفتني. تفحصتها بفضول مقصود، بينما أقمع ابتسامة ساخرة كادت تظلل وجهي.

بدورها تأملتني بتمعن. السواد العميق المنسحب على شعري ومقلتي وردائي القصير في تناقضه، مع البياض الحليبي لبشرتي و«الفوتيه» الذي أجلس إليه، جعلني أشبه بمشهد في فيلم بالأبيض والأسود. انتبهت هدير إلى أن الصالة بكامل أثاثها وديكوراتها تقتصر على هذين اللونين. جالت بعينها فأبصرت باقة زهور بيضاء في مزهرية سوداء فوق طاولة صغيرة تجاور البيانو الفخم. كان أخضر الأوراق هو الاستثناء الوحيد لثنائية الأسود والأبيض.

قمت بنشاط، أوليتها ظهري، واتجهت نحو الشرفة المفتوحة. استندت بيديّ على الدرايزين رافعةً كتفي كأنما أستعد للقفز. وقفتُ أتأمل النيل والبنيات على الضفة الأخرى منه، السماء صافية، وثمة سرب طيور بيضاء يُحلّق في الأفق، فيما المدينة تواصل مهنتها المفضلة: اختراع الضجيج.

شعرت هدير أني أشبه كريم خان في غموضه. تبعطني. وقفت خلفي،  
وقالت:

-لطيف المنظر من «بلكونتك».

ابتعدت قليلاً وتأملت المشتل وقد بدا من أعلى كمتاهة صغيرة  
بأشكاله الهندسية المتداخلة. كان البستاني منكمثاً على تنقية التربة حول  
النباتات، كأنما بقي ثابتاً على الوضعية التي تركته عليها هدير بالأمس.

استدرت إليها أخيراً، ونطقت بجملته واحدة:

-بالظبط زي ما وصفك كريم. مبادرة وواثقة من نفسك.

-يا ترى أنا مضيعة وقتي في التدوير عليكِ عشان تجودي عليّ بكلمة

كل خمسين سنة؟

-ودمك خفيف كمان؟

صممت هدير وقد شعرت بسخافة المسألة برمتها. انجلى السحر  
المحيط بانطباعها الأول عني، وحل محلّه ضجر. رأت في صورة أخرى  
من أمها، ومن كل الناضجين الممتلكين لـ«الحقيقة» بحسب رؤيتهم  
لأنفسهم.

حدقتُ فيها بصمت فتوترت. شيء ما في عينيّ أورثها شعوراً بالغرق.

بدت لها عيناى الواسعتان كما لو كانتا تبصران ما خلف الأشياء، وما في  
الضمائر، وأربكها هذا.

مع تكرار زياراتها لي، ومع جلساتنا الممتدة في الشرفة المُطلّة على  
النيل والمشتل الغافي في حضنه، تجرأت، وسألتني عن سبب عدم وجود  
ألوان أخرى في الشقة وديكوراتها، وعن الدافع وراء تمسكي بارتداء  
الملابس السوداء.

سرحتُ لوهلة قبل أن أقول:

-مش شايفة إن كده أشيك؟

-شيك، بس غريب إن مفيش أي ألوان تانية!

-ممکن تقولي إنها مسألة تعود!

قلتُ باقتضاب، ثم التقتُّ سيجارة رقيقة من العلبة الفضية فوق طاولة الرخام المستديرة أمامي. أشعلتها وسحبتُ نفسًا عميقًا منها، ثم نفثتُ الدخان إلى الناحية الأخرى، وعدتُ لأنظر نحو هدير:

«ولدتُ في إيران في بداية الستينات، وغادرتها في الثامنة عشر من عمري، عشت لفترة طويلة في أمريكا وأحمل جنسيتها. لم تعد تربطني بمسقط رأسي إلاّ ذكريات وحنين متقطع لشيراز وأصفهان وجبل «الموت». في سن السابعة تقريباً فقدتُ البصر. قبلها مباشرة كنت أردي فستاناً أخضر، وكانت جدران حجرتي مطلية باللون نفسه. في محبس عمالي كان هو كل ما تستحضره ذاكرتي من ألوان. تلاشت الألوان الأخرى ولم يبق إلاّ أخضر فستاني وجدران غرفتي. للهرب من أسود الظلام الذي حاصرني لسنوات خمس، كنت أستحضر اللون الوحيد الذي استحوذ على ذاكرتي. عشت حياة موزعة بين الأسود والأخضر. وحين استعدتُ بصري بعد عمليات جراحية عدة، كان تعدد الألوان مفاجأتي المتجددة. اصطحبتني أبي في رحلة إلى شيراز لزيارة ضريح سعدي الشيرازي. أوقفني أمام شجرة الحياة المرسومة فوق واجهته، والفسيفساء الملونة بداخله. سرت وسط السعدية وتأملت أزهارها وأشجارها. على مقربة من الينابيع، رقدت على ظهري فوق العشب بينما أحرق في سماء تعد بالكثير».

التزمتُ الصمت فجأة، واختبأت خلف ابتسامة، لم تفلح في محو مسحة الحزن الساكنة في نظرتي، ثم تشاغلتن بنفض رماد سيجارتي في

المنفضة. لم تفهم هدير ما علاقة هذه الإجابة بسؤالها، وهو ما أردته. ودت لو تلقي تعليقاً ساخرًا، لكنّ الأسى المخيم عليّ منعها، فوجئت بنفسها تمد يدها لترت على كفي.

اقتدتها إلى غرفة مكتبي، حيث تكاد الكتب المرتبة فوق الأرفف تغطي الجدران الأربعة. عناوين بلغات مختلفة، مصنفة وفقًا لموضوعها، ومنوعة بين مخطوطات قديمة، ومجلدات، ورفوف لم تر هدير ما يماثلها سوى في الأفلام التاريخية. ركن كبير من الكتب كان عن الجبال، وآخر لا يقل عنه عن الحوادث الشعبية، لكنّ الغلبة كانت لـ «ألف ليلة وليلة»: طبعتها المختلفة، ترجماتها للغات عديدة، ومؤلفات تناولها بالشرح والتحليل.

أحسّت بدوار وعيناها تتجولان بين العناوين المختلفة. على الرغم من عدم ولعها بالقراءة، أدركت أن مقتنيات مكتبي ثمينة بلا ريب. تمتلك جدتها مكتبة عامرة بكتب تتناول حقولاً معرفية شتى، لكن هنا، الأمر مختلف. الكتب القديمة صفراء الأوراق، ورائحة العتق المنبعثة منها، وحنو لمساتي على الصفحات شبه المصفرة، كل هذا أسرّها بأنها في مواجهة تُحفّ ثمينة.

كانت الأجواء في المكتب مغايرة عنها في باقي أرجاء الشقة الفخمة، فبمجرد ولوج مخزن الكتب هذا ينتقل المرء في عمق الزمن، إلى عصر الوراقين القدامى. تحسست هدير المجلدات بحذر فيما تابعتها بفخر من يملك كنزًا يعرف قدره جيدًا.

جلستُ إلى المكتب، وأشرتُ لها بالجلوس إلى الكرسي المقابل. تخللتُ خصلات شعري بأصابعي، ثم أشعلتُ سيجارة جديدة. أسندت رأسي إلى ظهر الكرسي مغمضة عيني لثوانٍ وأنا أنفث الدخان لأعلى. اعتدلتُ في جلستي وقلت لهدير:

-عايزاكِ تشتغلي معايا.

-أشتغل إيه؟

-بأعمل دراسة موسعة ومحتاجة مساعدة في تفرغ المادة المجموعة.

لم ترد هدير، فواصلتُ:

-هتساعديني في تفرغ وتحليل تسجيلات لحواديت شعبية شفوية

جمعتها من ناس عاديين. هأدربك إزاي عملي ده وهتاخدي

1000 دولار في الشهر. قلتِ إيه؟

-أوكي.. أجرب. بس دراستك عن إيه بالظبط؟

-عن بطلات ألف ليلة في الحكايات الشعبية.

بانت مسحة سخرية في عيني هدير، التقطتها على الفور فبادرتُ:

-صدقيني الموضوع مش ممل زي ما يبدو، بالعكس.

قلتها بطريقة من يطلق نبوءة يثق من تحققها. أحببت هدير الطريقة

التي تفوّهت بها بجملتي. بدت لها وعدًا بمغامرة ما، والأهم أنها شعرت

أن هذا قد يقودها لكشف غموض ما اختبرته مع كريم. أكملتُ تدخين

سيجارتتي، فيما راحت عيناها تسرحان بين العناوين المرصومة بعناية

فوق الأرفف. لفت نظرها كتاب بعنوان: «الطريق إلى جبل الزمرد».





## الغرق في مرآة

أما أنا فلن أسير على دريهم. سيكون التجديف  
وسيلتي لبلوغك والإيمان بك مجددًا.

أمر الملك ياقوت بحبس بلوقيا في زنزانة مظلمة تحت الأرض،  
على أن يُعرض عليه بعد أسبوعين. كانت تلك أصعب أيام مرت عليه.  
تحطم السفينة ومقاومة الغرق في البحر واحتمالية الموت فوق جبل  
المغناطيس، لم تكن على هذا القدر من السوء. مر الوقت عليه بطيئًا. لم  
يعرف ليله من نهاره. كان يغمض عينيه ويسرح بين ثنايا طفولته، يستحضر  
أجواء مدينته القصية، ويفكر في جدته العجوز متسائلًا عن حالها. لم يندم  
على ارتحاله، لإيمانه بأن طريقه مرسوم قبل مولده، وما كان عليه سوى  
الامتثال لأقداره.

حدس أن مرحلة من حياته على وشك الانتهاء. أرهف حواسه غير  
المشوشة بالضوء أو الصوت، كي يستبين هل الموشك على الانتهاء  
محض مرحلة أم حياته نفسها، غير أنه عاد ليتخوف من مجرد التفكير في  
هذا الخاطر، أبعده عن ذهنه وكأنما بهذا يتقي المصير المشؤوم.

تناهى إليه، صوت خطوات ثقيلة تقترب. أصاخ السمع إلى الوقع  
العنيف المتصاعد أمام زنزانه، فتناهدت إليه همهمات لم يفلح في فك  
شفرتها، ثم انفتح الباب. اقتاده الحراس معصوب العينين ومقيد اليدين

إلى الملك المتربع على عرش من الزمرد البراق، وإلى جواره ابنته الهائمة في ملكوت الصمت. فكوا وثاق يديه، وأزاحوا العصابة عن عينيه فصعقه نور القاعة. غطى وجهه لبرهة حتى يعتاد التعامل معه. انتظره الملك بصبر، لم يرغب في استعجاله أو الضغط عليه. كان يعرف أن بقاءه وحيداً في زنزانة ضيقة ومظلمة لمدة جهّزه لاستجواب مثمر، وبالتالي لا حاجة إلى مزيد من الإرهاب.

كان وجه الأميرة أول ما صافح عيني بلوقيا حين فتحتها. تعرّف فيها إلى جميلة رؤياه بالسوق المزدهم.  
سأله الملك:

-كيف بلغت قاف؟

دُهل بلوقيا، فحتى تلك اللحظة لم يكن يعرف أنه وصل إلى وجهته المشتهاة. أيامه لدى الراعي كانت فترة نقاهة، لم يكد يخرج فيها من الكوخ، ولم يبصر صخور الزمرد أو يتنبه إلى تراب المسك والحناء. تسارعت دقات قلبه وهو يرنو إلى وجه الملك برجاء، ثم قال:

جئت إلى قاف من جبل المغناطيس. أتذكر أنني كنت مرمياً في جب عميق، أفتح عيني بالكاد فأواجه ظلاماً مقيماً، جسدي كان مثخناً بالجراح، والألم يعتصرني. كان ثمة وحوش تستعد للانقضاض عليّ، ثم حظ كيان ضخّم فوقني، ورفعني للأعلى. خمنت أنه طائر لأنني كنت محمولاً بمخالب ضخمة تقبض على ملابسي. غبت عن الوعي، ومع هذا كنت أشعر بتأرجحي المخيف. تحول العالم كله إلى دوار، وحين أفقت ظننت أن الطائر رمانني في بقعة أخرى من جبل المغناطيس، أو على مقربة منه.

لم يشر بلوقيا إلى الراعي الذي استضافه خوفاً عليه من بطش الملك. عاد الأخير ليقول:

-لم أسمع قبلاً بإنسي نجا من لعنة جبل المغناطيس!  
فحكى بلوقيا قصته من أولها، لم يغفل حتى أكثر تفاصيلها عصبياً  
على التصديق، حدثه عن هاجس السفر المستحوذ عليه منذ الصغر،  
والمشهد الذي تشكل أمامه في السوق، ورؤيته للأميرة زمردة تتجول في  
حديقة على هيئة متاهة.

لم يكن الملك ليصدق له لولا أنه وصف حديقة المتاهة النباتية بكل  
دقة. كان بلوقيا يختلس النظر، بينما يحكي، إلى الأميرة الصامتة. لم يبد  
عليها أنها تراه أو تسمع ما يقول. كان عقلها في مكان آخر خارج القاعة،  
بل خارج حدود قاف.

سأله الملك: ما معنى أن تكون صائغاً؟

شرح أنه يتعامل مع الجواهر والمعادن النفيسة، أشار إلى الزمرد  
الذي يغطي جدران القاعة، وقد منته كرسى العرش، وإلى أحجار ماس،  
وياقوت، وفيروز تزين الحوائط والسقف. قال إنه لم ير في صفاء ونقاء  
جواهر المملكة، قطعة صغيرة من هذا الزمرد شديد النقاء تشكّل ثروة  
هائلة في بلاده.

اندهش الملك، يعرف أن الزمرد حجر جميل، بل هو الأجل من  
وجهة نظره، لكن توافره هكذا في المملكة، في الصخور وجسد الجبل  
والأحجار، يجعله متاحاً لدرجة لا يفكر معها أحد سكان قاف فيه كسلعة  
تُباع وتُشتري. لم يخبر بلوقيا بهذا، فقط أنصت إليه حتى انتهى من كلامه،  
ثم سأله على سبيل الاختبار عما يعرفه عن الزمرد.

أجاب بلوقيا بأن الحجر الأخضر الشفاف يدخل في تركيب أدوية تعالج  
تأثير السم، ويبطل السحر، ويقوي الذاكرة، ويزيد الذكاء، ويقطع النزيف،  
ووضعه في الفم يروي العطش. ومن أنواعه: الذبابي، المسمّى بهذا لأن

حامله لا يقع عليه الذباب، وهو أرقى أنواع الزمرد. والريحاني، بلونه القريب من لون أوراق الريحان. والسلقي، المنسوب لونه لنبات السلق. والصابوني، وهو أرقى الأنواع. وأضاف أن هناك نوعاً نادراً إذا نظرت إليه الأفاعي سالت أحداقها على خدودها وفقدت بصرها في الحال. هز الملك رأسه بغموض، لم يفهم منه هل صفح عن بلوقيا أم لا، ثم قال بصوت بين الوعيد والطمأننة:

-ستبقى في غرفتين على الحدود القصية لحدائق القصر. مهمتك أن تحيل أحجار الزمرد إلى حلي، كما أخبرتني أنك كنت تفعل في بلادك. وإذا لم تعد ابنتي إلى سيرتها الأولى سريعاً، سيكون لي معك شأن آخر.

\*\*\*

حوّل بلوقيا مقره الجديد إلى نسخة من ورشة معلمه نيروز الفارسي. وضع المصاييح في الأماكن نفسها، وجعل النار تتوسط المكان، وفرش بسطاً وأرائك تذكره بماضيه هناك. في أحد الأركان جهّز لنفسه مكاناً للنوم يشبه فراشه المبسوط في بيت جدته.

عكف على صقل الزمرد وتشكيله في صورة حلي فريدة من خواتم وتيجان وأساور وقلائد من الذهب والفضة والبلاطين مزينة بالجواهر الخضراء. ما إن ينتهي من قطعة حتى يصفّها في صندوق خشبي مبطن بالقطيفة، ويبدأ العمل في غيرها. لم يتخيل أن العودة لممارسة مهنته سوف تسعده هكذا، كان يبتئ الجواهر والمعادن النفيسة حينه لمدينته ومعلمه وجدته وأماكن صباه. تخطر الأميرة في باله فيبتسم ثم تعقب ابتسامته سحابة تجهم تعكر صفو ملامحه، إذ يتذكر أن الملك قد يقتله إن لم تُشف.

كان الطعام يصله مع خادمة مرتين يومياً، في الصباح وقرب حلول الظلام، اعتادت أن تتلكأ، وتجيل بصرها في أرجاء الورشة، تتفحص بلوقيا وهو منهمك في عمله غير منتبه إليها، ثم تغادر.

جاءته في يوم بالطعام قبل موعدها، كان الباب موارباً كالعادة، وبلوقيا راقداً في فراشه يفكر في أنه أشبه بالسجين في أبعد مكان ممكن عن موطنه. أغلقت الباب بهدوء ووضعت الوجبة خلفه، وتسحبت صوب بلوقيا. أفغمته رائحتها ما إن اقتربت منه، مست كتفه، استدار ليجدها تتأمله بنظرة داعية. تخفتت من ثيابها وجلست بجواره فاعتدل مأخوذاً بالمفاجأة. كانت جميلة بشعر بني طويل وعينين مسحوبتين لأعلى وأنف مستقيم وشفاه مكتنزة. دنت أكثر وهي تتحسس صدره، فجذبها إليه في قبلة نهمة، بينما يجوس تضاريس جسدها بيديه.

ارتمت فوقه وأغرقتة في موجة من القبل المتتالية فيما أغمض عينيه متخيلاً زمردة، صعدت به إلى ذرى لم يبلغها قبلاً، شعر أنه يتقلب في عالم مفعم بالروائح والرغبات والعواطف، استسلم لها وهي تقوده في دهاليز لذة جديدة عليه، حين انتهيا، لملمت ملابسها وارتدتها على مهل، ألقت نظرة أخيرة عليه وهو ممدد في فراشه عارياً مغمض العينين، وخرجت. انتظرها في المساء، لكنها لم تأت. نابت عنها خادمة أخرى في حمل الطعام إليه. خاف أن يسأل عنها كي لا ينكشف أمره. بدأ في الخروج من ورشته للتجول في حديقة القصر علّه يراها.

بدلاً منها صادف زمردة ساهية على حافة بحيرة تطالع صورتها المنعكسة فيها باستغراق، عاد إلى ورشته وفي باله أن يصنع لها مرآة من الفضة مزينة بالزمرد والياقوت والماس كتلك التي كان يصنعها نيروز الفارسي لأثرياء مدينته. رغب في صياغة تحفة ترقى إلى جمال من

خلبت لَبَّ، على مدى أسبوع أجهد نفسه في صقلها وتزيينها بالجواهر، ثم انتظر ظهور الأميرة.

بعد أيام ثلاثة رآها تدخل خميلة مجاورة للبحيرة، فتبعها محاذراً أن يراها أحد. كانت تجلس إلى أريكة محاطة بورود متعددة الألوان، حين اقترب منها وأعطها المرأة دونما كلام. استحوذت عليها تماماً، ظلت تحديق فيها وهي تبتسم أو تعبس أو تتظاهر بالدهشة. استمرت تبدل تعبيرات وجهها وبلوقيا يتابعها حائراً. بعد قليل قالت موجهة كلامها لانعكاسها: «أنا زمردة أميرة قاف. من أنت؟».

لم يصدق بلوقيا أنها نطقت أخيراً. ودلّو يخبر الملك في الحال لإنقاذ نفسه من العقوبة المسلطة على رأسه، لكنه خاف من أن يكون في اقترابه من زمردة ما يستدعي عقاباً لا يقل خطورة. ظل ساكناً حتى انتهت له. سألته: من أنت؟ وكيف صنعت هذه التحفة الرائعة؟

أعاد سرد حكايته فيما أنصت باهتمام تضاعف حين عرّج على الزمرد وأنواعه. عندما أخبرها بأمر النوع المسيل لأحداق الحيات، فكرت على الفور في أمها المفقودة وملكة الحيات. شعرت أن اختراق هذا الغريب لعزلة قاف لم يحدث عبثاً، بدا لها كعلامة على صواب سعيها، أمرته بالبحث بين صحور قاف عن هذا الزمرد. لم يفهم سر حاجتها له، ومع هذا انهمك في التفتيش عنه طلباً لودّها، منشغلاً في الوقت نفسه بتشكيل المزيد من الحلي. شعر أنه وصل لأقصى ما يستطيعه في مهنته، تمنى لو يشهد نيروز الفارسي هذا. قال لنفسه، إنه لو قُدّر له العودة إلى مدينته ستكون ورشة معلمه هي وجهته الأولى، سيحمل له نماذج من الحلي التي صاغها، وأحجاراً من زمرد قاف الفريد. سيكون هذا تعويضاً مناسباً عن خاتم ابنة شهندر التجار الذي سرقه عند رحيله.

انبهر الملك حين أبصر الحلي والتيجان التي انتهى بلوقيا من تشكيلها، وزاد انبهاره حين طالع المرأة الفضية المزينة بالزمرد والماس والياقوت. ضاعف هذا من محبته لمن شفى زمردة وأعادها لسابق عهدها. باتت ثقته فيه مطلقة.

لم تكن المرايا شائعة في قاف، كانوا يطالعون وجوههم على صفحة الماء، أو الأسطح المعدنية المصقولة، ولم يتخيلوا أبداً إمكانية امتلاك مرآة على هذا القدر من الصفاء، بدت للملك اختراعاً معجزاً، أراد أن يقصره عليه هو وابنته فقط. «سأقطع رأسك إذا صنعت مثلها لآخرين!» قال لبلوقيا بصوت يمزج المداعبة بالوعيد.

بعد أسابيع أحضر بلوقيا للأميرة أحجاراً عديدة من الزمرد المسيل لأحداق الحيات، وترجأها أن تخبره بالغرض منها، فحكّت له عن الحية المحيطة بقاف. وصفت له حجمها فارتعب وباح لها بخشيتها من أن هذا الزمرد قد لا يكون كافياً مع حية بهذه الخطورة، وقد يزيد من شرستها بدلاً من القضاء عليها.

حدّثها عن جبل المغناطيس، وعن صديقه القابع هناك، وأحجار الجنون الفضية وكيف يمكنها أن تتحد مع تأثير الزمرد لإحداث الأثر المرجو. قال هذا بفتور كونه يدرك استحالة السفر إلى هناك. لمعت عينها حين تذكرت ما سبق أن تناهى إليها عبر الوصيفات من أن ملكة الحيات ضللت أمها وتركتها في غياهب جبل المغناطيس. رأت في المبادرة بالذهاب إلى هناك فائدة مزدوجة ممثلة في محاولة البحث عن أقرب مخلوقة لقلبها، وجلب ما قد يساعد على التخلص من ملكة الحيات مما يُخرج قاف من عزلته.

لطالما اقترن جبل المغناطيس في ذهنها باللعنات والأساطير المخيفة،

ومنذ اختفت والدتها صار مرادفًا للموت في مخيلتها. طمأنها أن بلوقيا سبق له أن غادره سالمًا، وأن هناك إنسيًا يقيم هناك. منحها هذا أملًا في أن أمها قد تكون نجت بطريقة أو بأخرى.

استوقفها لوهلة أنها ممنوعة من امتطاء العنقاء، قبل سن الحادية والعشرين، حذرها والدها من لعنة سوف تحيق بالمملكة إن فعلت. لكن سرعان ما خطر ببالها أنه حتى سنوات مضت كان التدوين ممنوعًا في قاف بحجة خرقه للناموس المقدس، ثم سمح به والدها حفاظًا على ذاكرة الجبل وتاريخه دون أن يجلب هذا أي لعنة، سخرت في سريرتها من هذه الأفكار البالية.

تذكرت أمها وكم كانت مختلفة عن كل سكان قاف، لم تكن تؤمن بمعتقداتهم وخرافاتهم، ولطالما حكمت لها عن مدينتها البعيدة «جولستان» وشوقها إليها. قالت زمردة لنفسها إنها تشبهها أكثر مما تشبه أباها. تذكرت أنها طلبت منه - حين اختفت أمها - البحث عنها في مسقط رأسها، فأخبرها أن «جولستان» سُويت بالأرض قبل مدة، لم تصدقه، ظنّت أنه يخدعها كي تكف عن توسلاتها له بأن يأخذها إلى هناك.

استغلت زمردة عكوف والدها في خلوة لمدة شهر في الجانب الآخر من قاف، وغادرت على متن العنقاء بصحبة بلوقيا.



## مدينة مبللة بالمطر

الأسمى من الجبال فكرة الجبال: أن ترمق  
العالم من علٍ، أن تصير أنت الجبل وهو  
أنت!

في «ساوث شيلدز» المدينة البريطانية المنعزلة على بحر الشمال،  
وقفتُ - قبل سنوات على لقائي الأول بهدير - وسط غابة صغيرة يفتح  
عليها فندق «Little Haven». الهواء كان مُشَبَّعًا برائحة اليود، والطقس  
شديد البرودة لدرجة شعرتُ معها أن دمي على وشك التجمد.  
كان ثمة فنار ونوارس يزدهم بها الشاطئ الملاصق للفندق الصغير،  
وضجة محببة لعرس يجري الإعداد له في الساحة أمامه، لكنني غرقت  
داخل الغابة وانفصلت عمّا حولي. في ذهني كانت هناك طفلة صغيرة  
تتعثر في خطواتها وهي تركض خلف أبيها على مقربة من أطلال قلعة  
«ألموت»؛ طفلة نُذرت منذ مولدها لهدف بعيد المنال، وباتت قاب  
قوسين أو أدنى من إنجازه.

تملكتني رغبة قوية في ترك بصمة وحفر أثر في مكان اخترقني منذ  
اللحظة الأولى، وأحدس أنني لن أزوره مجددًا. ولأنني أعشق الأشجار  
فكَّرتُ في أن حفر اسمي على جذع إحداها عمل بشع، كأنما أجرح إنسانًا.  
بخطوات بطيئة تستلذ بلمساتها للأرض، اتجهتُ نحو الفنار على

الشاطيء، أخرجت قلماً أسود من حقييتي، وكتبتُ على الهيكل الخشبي: «اسمي بستان البحر، أو بوستان دريا، أو باغ دريا، لا فارق! أغادر العالم على أطراف أصابعي في طريقي إلى جبل الزمرد. إن لم تُبعث أميرتنا من جديد سأفنى في رمادي الخاص، ستتبخر كلماتي كأنها لم تكن. من له أن يؤبّد الحكاية؟ من سينقيها من آثار التحريف بحيث تبطل اللعنة وينفك السحر!».

المدينة التي استقبلتني بمطر غزير وجو عاصف، وودعتني بشمس دافئة، جعلتني بين الاستقبال والوداع أتمنى لو أفقد ذاكرتي لأولد من جديد في هذا المكان المنسيّ على أطراف العالم. تمنيت، وأنا فيها، لو كنت امرأة عادية كملايين النساء، أحب وأتزوج لأنجب، أو أتمسك باستقلاليّتي وأنتقل من حب لآخر بلا ندم أو تردد. امرأة تحمل أعباءً عادية لا حمل ثقيل يجعل روحها رهينة له.

حين وصلت إلى «ساوث شيلدز»، كانت الشوارع خاوية والمطر غزيراً، شعرت أنني بداخل فيلم لـ«هيتشكوك»، شخصية فينة تنتظر ما سيفاجئها به خالقها.

رطوبة البحر. رائحة المطر. أصوات النوارس. تماثيل طيور البطريق في الساحة أمام الفندق، والغابة الصغيرة في مواجهته، كلها لا تزال محفورة في ذاكرتي كأني غادرتها بالأمس.

شيء واحد نغصّ عليّ إقامتي الهائلة في المدينة الهادئة: كانت خالية من الجبال. منبسطة ومسطحة. تختال بجمالها وصمودها الطويل في وجه العواصف الثلجية وأمواج البحر، غافلةً عن أن انبساطها هذا، ليس نقطة إيجابية تُحسب لها في عرفي، لأنها على هذه الصورة، بلا عرق خفي يربطها بجبل قاف، وبالتالي تفتقر إلى ما يساعد على استعادة أميرتي الغائبة.

وَدَعَتُ المدينة متألمة من أنني لن أستطيع المكوث فيها أكثر. بحقيبة صغيرة وملابس شتوية ثقيلة وصلتُ إلى مدينة أخرى هي «إنسبروك» الواقعة في منطقة الألب النمساوية. حين خطوط خارج محطة القطار الرئيسية صافحتُ عيناى جبلاً بدا أشبه بجدار صلب تتكئ عليه المدينة الواحدة.

منظر قد لا يروق للكثيرين، إذ يشعروهم بأنهم في مواجهة حاجز قاهر يحاصروهم ويقف حائلاً بينهم وبين الأفق، لكنه بالنسبة لي كان قَبَسًا من نور الوطن الموغل في القدم، كما سمعت عنه في حكايا أبي التي نقلها بدوره عن أسلاف كانوا يتبادلون حكيها في جلساتهم حول النار الموقدة طلبًا للدفء فوق قمم جبال لجأوا إليها بديلاً عن جبلهم المفقود.

لم أحتج إلى عربة أجرة تقلني إلى الفندق، كونه يبعد خطوات قليلة عن المحطة. سرتُ ببطء في الطقس بالغ البرودة، والجبل في مواجهتي حتى وصلتُ إلى محل إقامتي في Adamgasse.

كان فندقًا بسيطًا، موظف الاستقبال فيه أربيعيني دائم التجهم بلا مبرر واضح، ورأسه متوج بشعر أشقر غزير. دخلتُ غرفتي، وقبل أن أفرغ حقيبتى من الملابس، فتحت الستائر، كي أتأكد من أن الغرفة تُشرف على الجبل، كما طلبت من الرجل. تغاضيت عن انقطاع الإنترنت معظم الوقت، وعن تواضع الخدمة في الفندق مقابل هذه الإطالة.

جلستُ على إفريز النافذة الداخلي العريض أرقب الجبل - كأنما سيمدني بمبتغاي - وأنتظر رسالة إلكترونية من تاجر مخطوطات يعيش في فيينا وأحاول منذ سنة الوصول إليه، وأظنني اقتربت من هدفي، وعلامتي عودة الأفق الداكن لمخايلتي منذ وصلتُ إنسبروك.

طوال عمري تقريباً عشت مطاردةً بأفق أسود يتراءى لي، يهجرني

لفترات، ليعود أشد عزماً على ملاحقتي! حينئذ أجده أمامي أينما كنت.  
يرافقني كأنه مرآة تعكس جوهرى، تعكسني وقد استحلت لوناً.

يهجرني فلا أعرفني ويغيب عني مغزى وجودي. يحدث هذا في  
لحظات ضعفي وابتعادي عن روح الأميرة الغائبة، وغرقى في ابتدال  
اليومي والمعاش. لا بد من أن روحها تكون ناقمة عليّ، لذا تحرمني  
مما يذكرني بها، من اللون الذي خيم على فضاء جبل الزمرد بعد تفحّمها  
وتحولها إلى حفنة رماد.

في الأوقات المماثلة، أعتكف منزلة عن العالم، وأستغرق في  
ابتهاالاتي الخاصة. أول مرة اصطدمت بهذا الحاجز الأسود كانت في  
سنوات عمالي؛ في الواقع لم أكن أواجه شيئاً غيره، وبعد أن عاد لي  
بصري، صرت أراه بلا مقدمات، أغمض عينيّ ثم أفتحهما على أفق  
حالك، أدقق فيه ويخطر لي أنني فقدت البصر ثانية، قبل أن يختفي ويعود  
العالم لطبيعته.

هنا في إنسبروك تراءى لي مراراً، لذا صرت متأكدة من أن تاجر  
المخطوطات هذا سيرد على رسالتي قريباً، وصلني أن لديه مخطوطاً  
يفصّل رحلة نزوح أسلافي وتيههم ويشرح أيضاً بداية انتقالهم من الشفاهة  
إلى التدوين. مخطوط بالغ القدم، كان بحوزة ناسك جبل «دماوند».

استغرقني منظر الجبل وشردت فيه، بدا أشبه بمستطيل عملاق  
منحوت بيد نحاتٍ مثابر لا من صنع الطبيعة. نظرت إلى الشارع بالأسفل  
فقابلتني واجهة محل للتحف والأقنعة الإفريقية، وبجواره مقهى على  
زجاجه الخارجي إعلان عن توفر الإنترنت. نزلت من فوق الإفريز،  
بدلت ملابسى، واصطحبت حاسوبي المحمول متوجهة إلى المقهى.

هناك تصفحت بريدي الإلكتروني فلم أجد الرسالة المنتظرة. اتخذت

من المكان مقرّالي في المدينة، أتجول في الشوارع بالساعات، مولية وجهي نحو الجبل قدر استطاعتي، أختار مطاعم صغيرة عشوائياً لتناول طعامي فيها، وأعود إلى المقهى للاطمئنان هل ردّ عليّ الرجل أم لا. أحسسي قهوتي المُرّة، وأقرأ بنهم، وأعيد فك وتركيب قصة الأميرة الغائبة في خيالي محاولةً وضع يدي على تناقضاتها وأجزائها المُحرّفة، قبل أن يهدني التعب فألجأ إلى غرفتي طلباً للراحة.

ظللت على حالتي هذه لأيام ثلاثة، وفي الرابع وصلتنني رسالة إلكترونية مختصرة يبلغني فيها تاجر المخطوطات أن أقالبه في الخامسة من مساء الغد بفيينا. كلماته التي بدأت بـ«أهلاً بستان» كأنما يعرفني منذ زمن، انتهت بعنوان تفصيلي، على مقربة من متحف «ألبرتينا»، دوّنته بحرص في دفثري، وحجزتُ تذكرة في القطار المتجه إلى فيينا صباحاً.

\*\*\*

المدينة مبللة بالمطر.

الأرصفة مرايا ممتدة بفضل اللون الفضي للمياه. إعلانات الشوارع طافحة بالشهوة: فتيات شبه عاريات بنظرات داعية ورجال يستعرضون أجسادهم الرياضية. محلات الجنس أو ملصقات الدعاية لها تلوح هنا وهناك. حسية ما تجعل الشبق كأنما يسيل في الهواء، ويُغلف الفضاء، ويمنح حتى للمطر رمزية أخرى، فتبدو «فيينا» - رغم أساها - قطة شبقة تعلق الماء عن فروها وتستسلم لكسل صباحي.

وهو لم يكن خارجاً عن سياق مدينته، كأنه تماهى معه وتبناه وجعله لصيقاً به. حين دخلت القاعة الفخمة، كان هناك، بجسده الممشوق وملابسه الأنيقة، في ركن منزو يتحدث ضاحكاً مع ثلاث نساء. يتعد قليلاً ممسكاً بكأس النبيذ الأبيض، ثم يعود ليلقي جملة تضحكهن. كان كأنما يضبط إيقاعهن الداخلي بكلماته.

اقتربت منه بعد أن خلعت معطفي المبتل، رمقني بنظرة خاطفة وإن كانت متفحصة، ثم عاد ليكمل حديثه. ظننت لوهلة أنه لم يرني كونه لم يرد على ابتسامتي المحيية وعاد لمواصلة نكاته.

كنت سأتوقف على بعد خطوات في انتظار أن ينتهي، غير أنه انحنى ليهمس في أذن إحدى السيدات، ثم توجه نحوي مرحباً بوجه متهلل. بحركة مسرحية فتح ذراعيه عن آخرهما من دون التخلي عن كأس النبيذ. أحنى رأسه وركبتيه قليلاً ثم قبّل يدي: أهلاً سيدتي الغامضة!

قال بصوت مبحوح وبإنجليزية رصينة، فشعرت بأني أصبحت محط انتباه نساءه الضاحكات.

«غامضة! يا له من وصف. من منا الغامض؟»، كان هذا أول ما خطر ببالي لأنه استعصى على قدراتي كما لو كان عرف بسعيي خلفه، وتعمد مراوغتي، ونصب بيننا حاجزاً منعني من قراءة أفكاره. رددت تحيته بحرارة، بينما أفكر في أن المعلومات التي جمعتها عنه، كانت شحيحة للغاية رغم مساعدة معارفي، بدا لي كرجل يعيش في الظلال، يلاعبها ويرقص معها متحاشياً الضوء والوضوح.

اصطحبني إلى ممر طويل ينتهي بغرفة مكتب معزولة عن القاعة الخارجية. أغلق الباب بحرص وجلس إلى مكتبه طالباً مني الجلوس في مواجهته.

- عن أي مخطوط تبحثين؟

- أنا مؤرخة. أحتاج المخطوط المعروف بـ«النزوح إلى العالم». اقتنيت أثره طويلاً بلا طائل، هناك نسخ مفرقة عثرت عليها لا علاقة لها بما أفتش عنه، وفي النهاية وصلني أن المخطوط الأقرب إلى الصيغة الأصلية لديك.

ابتسم وهو يشعل سيجارًا التقطه من علبة أمامه، ثم قال:

-الإجابات الطويلة تخفي أسرارًا!

-أو تمّوه على الارتباك والخجل. أجب مع ضحكة أردتها أن تبدو جذابة.

-أو كي سيدتي المرتبكة. قلتِ «المخطوط الأقرب إلى الصيغة الأصلية»، وليس «المخطوط الأصلي» وهذا مثير للاهتمام!

تفحص ملابسي السوداء، فيما قلت وأنا أضغط على مخارج حروفي:

-لا أرغب في إضاعة المزيد من الوقت. مستعدة لدفع ما تريد من مال مقابل المخطوط. بل حتى يمكنك الاحتفاظ به، ما أريده هو نسخ محتواه. صفقة رائعة لا يرفضها عاقل.

-ولا يقبلها فضولي قبل معرفة السر الكامن وراءها!

رد ببرود، ثم سأل وهو ينظر في عينيّ:

-تفتشين خلف حكاية ابنة ملك قاف؟ أنتِ بوستان دريا، ابنة ناسك جبال الديلم، أليس كذلك؟

لم أجهه، فواصل بفارسية سليمة هذه المرة:

-اسمي الأصلي كريم خان. أنحدر من المجموعة التي استوطنت جبل دماوند في إيران بعد النزوح من قاف. والذي هو ناسك «دماوند»، وبحوزتي إرثه كاملاً، أنتظر ظهورك منذ مدة لكنك أخذتِ وقتًا أطول مما توقعت، كي تعثري عليّ، المعلومات المسربة إليك عني وعن وجود «النزوح إلى العالم» معي لم تكن مجرد مصادفة. ما إن وصلتني رسالتك الإلكترونية، حتى أدركت أن اللحظة المناسبة حانت. ننتمي للأصل نفسه، ونسعى خلف الهدف ذاته. تقول النبوءات التي معي إن امرأة هي التي ستمكن من استعادة زمردة. قد تكون أنتِ أو أخرى، علينا معًا البحث عنها.

-لماذا تأخرت في الرد على رسالتي إذن؟ سألته محتدة.  
-مجرد تكتيك! كما كان عليّ مراجعة ما لديّ من مخطوطات ووثائق.

\*\*\*

في طريق عودتي إلى القاهرة استعدت كلمات كريم خان، فكرت في النقاشات الطويلة بيننا عن أرض الأسلاف. على مدى أسبوعين قمنا بتمحيص ما لدينا، حصرنا قائمة بالتحريفات المحتملة لحكاية أميرتنا الغائبة، وأخرى بتفاصيل منها موزعة على حكايات أخرى. ما توقعنا أمامه كان تلك النبوءة الغامضة عن خاتم زمرد ضائع وفتاة جامحة في مدينة ترتجف، وامرأة تضحك لها المرايا.

تناقشنا مطولاً بينما يصطحبني في جولات ممتدة بين متحفي «بلفيدير» و«ألبرتينا» وقصر «شونبرون» بحدائقه المبهرة، والمقاهي القديمة الشهيرة. جعلني أدرك أن ثمة ما هو مأساوي في فيينا! فشيء ما في المدينة العريقة يثير الأسى ويدفع زائرها نحوه. أناقة العمارة وفخامتها العتيقة تجعلانها تبدو كطلل مجد غابر، كأنما تخبر الآخرين أن هذا ما تبقى من إمبراطورية كادت تحكم أوروبا كلها يوماً.

ذكّرني هذا بالأسى المغلّف لذكرى أرض أسلافنا، والموشوم على أرواحنا، نحن المتحدرين منها، حتى لو لم نعترف به.

من الطائرة بدت جبال الألب، كمرتفعات من آيس كريم الشيكولاتة المغطى بالكريمة البيضاء. تابعتها عبر زجاج النافذة. حدثت في التناقض بين بياض القمم الثلجية وبُني السفوح، فساورتني رغبة حارقة في رمي نفسي فوقها.

تمنيت لو كنت منار السناء، المرأة ذات ثوب الريش، في حكاية حسن البصري كي أجلس على جناح الطائرة مستمتعة بمنظر ثلوج قمم الألب من أعلى، ثم أطيّر لأهبط فوقها.



يوماً ما سأكون المرأة ذات ثوب الريش، سأصير منار السناء. أكاد أو من بهذا!

تقول الأسطورة إن الكاهنة المقدر لها أن تستعيد أميرة قاف ستصير ما تشاء! سيكون لها ما تتمنى من قدرات. لا أرغب إلا في أن أكون مثل منار السناء، لن أستخدم ثوب الريش سوى مرة واحدة في العام. أحلق به نحو الممالك والبلدان البعيدة. أحوم فوق جزر الواق واق، وجبلي الماس والمغناطيس، ووادي الحيات.

أما بقية العام فسأقبع في قاف، الوطن المراوغ الذي لطالما سمعت عنه وحلمت به، سأختار لنفسى مكاناً قريباً من عش العنقاء، لا بد لبيتي من أن يكون حميمياً تحوطه حدائق شاسعة وتحجبه عن المتطفلين، بحيث يمرون بها دون الانتباه لوجود البيت بداخلها.

حضر في ذهني فجأة مكان قاحل على حافة جرف خطر؛ أرض محروقة تخايلني في اليقظة كما في الأحلام. غادرتُ خيالاتي وعدت للتحديق عبر زجاج الطائرة. بالأسفل، كانت ثمة سحب منخفضة، تشبه زهوراً بيضاء هائلة، تغفو مطمئة فوق قمم الألب، تخفيها لدقائق قبل أن تعاود القمم انبثاقها.



## أرض الجنيات

فلتكن كلماتي منذورة لإساءة الفهم وأخطاء  
التأويل!

يوم إلقاء القبض على بلوقيا، عاد الراعي بقطيعه من الماعز البري، ليجد كوخه خاليًا: الفراش مشدود ناحية الباب، والأواني القليلة مرمية في الأركان وقد تكسرت الفخاري منها وبقي الخشبي مبعثرًا. خطر بباله أن بلوقيا سرقة وهرب، إلا أنه سرعان ما سخر من هذا الخاطر، إذ ليس في كوخه ما يغري بالسرقة.

شعر بأنه منذور للخذلان والهجر من الأحبة والغرباء على حد سواء. غلبته الكآبة. استعاد هجر زوجته «مروج» له. وقتها كان يخرج في رحلات صيد للمتعة لا ليعتاش على ما يصيده كحاله الآن. كان ينطلق في حاشية صغيرة من خدمه ويخيم في الخلاء ليومين مستمتعًا بالقنص، يلاحق الصقور والجوارح ويتحاشى إزعاج طيور الرخ العملاقة - التي تعتبر قاف محطة أساسية في ترحالها الأبدي - لأنه يعلم أن لا أحد يقدر على تحمل انتقامها المرؤّع.

عاد من إحدى رحلاته تلك ليفاجأ ببيته مقلوبًا، وبزوجته وقد اختفت. لم تأخذ أيًا من ملابسها أو أدوات زينتها، فقط مخطوطات جدها حكيم المملكة السابق، ومحتويات الخزانة الموروثة عن أمها. عندما وجد

أشياءها في أماكنها ظنها ستعود، لكن الخادمة أخبرته بالرسالة الشفوية المتروكة له: «لا تبحث عني، لقد وجدت علامتي»!

لم يفهم ماذا تقصد، وإن كان أدرك أن قصتهما معاً انتهت، وأنها تركته من دون وداع أو شرح. خلفته وراءها كبضاعة استنفذت الغرض منها. أعياءه البحث عنها، هام على وجهه في الطرقات وفي ذهنه سؤال واحد يرغب في أن تجيبه عليه: «لماذا؟».

قال لنفسه إنه، إن وجدها، سينصت إلى جوابها ولن يعلّق عليه. سوف يستدير مغادراً وقد أهدها بعضاً من حيرته. أهمل تجارته، هجر بيته الفخم، ولجأ إلى الخلاء. اختار أكثر المناطق عزلة على أطراف الجبل وأسس كوخاً من جذوع الأشجار، على حافة جرف خطر، وعاش فيه. روض قطيعاً من الماعز البري وجاب به المراعي القريبة. اتنس بصحبته ووجد فيه عزاءً مؤقتاً، وإن لم ينس جرحه.

في ليالٍ بعينها كان يصحو من نومه وهو واثق أن زوجته موجودة على مقربة، يكاد يسمع صوت تنفسها ويشم رائحتها، بل حسب مرة - وهو بين اليقظة والنوم - أنه شعر بلمساتها تداعب جسده، فتح عينيه فلم يقابله إلا فراغ الكوخ.

لم يتخيل يوماً أن «مروج» قادرة على تركه على هذا النحو المهين، صحيح أنه لاحظ تغييرات جوهرية طرأت عليها في الستين الأخيرتين من عمر زواجهما، لكنه عزاها إلى اهتمامها الطارئ بالسحر، لم يتبته إلى أن هذه التغييرات يمكنها تبديل مشاعرها نحوه، وهو واثق من أنها لم تفعل، ودليله أن الشهر الأخير من حياتهما معاً كان الفترة الأكثر إمتاعاً وشهوانية في عمر زواجهما، إذ راحت زوجته تتفنن في فنون الحب والجنس، كأنما تعوّض ما فاتها منه.

سعيداً بحسيتها المتفجرة الجديدة عليه، امتنع عن رحلات الصيد الأسبوعية، لكنه في نهاية الشهر استجاب لغواية القنص والتخيم في البرية من جديد، وخرج وفي ذهنه العودة في اليوم التالي، ولما فعل فوجئ بزوجته وقد تلاشت من حياته. لطالما لام نفسه، في ساعات الحنين بكوخه المنعزل، على خروجه في ذلك اليوم المشئوم.

بعد مرور قرابة العام على قبض حراس الملك على بلوقيا، حدد الراعي موعده مع فوهة العدم الجاذبة. يومها، بدت السماء قريبة أكثر من المعتاد، والسحب منخفضة لدرجة خُيل له معها أن بإمكانه لمسها. النسيم الخفيف داعب وجهه، وأريح الزهور والأعشاب البرية تسلل إلى أنفه ورتنيه فمدته بانتعاش رفعه بضعة سنتيمترات عن الأرض. أكل ثمرتي فاكهة وشرب قدحاً من حليب الماعز وفي ذهنه أن هذا هو الصباح المثالي لتنفيذ قرار أضمره طوال سنوات ثلاث.

خرج من الكوخ، تجاوز الحرش المواجه له، داعب أوراق الأشجار، ثم اتجه إلى حافة الجرف، وقف هناك متأملاً الهاوية والنباتات العملاقة تكاد تخفيها، دوّخه النظر إلى الأسفل، فراجع لخطوات وقد بانّت على وجهه علامات الحيرة، خايله الوجه الأليف لـ«مروج»، شعر كما لو كان يرى عينيها عميقتي السواد. تذكر بلوقيا فتمنى أن يكون قد عاد إلى مدينته بسلام.

اطمأن على حيواناته، وأطلقها لترعى في أعشاب الحرش، ثم عاد إلى الكوخ، وأغلق الباب خلفه بإحكام. جمع أوانيّه وأشياءه القليلة في أحد الأركان، أشعل النار في فراشه الموضوع على الأرضية، وركد فوقه باستسلام. جفل قطيع الماعز، حين علت صرخة أخيرة، واستطالت ألسنة لهب ساعد النسيم على تأجيلها.

كانت السماء لا تزال قريبة حين تحوّل الكوخ إلى أطلال متفحّمة، كانت قريبة ونقية الزرقة، وظلت السحب منخفضة يهياً لمن يراها أنها تُطال باليد، ارتفع لهب برتقالي وتصاعد دخان غطى السحب، لكنها سرعان ما عاودت الظهور لتزين زرقة السماء بلونها الأبيض الشاحب.

\*\*\*

كانت مروج تعيش مع زوجها، على مقربة من قصر الزمرد، في بيت فخم يمكن لمن يتسلق البرج الصغير فوق سطحه أن يلتقط بعضاً مما يجري في حديقة المتاهة النباتية. كانت حفيدة حكيم الجبل السابق، تلقت العلم على غير عادة نساء قاف، عن أمها التي أحسن أبوها الحكيم تثقيفها. كثيراً ما رآها زوجها منكبة على قراءة مخطوطات لا يعرف ما فيها، ولا من أين جلبتها، كان هذا يشعره بهلع، سرعان ما يتناساه لعشقه لها.

اعتادت التسلل إلى البرج فوق السطح لتأمل ما يبين لها من الحديقة الملحقة بالقصر. أسرتها بحيرة اللجين الملكية وقد تراقصت أشعة الشمس فوقها لتنعكس أضواءً باهرة تخطف البصر.

انبهرت نباتات لم تر لها مثيلاً، كل يوم تقريباً كانت تختبئ في البرج ناظرة إلى ما يجود به من مشاهد فريدة. مرة تتابع الوصيفات وهن يلعبن ويركضن، وأخرى تركز بصرها على شجرة بعينها حتى تكاد تشعر أنها والشجرة شيء واحد.

غير أن أكثر ما هز كيائها كان مرأى الأميرة، وهي تترىض بين حاشيتها. بدت لها كما لو كانت مخلوقة من ضوء، بشرتها بيضاء مشربة بالوردي، وثمة سحر ينبعث منها وينسج حولها هالة تجذب القلوب لها، استدارت يميناً ويساراً ثم خلعت ملابسها ونزلت لتسبح في البحيرة فيما سيّجت الوصيفات بأجسادهن المياه ومن فيها.

انقلبت حال مروج، وصارت لا تمل من مراقبة المتاهة النباتية، التبس الأمر عليها، لم تفهم سر ولعها بزمردة، كأنها مدفوعة إليها لسبب غامض. الأميرة محبوبة من كل سكان المملكة؛ لطالما تغنوا بجمالها، وازدهار مملكتهم بمجرد مولدها، غير أن «مروج» كانت واثقة من أن ما يربطها بزمردة أمر مختلف، شيء ما أسر لها بأن مصيريهما مجدولان معاً. كثيراً ما تابعت موكبها من دون أن تراها عن قرب، من مكمنها فوق سطح بيتها، عرفت الكثير عن زمردة: مواعيد تنزهها في الحديقة، وصفاتها المفضلات، وحبها لنافورة الماء على هيئة طاووس ألوانه زاهية.

بعد ترك مروج لزوجها بفترة، وعندما تأكدت من هجره التام لبيتها، راحت تتسلل إلى البيت الخالي بشكل يومي. كانت تصعد مباشرة إلى السطح، لمراقبة حديقة القصر.

رصدت كيف منعت الأميرة وصفاتها من مرافقتها في تنزهها اليومي، إذ باتت الشخص الوحيد المتردد على المكان، كانت تتسحب إلى خميلة في طرف منزٍ وفتختفي بداخلها قبل أن تخرج منها لاحقاً بخطوات سريعة مرتبكة محروسة بتغريد الطيور.

اكتشفت مروج فيما بعد أن ثمة صحبة جديدة للأميرة في خميلتها، حين لمحت من يتجول معها يوماً على شاطئ البحيرة في لحظة تخلٍ عن الحذر. كان شاباً وسيماً تعرفت فيه إلى الغريب الذي دار به الحراس في شوارع المدينة مكبلاً في قيوده، قبل مدة، معلنين أنه الذي أخل بتوازن المملكة.

تابعت مثل الآخرين أنباء عفو الملك عنه وإحاقه بحاشيته، لكنها لم تسمع أبداً عمّا يربط بينه وبين أميرة البلاد، ووريثة عرش قاف الزمردى،

لاحظت أنه يخرج من الخميطة كل مرة بعد الأميرة. يتلفت حوله، ثم يختفي في ممرات المتاهة. سألت نفسها: «هل الأميرة على علاقة جسدية به؟». توجست ممّا يمكن أن يجلبه هذا على قاف من لعنات، زمردة ممنوعة من هذا قبل تسلمها الحكم، فكيف إن تورطت مع غريب عابر؟ بحثًا عن حل، عادت مروج إلى أوراق جدها السرية، التي سجل فيها نواميس قاف وقوانينه. قرأت نبوءة عن غريب يطأ قاف وتلي وصوله لعنات كفيلة بتصدع الجبل الزمردى، فشعرت بثقل يطبق على صدرها.

تمنت لو بقيت تلك الطفلة الصغيرة، القابضة على كف أمها، وهما تسيران بين شعاب أرض الجنيات، حيث اعتادت أمها أن تصطحبها أسبوعيًا في زيارات ظلت سرهما المشترك.

ودّت لو تستعيد الغفلة ذاتها: غفلتها عن كنه المكان وخطورته، وعن سبب تردهما عليه. لو ظلت تلك الصغيرة لغابت عنها آلام كثيرة، ولا استمرت تمرح في خدر طفولتها، لسهوها عن أن كل ما يحيط بها، سرٌّ مستغلّق على فهمها.

استدعت الرهبة التي كانت تسيطر عليها في الطريق الموحش المنحدر إلى هناك. لم تكن تدرك ماهية المكان، لكن توجس الأم، وحرصها على سلوك أكثر الطرق عزلة، والتفتاتها الدائم خلفها، لطالما سرّب إلى «مروج» شعورًا مقبضًا.

منذ وعت على الدنيا، كانت والدتها تغيب بالساعات مرة واحدة على الأقل أسبوعيًا، مستغلة انشغال زوجها في سفرات لا تنتهي بين أقاليم قاف المتعددة. لم تكن تدرك أين تذهب أمها، غير أنها كانت تلاحظ إحساس الراحة الذي يهيمن عليها عقب عودتها.

وحين بدأت تصطحبها معها، لاحظت مروج أنها تتخلى عن حذرها،



وتصير أكثر طمأنينة ما إن تصل إلى أرض الجنيات، تبدو كمن يتمدد في غرفة نومه. مع الوقت اعتادت الابنة على سكون المكان، وتشكيلاته من الأحجار الكريمة في هيئة مجسمات عشوائية، ونباتاته بألوانها غير المألوفة، لكنها ظلت على خوفها من قهقهات وأصوات حادة، تكسر السكون فجأة، أصوات تنشغل عنها الأم بقطع أعشاب برية بعينها، وجمع ثمار بيضاوية صلبة، تنهمك، حين تعود إلى البيت، في كسرها وحفظ ما بداخلها من سوائل في قوارير تخفيها في خزانة خاصة بعيداً عن المتناول. اعتادت أن تجلس ابنتها فوق صخرة بازلتية بجوار مساحة شاسعة مزروعة بالصبار، ثم تختفي لفترة في مغارة بالجبل، تخرج بعدها مسرعة وهي تعدل رداءها، وتسحب «مروج» خلفها حاملة غنيمتها من الأعشاب والثمار.

كان ثمة أطيافٌ تتقافز هنا وهناك، قبل أن تختفي كأنها لم تكن. تخيل الأطياف الابنة، فتأمرها الأم أن تتصرف كأن لا شيء يحدث. «لا تنظري إليها، ثبتي نظرتك في الفراغ أمامك». كانت تقول، وتبالغ الصغيرة في تنفيذ الوصية، من غير الانتباه إلى أن والدتها لا تلتزم بما توصيها به، بل تنظر للأطياف المتجسدة وتبتسم لبعضها كما يبتسم المرء لصديق عزيز. لم تحك «مروج» لأحد قط عن سرّهما الدفين، وتمنت أن تجود أمها عليها بتفسير يدلّها على سبب التردد المستمر على هذه البقعة الموحشة، لكنها ماتت قبل أن تفعل. أطلعتها فقط على التأثيرات السحرية لأعشابها والسوائل المستخرجة من ثمارها البيضاوية. أجهدت الابنة نفسها في تدوين ذكرياتها عن زيارتهما المشتركة لأرض الجنيات، وخروج أمها المرتبك من مغارة يكاد مدخلها يختفي خلف شجرة معمرة، غير أن هذا لم يزد «مروج» إلا تشويشاً.

بعد رحيل أمها، اكتشفت أنها ورثت هوسها بأمراض الجنيات. ترددت عليها في البداية لجلب الأعشاب وعصارة الثمار التي تشربت أسرارها، ثم بدأ المكان ينفتح أمامها ويمنحها نفسه على مهل. صارت رفيقة لأطرافه وأصواته الغامضة. كانت تخطو حيث اعتادت خطوة أمها أن تأخذها، كأنما تقتفي أثرها، أو كأن الدوس على آثار أقدام متخيلة سيدل «مروج» على ما فاتها.

وحدها المغارة ظلت عصية عليها. اعتادت أن تحوم حولها وقلبها يرتجف. تجلس لفترات لا تعرف مداها فوق الصخرة البازلتية المواجهة لها، فتعود طفلة تخنقها الرهبة، ويقتلها الفضول لمعرفة ما تفعله والدتها بالداخل. الرهبة والفضول ذاتهما، كانا دافعا في النهاية للاقتراب. خطت مغمضة العينين. أمام الشجرة التي تكاد تحجب المدخل عن الأنظار ترددت قليلاً، ثم واصلت سيرها. ما إن عبرت العتبة، حتى فتحت عينيها على عتمة خفيفة. وجدت نفسها في وسط ممر طويل يقود إلى عمق المكان. خُيِّلَ إليها أن الجدران المصمتة تُعملق دقات قلبها وصوت تنفسها. كان ثمة هسيس ينبعث من الداخل، وثمره رائحة ثقيلة تُعبِّق؛ رائحة نقلت إلى مروج إحساساً بالخدر.

بزغت من القلب المظلم للمغارة أصوات مُنغمّة، تبعت مروج وقعتها مسلوبة الإرادة وهي لا تكاد ترى أمامها. أضحى ثوبها الفضفاض عبئاً عليها، ودّت لو تتخفف منه. رغبت في السير عارية، علّها تتخلص من الثقل الرازح على صدرها. مفاصلها المرتعشة منعته إلا من الخطو الحثيث نحو الغناء المتصاعد بنعومة موحياً بأنه نبع الحياة.

في عمق المكان كانت ثمة شموع قليلة، مهترزة الإضاءة، كسرت العتمة إلى حين. وفي صدره أبصرت مروج طيفاً، ميزته بصعوبة عن غيمة من ضباب كثيف كادت تخفيه.

شمّلها حضوره بظمأنينة غير متوقعة، اقتربت من مجلسه، وحيّته بانحناءة مترددة. مسح يده على شعرها ومسّ وجنتيها وشفتيها بسبابته. سمعته يقول إنها نسخة من أمها. رغبت في سؤاله عنها، وعن سبب تردها الدائم، قبل رحيلها، عليه. ابتلعت سؤالها وانتظرت ما سيحدث عليها به.

«تتمين إلى هنا!» قال لها قبل أن يغرق في صمت طال لبرهة. انقشع الضباب باقترابها لتبصر تحنّاً منحوتاً من الصخر يجلس إليه الطيف الشبيه بالأطياف المتجولة بالخارج. أفسح لها مكاناً، فانضمت إليه صامته، تنظر إلى جدران الكهف تتراقص فوقها ظلال مرتجفة لضوء الشموع. راح يدقق في ملامحها بعطف، ثم قال: «تأخرت كثيراً. أنتظر منذ وفاة والدتك. كنت واثقاً من أنك سوف تأتين». لم تعرف كيف ترد. واصلت مراقبتها للظلال الراقصة.

صحبها في جولة داخل ممرات ودهاليز تقود إلى عوالم أخرى. حكى لها عمّا لن تجده في مخطوطات جدها من أسرار ومعارف، أطلعها على المزيد من التأثيرات العجيبة للأعشاب والنباتات، وعلمها ما لم تستطع أمها تعليمها إياه من حيل السحر وخباياه.

أصبحت زيارتها السرية للكهف طقساً أسبوعياً ليس بمقدورها التخلي عنه. كان الطيف معبراً يقودها إلى أمها، ويعرفها عليها. ومع الوقت أصبح وسيلتها للتعرف على المخفي من تاريخ قاف والخطر المحدق به، وفي النهاية بات دليلها للتوغل داخل سرائرها ورغباتها.

في المقابل كانت هي عينه على العالم الخارجي. حكّت له عن الأميرة ووصيفاتها، ثم عن بلوقيا عندما ظهر، عن حديقة المتاهة النباتية وبحيرة اللجين. كان ينصت باهتمام من غير أن يخبرها أنه طاف بهذه الأماكن

كلها من قبل، حلَّق فوق قاف ويعرف مداخله ومخارجه، وسافر منه إلى جبال السحاب، والماس، والمغناطيس، قبل أن ينطوي على نفسه في كهفه بأرض الجنيات.

كان هو من شرح لها نبوءة جدها عن القدر المشؤم لقاف، حدثها عن الزلزلة المتوقعة وتلاشي الجبل، واختفاء العنقاء، وغياب زمردة لقرون وتحريف حكايتها. كان شحيحًا في مدها بالمعلومات، يختار الغموض بدلًا من الوضوح، والتلميح بدلًا من التصريح. سقاها نبوءاته مذابة في شراب الإبهام، مُسَيِّجة بضباب قاتم كالذي كان يغلفه أول مرة رأته فيها، كانت على هيئة أحجيات ملغزة عليها أن تجتهد لفك شفراتها، والخروج منها بنتائج فيها من الشك والسؤال أكثر مما فيها من اليقين والجواب.

كان قد مرّ على هجرها لزوجها قرابة ثلاثة أعوام، حين ارتمت تمامًا في أحضان الطيف. بدا لها أن هذا هو السبيل الوحيدة للتوحد به بعد زيارات أسبوعية امتدت لسنوات. وكان هو يترقّب هذه اللحظة متيقنًا من قدومها. لم يستعجلها، ولم يرقب بما يحدث عليها، فقط انتظر بين ظلال كهفه المتراقصة أن تسقط التفاحة في حجره من تلقاء نفسها.

يومها تسللت مروح إلى الكهف كعادتها، مستسلمة للروائح التي تعبق في الأجواء، والهسيس المنبعث من الداخل، حتى بدأت تقترب من مكان الطيف. شعرت بالرغبة نفسها في التخفف مما عليها من أردية، غير أنها خرجت برغبتها من حيز التمني إلى الفعل.

خلعت ثيابها وخطت عارية، ودّت لو تتخلص من جلدها نفسه، وتتحول إلى كائن طيفي شبيه بأطياف أرض الجنيات. كان يتابعها بلا تعبيرات تستشف منها ما يفكر فيه. حُيِّل لها أنه تنازل عن طيفيته واكتسب جسدًا آدميًا. ببطء شديد، وعلى أطراف أصابعها اقتربت أكثر من التخت

حيث يتربع. التحم الجسدان كأنما ينتظران هذه اللحظة منذ بداية الخلق. للتحفة، وقبل أن تغرق في النشوة، خطر زوجها بالها، وتساءلت عمًا يكون قد حدث له.



## الفتاة التي أضاعت خاتم الزمرد

لم تكن الكتابة يوماً قنطرة وصل، بل خنجر قطع، غير أن رومانسيتنا هي ما أوهمتنا بالعكس.

في غرفة مكثبي، جلست هدير تسوّد حكايات شعبية جُمعت بأصوات رواتها الأصليين. كانت قد أفرغت الأشرطة المسجلة، وجاءت هنا لتعيد كتابتها وتنظيمها. استأذنتها، وذهبتُ لأحظى بقبيلوتي المقدسة. طلبتُ منها أن تتصرّف كما لو كانت في بيتها. وبالفعل أعدتُ لنفسها كوباً من الشاي بالحليب، وعادت لمواصلة عملها. بعد ما يقرب من ساعة، شعرتُ بالتعب، فقررتُ أن ترتاح قليلاً.

جلستُ في الشرفة محاولةً تصفية ذهنها، ثم عادت إلى أوراقها مجدداً. خطر ببالها أن تتصفح محتويات المكتبة. مررت أصابعها على عناوين: «منطق الطير» لفريد الدين العطار، «الفتوحات المكية» لابن عربي، «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» للعمري، «خريدة العجائب في فريدة الغرائب» لابن الوردي، وعناوين أخرى لم تسمع بها من قبل. انتبهت إلى أن كل رف به صف ثانٍ يختبئ وراء الأول. دفعها الفضول لاستعراض الكتب المخبوءة، حتى خطف بصرها عنوان جاذب: «حكاية الفتاة التي أضاعت خاتم الزمرد»!

سألت نفسها: فتاة أضاعت خاتمًا من الزمرد؟ ذكّر لها هذا بحادثة طفولتها، ما دفعها لالتقاط المجلد بلهفة. فتحتة فاكتشفت أنه مسودة مكتوبة بخط معتنى بجماله. تمددت فوق الكنبه السوداء تلتهم السطور. تحت عنوان «الميلاد» قرأت:

«وُلدت هدير وهي تعرف ما عليها فعلة في هذه الحياة، بل وكيف تفعله أيضًا.

رقدت أمها نادية متألمة في فراش محايد بمستشفى الولادة، ثم عدلت نفسها على مضض، وهي تتسلم وليدها من الممرضة البدينة. أزعجها أن تتوء بطنها لم يخف تمامًا بعد الولادة، كانت تتخيل أنها ما إن تضع حملها، سيعود بطنها مسطحًا ومشدودًا كسابق عهدها به قبل الحمل، إلا أنها عرفت الآن أن هذا يحتاج لبذل الجهد.

شعرت بألم بين ساقها، تجاهلته وتأمّلت وليدها المغمضة العينين، وخصلة الشعر السوداء في مقدمة رأسها. بدت تلك الخصلة الوحيدة، والملتصقة بالرأس المغطى بالقشور الداكنة مضحكة، غير أن نادية لا تضحك على مثل هذه الأمور. تجاهلت الوجع في مفاصلها وتأثير المسكن الآخذ في التلاشي، وعادت تتفحص صغيرتها كما تفعل ربة منزل مع أرنب ستشتره لطهوه مع وجبة ملوخية وأرز. قطبت جبينها وضيقت عينيها، قبل أن تقول لزوجها الواقف بجوار السرير: «شبهك أنت!».

قالتها بالطريقة نفسها التي تخاطبه بها حين ترغب في لومه على خطأ ارتكبه. هز رأسه مبتسمًا، ولم يدر ماذا يقول فاكتفى بعبارة «حمد الله على سلامتك».

«قربّتها من صدرك» قالت الممرضة البدينة قبل أن تضيف «حطي



الحلمة في بُقها عشان تعلميها إزاي ترضع، وإلا هيتجمد اللبن في صدرك، وتقلب الحلمات». لم تعرف نادية ماذا عليها أن تفعل. نظرت إلى كمال، تستنجد به، فهز رأسه مشجعاً إياها على تنفيذ ما طلبته منها الممرضة. أخرجت ثديها الأيسر، وقربت هدير منه، فإذا بها تمد رأسها، وهي مغمضة العينين لا تزال، نحو الثدي. كانت كأنما تبحث عنه وتعرف بوجوده. شعرت نادية بحرقان في حلمتها وكادت تبعد الرضاعة عنها، إلا أن تشبث الأخيرة بالصدر كان أقوى، مصّت لدقائق، ثم انخرطت في البكاء. لم يكن هناك لبن بعد، إنما ذلك السرسوب الأولي الشفاف. أخذتها الممرضة بعيداً، حين لاحظت أن نادية لا تعرف حتى كيف تحملها على الوجه الصحيح. وجهت الحديث إلى الأب «لبن الصدر مش هيبدا ينزل بجذ غير في اليوم الثاني، مؤقتاً لما تجوع هترضع من السرسوب القليل في الصدر عشان تسرع نزول اللبن، زائد شوية جلوكوز من البرونة». هز رأسه متفهماً. هدهدت الممرضة هدير حتى نامت، ثم وضعتها في سريرها الصغير بجوار سرير الأم وغادرت.

حين راح تأثير المسكن، بدأت نادية في النحيب. كانت تشعر بألم لا قبل لها به ويصعب تحمّله. تذكّرت وجع الولادة الذي بدأ معها منذ الأمس، وظل يتصاعد حتى لحظة دخولها حجرة العمليات في الواحدة صباحاً. جاءها الطلق متسارعاً، لدرجة دفعت الطبيب للدهشة، «مش بيكون قوي وسريع كده مع الطفل الأول، بنضطر كتير لتسريعه بالحقن». لم تسمع كلماته بوضوح، كانت تصرخ كي يخدرها.

قال ببرود: «هتولدي بشكل طبيعي وبسهولة. فتحة الرحم مناسبة، ووضع الجنين كويس، و...». بدا كأنما سيظل يتكلم إلى الأبد فقالت من بين تأوهات «اتفقنا الولادة تكون من غير ألم. أرجوك خدرني فوراً».

«مش قبل خروج راس الجنين» رد بحزم. وكان هذا آخر ما سمعته منه.  
حين أفاقت وجدته لا يزال في الحجرة ومعه مساعده، كانت أول  
جملة نطقت بها هي: «الساعة كام؟»، سألها ضاحكًا: «ليه وراك ميعاد؟».   
أرادت معرفة توقيت ولادة طفلتها، غير أنها صمتت أمام ضحكاته  
المجلجلة.

في النهاية أجب: «الساعة اتنين صباحًا. تعرفي إنك عندك قدرة رهيبة  
على تحمل الألم». ودّت لو تسأله كيف يقول هذا رغم أنها صدّعت رأسه  
بصراخها وتأوهات، غير أن جسمها المتكسر منعها. وضعت يدها على  
بطنها كي تتأكد من أنها ولدت ابنتها بالفعل.

نُقلت بعد قليل إلى غرفة هادئة، وجدت كمال ينتظرها فيها. بدّل  
الطبيب ملابسه ومرّ لزيارتها قبل العودة لبيته. بدا مختلفًا قليلًا بسر واليه  
الجينز وقميصه الأبيض المقلم بالأزرق، كان لا يزال محتفظًا بهدوئه  
الشديد، لكنه أصبح أكثر ودًا. اقترب منها، وضع يده على بطنها، دعكها  
وضغط عليها بقوة كي يسهّل نزول بقايا الدم من رحمها. طلب منها أن  
تنام عليها بهدوء كي لا ينقلب الرحم. فحص هدير، وخرج بعد تبادل  
حوار خافت مع كمال.

غادرت نادية المستشفى مع طفلتها وزوجها عصرًا. قاد كمال السيارة  
مرهقًا بعد سهره طوال الليل، ثم سعيه لإنهاء أوراق المستشفى وتسجيل  
هدير واستخراج شهادة ميلادها في الصباح. كان الجو بالغ الحرارة،  
تركوا المهندسين - حيث تقع المستشفى - خلفهم، متجهين إلى شارع  
السودان المزدهم، لاحظت نادية ثمار المانجو بأنواعها المختلفة فوق  
عربات بيع الفاكهة على امتداد شارع السودان. تحب اللون الأصفر  
المتوهج للمانجو السكري، وسعدت حين رأتها تملأ الشوارع لأول

مرة، ذاك العام في اليوم الأول لابتها في الحياة. ركن كمال السيارة أمام شقتهم في الهرم وحمل حقيبة ملابس المستشفى، فيما حملت هي الصغيرة ملفوفة في غطاء أبيض. بمجرد خروجها من السيارة، خافت عليها من لفح حر يوليو.

أسرعت نحو المصعد ولحق بها زوجها. دخلت الشقة، وأرقدت هدير في مهدها. أخرجت ملابس المستشفى من الحقيبة. تجنبت النظر إلى بقع الدم عليها، وضعتها كلها في الغسالة، وأدارت زر التشغيل. تحت «الدوش»، استسلمت للماء تمامًا كأنما سيزيل ديب الوجع من جسدها. ارتدت ملابس قطنية نظيفة، جففت شعرها بالفوطة، لمتة بيدها لأعلى، ثم تركته منسدلاً من جديد دون تمشيطة، وذهبت للنوم.

فكرت في أنها قد لا تستيقظ أبداً من فرط إرهاقها وشوقها للراحة، غير أنها أفاقت بعد ساعتين فقط، لتجد كمال جالساً على أرضية الغرفة متأماً هدير النائمة في فراشها كملاك. كانت تنام بطريقته نفسها، ممددة على ظهرها، وقد رفعت ركبته اليسرى، فيما يدها اليمنى فوق جبهتها». وضعت هدير المخطوط بجوارها حائرة، نظرت إلى غلافه فوجدت اسمي مكتوباً عليه باعتباري مؤلفته. لم تدر كيف عرفت هذه التفاصيل عن ميلادها، وعن أمها وأبيها. ثمة أحداث مكتوبة لا تعرف هل وقعت بالفعل أم لا، لكن هناك أشياء أخرى حكتها لها أمها، مثل سؤالها عن الساعة لحظة أفاقت من المخدر، وعربات الفاكهة المحملة بالمانجو الأصفر المتوهج في الطريق إلى البيت.

التقطت المخطوط مرة أخرى، وبدأت تقرأ في فصل جديد عنوانه «خاتم زمرد»:

«كان خاتماً من الزمرد!».

هذا ما ستعرفه هدير فيما بعد. بالأحرى، كان خاتماً من الذهب يزينه فص رائع من الزمرد الذبابي. وقتذاك، وهي طفلة في السادسة، لم تعرف سوى أنه أجمل ما رأت، خاصة حين يكون في البنصر الرشيق لأمها الحريصة على التَّحَلِّي به دائماً. على عكس تعاملها مع حليها الأخرى المتروكة هنا وهناك، كانت تضع خاتم الزمرد، حين تخلعه، في «الشكمجية»، حتى لو كانت ستعود لارتدائه بعد دقائق.

يومها كانت هدير مع نادية في زيارة لبيت عائلتها في الريف. خلعت نادية الخاتم ووضعت في درج التسريحة، وخرجت للجلوس مع أبيها في الشرفة، فأخذت ابنتها الخاتم للعب به في الحديقة. أطبقت عليه كفها الصغيرة، ونزلت سلالم البيت نحو الركن النائي المزروع بأشجار البرقوق. جلست بهدوء فوق قش الأرز المكوّم بين الأشجار بحيث لا يراه من يجلسون في الشرفة، أو من يمرون بمدخل الحديقة. تأملت فص الزمرد بشغف وهو يتألق تحت أشعة شمس الصباح. وضعته في بنصر يدها اليمنى فسقط على حجرها بمجرد أن حركت يدها. أمسكته من جديد. ركزت بصرها عليه. تماهت مع لونه للحظات وودّت لو يتسع الفص ويتمدد ليغطي الفضاء أمام عينيها فلا تبصر غيره.

انزلق الخاتم منها فجأة إلى كومة القش، لمحت اللون الأخضر المتوهج بين القش، فقامت مسرعة لالتقاطه، لكنها في نهضتها دفعته للاختفاء. أزاحت - عيثاً - بعضاً من قش الأرز الموجود على السطح. قضت قرابة الساعة تقلّب في الكومة دونما جدوى. كانت تبكي بكاءً صامتاً، وهي تتخيل رد فعل أمها، حين تكتشف اختفاء خاتمها المفضل. في النهاية، قررت الهرب. تسللت خارج الحديقة، وسارت وحدها في الطريق الموصل للبيوت والحقول المجاورة.

بفستانٍ زهري قصير بحمّالات رفيعة وورود بيضاء ولبنية اللون. سارت وحدها، متحاشية مواجهة نظرات فضولية تتابعها. كانت تلك أول مرة تمشي فيها في بلدة أمها. خلال ست سنوات هي كل عمرها حتى تلك اللحظة، كانت قد زارت بيت جدها أقل من عشر مرات، لم يُسمَح لها من قبل أن تتجاوز بوابته، المرات القليلة التي تنزهت فيها في المَزَارِع القريبة كانت على كتف جدها يحملها عاليًا كي تطول أغصان الأشجار الزاهية الخضرة.

وعلى الرغم من عدم ابتعادها إلا لمائتي متر تقريبًا، شعرت هدير أنها تائهة في عالم بالغ الضخامة. ظنّت أنها لن ترى أمها ثانيةً، وستفتقد اللعب بألعابها المتروكة في شقتهم بالقاهرة، وأن أباه قد يتوقف عن حبها إذا عرف ما فعلته. لم ترغب في مواصلة السير، جلست في ظل شجرة كافور خلف بيت قريب لساعتين، حتى وصل جدها لها بعد أن انتبه لغيابها، وراح يبحث عنها. في البيت وجدت أمها تبكي بحرقه. احتضنتها وأمطرتها بالقبّل.

لم يأت أحد على ذكر الخاتم أمامها، وخافت أن تسأل. اكتشفت نادية ضياعه في المساء، وطبعًا ابتلعت هدير لسانها، كما لم تشك نادية للحظة أن لابتها علاقة بالأمر.

هذا تقريبًا ما حدث ولم تحكه هدير لأمها. لم تعترف لها أبدًا أنها من أضاع الخاتم. «ما حكاية بستان البحر؟ وكيف عرفت كل هذا؟». سألت هدير نفسها، وقد بلغ توترها أقصاه. تجاوزت بضعة فصول وفتحت عشوائيًا على صفحة في المنتصف تقريبًا، وجدت مقطعًا مرويًا على لسانها في اليوم التالي على انتقال أمها إلى كندا:

«سافرت أمي أمس، كنت أفكر في كتابة «ماتت أمي أمس». إلا أن

قلبي لم يطاوعني. رحيلها موت مؤقت لها في نظري. لا أعرف هل ستها تفني أسبوعياً كما وعدتني أم لا؟ وهل سألحق بها بعد سنة بالفعل؟ لا أشعر بحماسة كبيرة للهجرة إلى كندا، العيش مع أمي الجميلة وزوجها المتأق لا يناسبني. أو من بأن مشكلتي بداخلي، سأحملها معي كجرثومة تنخر فيّ أينما توجهت. أفضل أن أتأبط جرثومتي إلى حيث لا يعرفني أحد ولا أعرف أحداً، إلى ستوكهولم، مدينة أحلامي الباردة.

ما أرغب فيه حقاً هو نسيان أمي ولو مؤقتاً. أتذكرها، فأتلاشى. كانت تسير بجواري فأختفي، أصبح غير مرئية. يقف المارة في الشارع ابتهاً لمروها. تنطلق عبارات المغازلة وتتبعها أينما اتجهت، بينما تخطو هي منتشية بثقة غير المبالي.

من طفولتي لا أزال أحتفظ بذلك الشعور المدوّخ من الإعجاب بها، والرغبة في أن أكون إياها. لطالما ظننت أن السريكمين في السن، وأني حين أبلغ عمرها نفسه سوف أشبهها. سأكون نادية الجميلة بلامحها المتناسقة وابتسامتها المضيئة، وجسدها الممشوق الشبيه بالجيتار في منحنياته اللينة المرسومة بيد فنان. «هي مسألة وقت لا أكثر»، كنت أقول لنفسي.

لا أنتبه إلى أنفي الطويل أكثر مما يجب، ولا إلى الفك العريض القاسي الذي ورثته عن أبي، ولا إلى عيني الخرزيتين، وشعري المهوّش باستمرار. أجلس في المقعد الخلفي لسيارة أبي، فيما تجلس هي في المقعد الأمامي بجواره. أراقبها من الخلف، منتظرة لحظة الوصول إلى وجهتنا، حيث ستقدم عرضها المحبب لي وهي تخرج من السيارة كأميرة حقيقية.

يركن أبي العربية، ويخرج منها ليفتح لها الباب. تُنزل ساقها أولاً. ساقها الجميلتان المكشوفتان حتى الركبة، تصبحان بؤرة الاهتمام.

يقف من في الشارع متابعين إياها بشغف. ثم تخرج بجسدها كاملاً، وتقف مبتسمة لأبي بينما تنتقل عيناها بينهما وبين الذين يوجّهون نحوها نظراتهم الشغوفة.

بجسدي الصياني النحيل أحتمي بها. تضع يدها على كتفي، وتقودني إلى الداخل، وهي تتبادل حديثاً خافتاً مع أبي. نادراً ما كانت ترد على نظرات المعجبين العابرين. دوماً ساهية عن وجودهم، أو غير مهتمة بهم، كأنها وُلدت لتحتضى بمثل هذا الاهتمام دون مجهود أو حتى امتنان.

تبدو أكثر هدوءاً في بيت غمرته بمرايا من كل شكل لتبصر صورتها أينما وُلّت. تتأمل وجهها مبتسمة، وحين تظنني لاهية عنها، تروح تُجرب تعبيرات مختلفة، ترفع حاجبيها متعجبة، تبسم بطرق مختلفة، ترفع شعرها لأعلى، أو تغطي جبهتها به، وتتفحص الخطوط الرفيعة أسفل عينيها، لكنها دوماً، تبدو سعيدة بما تراه، فخورة به.

أتخيلها الآن في تورنتو؛ في بيت مرايا جديد، مع عاشقها المتيم بها. منزل صممته على طريقة الـ«فينج شوي»: مرايا، وأحواض سمك، وشتلات زرع، ولوحات لجبال وشلالات ماء، كي تحقق التناغم الأمثل بينها وبين الكون. تترد الطاقة السلبية وتجذب الإيجابية. هناك، في بيت لا يجمعنا معاً.

لا أعرف كيف انتهت علاقتها بأبي ولا لماذا؟

لم يخبرني أي منهما كيف اعترت البرودة ما بينهما. لاحظت فقط أن زواجهما انتهى بأناقة. بدواً كصديقين فرقتهما السنوات، لكنهما ما زالوا قادرين على إيجاد مشتركات تدفع أحاديثهما قدماً. لم يكن هذا مفهوماً لأعوامي الخمسة عشر، إذ ما دام لم يتحوّل للعداوة، فلماذا لم يحافظا على زواجهما من أجلي على الأقل؟

في غمرة التغييرات الطارئة لم ينتبها لي. ثم ظهرت أخرى عرّفها أبي إليّ. حقدتُ عليه وقتها أكثر من حقد أمي نفسها. لست واثقة أصلاً من أنها غضبت منه ولو قليلاً. بدت كأن ما يحدث في حياته الجديدة لا يعينها، في حين شعرتُ أنه خانني بشكل ما، رغم أنني لم أتيقن أبداً من أنه بدأ علاقته بالأخرى أثناء زواجه بأمي. لم يشرح لي قط. أذكر فقط أنه، أخبرني بعدها باقتضاب، أن والدتي هي من قرر الانفصال، وأنه تفهّم رغبتها، رغم عدم تقديمها لأي مبررات.

لم يستفرض في الحديث ولم أستوضحه طلباً للمزيد. صدقته حين بدأت أنتبه إلى أن معنوياتها باتت أفضل. لم ألحظ عليها ما يمكن ملاحظته على النساء المهجورات. بدت أقوى وأكثر انتعاشاً من أي وقت مضى. استمرت في الابتسام لوجهها في المرايا، والاعتناء بجمالها. خُيل لي أنها صارت أجمل وأصغر.

ثمة يوم كامل كانت تقضيه أسبوعياً في تدليل نفسها. تستيقظ فيه متأخرة، تُجهز إفتاراً سريعاً لي ولها، ترد على كلماتي بالكاد، تشرب قهوتها بهدوء، ثم تدخل للاستحمام. تحرق البخور ذا الرائحة النفاذة. تملأ «البانيو» بالماء الدافئ. تضيف الزيوت العطرية وال«شاور باث». تشغل الموسيقى الكلاسيك، وتظل بالداخل لأكثر من ساعة.

حين أقصد الحمام بعدها أجده محجوباً خلف غيمة من بخار ماء يتكاثر على المرايا والبورسلين. ترتدي ثوباً قطنياً قصيراً وتدهن بشرتها بالكريمات المرطبة، ثم تجلس معي لمشاهدة التلفزيون. آتي على ذكر أبي فترد ببساطة، أو تحكي ضاحكة طرفة عنه. أندش كيف لا تتصرف كالأخريات؟ لماذا لا تحكي عنه بغضب أو حتى ببرود؟ أكاد ألومها، أحس أنها لم تقدره التقدير الكافي، ولم تندم قط على فشل زواجهما.



هذا الجزء تحديداً صعق هدير، شعرت كأنني تسللت إلى لا وعيها وقبضت على مشاعر لا تجرؤ على الاعتراف بها حتى لنفسها، وصغتها بأسلوب لا تقدر هي عليه، خافت مني، وشعرت أنها عارية أمامي. خطر لها أنني أقرأ أفكارها وأسخر منها.

سمعت هدير باب غرفتي يُفْتَح، فأسرعتُ لإعادة المجلد إلى مكانه. خبأته كما كان، وعادت للجلوس إلى المكتب مواصلةً إعادة كتابة الحواديث الشعبية التي فرغتها.

طرقتُ الباب، قبل أن أفتحه. «إيه الاجتهاد ده؟ برافو!»، قلت، فلم ترَ في الجملة إلاّ استهزاء بها. ارتعش قلبها، لم تقو سوى على ابتسامة مفتعلة، وهي تتابعني أجلس إلى الأريكة باسترخاء، ثم تتوقف نظرتي على حيث يقبع «الفتاة التي أضاعت خاتم الزمرد» بالمكتبة متوارياً عن الأعين، قبل أن أستدير لها بابتسامة عريضة لم تفهمها. أرادت أن تسألني بغضب عن هذا اللغز، غير أنها أحجمت. بدوت لها لحظتها كساحرة شريرة خارجة لتوها من حكاية مخيفة. فوجئت بنفسها تقول:

- مش هتعرّفيني ليه بتجمعي الحكايات دي؟

أجبتها بغموض:

- كل شيء في وقته حلو!

أخفت تبرمها، جمعت أوراقها، وغادرت مع وعد بالعودة غداً وقد أنجزت بقية العمل. استحوذ عليها إحساس مُر بالانزعاج، تعرفها إليّ كان هدفه حل لغز ما اختبرته مع كريم في المطعم الجبلي بـ«ثاكا تي كاس»، فإذا بي أزج بها في متاهة محكمة.



## طريق التيه

الكتابة ليست جسرًا نعبه، بل حفرة نقع فيها!

قبل مغادرة بلوقيا إلى جبل المغناطيس مع زمردة، استأذنها في الذهاب لتوديع الراعي الذي أنقذ حياته حين وصل «قاف» فطلبت منه ألا يتأخر عليها. توجه بلوقيا إلى حيث كوخ الراعي لشكره وتوديعه، فلم يجد إلا أرضًا محروقة. كانت النيران قد أتت على الكوخ والحرش بأعشابه ونباتاته. وقف بلوقيا لفترة متشككًا. ظن أنه أخطأ المكان، خطأ هنا وهناك بحثًا عن دليل يثبت أنه في مأواه السابق، فلم يجد.

ابتعد بينما تغص ذاكرته بمشهد رجلين يتسامران حول النار في ليلة بدرها كامل التآلق؛ رجلين تمدد أحدهما على ظهره متأملًا «الشعرى اليمانية» يتوسط السماء، قبل أن يغمض عينيه على حلم قديم؛ على ذكرى امرأة لم يفهمها قط.

ظل المشهد يطارد بلوقيا حتى وصل إلى جبل المغناطيس، بصحبة ابنة ياقوت. هناك، أحس بأنه في مكان آخر لم يره من قبل. أرجع السبب لبلوغه الطود الأسود عبر السماء، على العكس من المرة السابقة حين رتمه الأمواج هو والربان على صخرة في سفح الجبل، وجاهدًا معًا لارتقاء درّجه مهدودي الجسد يكادان أن يفقدا وعيهما.

على الرغم من بعد المسافة بين المغناطيس وقاف لدرجة يبدو ان معها كما لو كانا في عالمين مختلفين، قطعت العنقاء الرحلة في لمح البصر. لم يكن ثمة شبه بينها وبين رحلته إلى قاف معلقاً في مخالبا طائر الرخ. نظر من أعلى إلى منحدرات الجبل، وتأمل ما يبين له من صدوعه وصخوره شديدة الدكنة، ثم رنا للأميرة فوجدها مبهورة الأنفاس بما ترى. استعاد ذكرى لحظاته الصعبة داخل الصدع العميق، فاقشعر بدنه، أمدته وجود زمردة إلى جانبه بطمأنينة أبعدت عنه طيف الذكريات السيئة، سحب يدها في طريقهما إلى مقر إيليا، سعيداً بانطلاقها وتحررها من كل ما يقيدها.

حذرهما من التحديق المباشر في مغناطيس الأجساد، وأعاد حكي ما فعله بربان السفينة التي نقلته من مدينته البعيدة، فأخبرته أن والدها حصنها ضد لعنة الأحجار الفضية ما إن اختفت أمها. رمقها بعدم فهم، فشرحت: انشقت الأرض وابتلعت أمي وأنا في الخامسة عشر، قبلها مباشرة كانت كأنما لا تعيش معنا، دائماً ساهمة وتتكلم بالكاد. ظننتُ أن موجة حنين لمدينتها ضربتها ودفعتها للاختلاء بنفسها في غرفتها بالأيام، لكنها تلاشت بلا أثر خلفها. كدت أجن، وفعل أبي المستحيل كي يعيدها، ثم استسلم فجأة وارتنن للحزن. هرب من أسئلتي وإلحاحي عليه كي يخبرني بما يعرفه.

كانت الوصيفات يتها مسن بضياع ملكتهن في ظلمات هذا الطود المحاط بالخرافات، أخبرت الوصيفة الأولى أبي أن أمي رأته حجر الجنون الفضي في مناماتها، ووقعت في براثن سحره الأسود وغادرت قاف - بمساعدة ملكة الحيّات - بحثاً عنه. لم يصدقها لإيمانه بأن الحيّة الحارسة، كما يطلق عليها بتبجيل، لا تسمح لمخلوق بمغادرة قاف مهما

حدث، وأنه هو والطيور والجان لا يفعلون هذا إلا عبر السماء لعدم سيطرة الحية عليها. رغم تشككه في هذه الرواية، حرص على تحصيني ضد لعنة مغناطيس الأجساد بتعويذة تبطل أثره، وحين سألته لماذا يفعل هذا، لم يرد. كان الجميع يتواطأ لإخفاء كل ما يخص رحيل أمي عني، لكنني كنت أجيد التقاط الهمسات واستنطاق الصمت.

لم تنتظر رده على كلامها، وأردفت ساخرة: «الخلاصة أنه عليك أنت الحذر!»

لم تطلعه على أن معلمها درّس لها كل صغيرة وكبيرة عن جبل المغناطيس باستثناء دور مغناطيس الأجساد في القضاء على ملكة الحيات، إما لأنه يجهله، أو لأنه خاف مما قد تفعله بهذه المعرفة.

سار بلوقيا بجوارها، مرّكراً بصره على نقطة محددة أمام عينيه، محاذراً التحديق في الصخور الفضية، أما هي فأمعنت النظر في كل ما يقابلها. شعرت أن خيال أمها يرافقها، يحنو عليها ويحتضنها، سألت نفسها إن كانت مرّت بهذه البقعة قبلها، وهل لا تزال حية؟ تعرف زمردة أن أجوبة كثيرة مخبأة لدى ملكة الحيات، تمنّت لو تنجح في إسالة حدقتيها فقط من دون أن تضطر لقتلها، خطر لها أن حيّة عمياء لن يكون بمقدورها الاستمرار في عزل قاف عن العالم وتحويله إلى سجن من زمرد ثمين، كما أنها - تجنباً للموت - ستبوح بما تعرفه عن مصير الملكة نورسين.

استفاقت من خوابها، وندمت لأنها لم تحضّر مراتها معها، منذ أن صنعها بلوقيا لها، باتت تدمن مطالعة وجهها فيها ليل نهار.

مدّت خطاها كي تلحق ببلوقيا، لاحظت حيرته وانشغاله، بدا لها تائهاً كأنما لم يطأ المكان من قبل، كان ضائعاً بالفعل، وعاجزاً عن الوصول إلى مقر إيليا. جال بخاطره أن صديقه قد يكون غادر إلى كوخه القديم في

الغابة على أطراف مدينته، غير أنه سرعان ما نفّض الفكرة عن رأسه بدافع التمني أكثر منه بدافع اليقين.

تخبط مع زمردة بين الشّعاب والدروب، قطعاً آلاف الخطوات صعوداً وهبوطاً، جلسا ليرتاحا لبعض الوقت قبل أن يعاودا البحث من جديد، خيّم الليل فجأة مسلماً الكون إلى عتمة شاملة. في جبل الزمرد ألفت الأميرة ليلاً يتسحب رويداً كلون خجول يلقي، على مهل، بظلاله على لون آخر، أما هنا ففوجئت بليل قاسٍ عجول بلا قمر يخفف من ظلمته أو نجوم تُرُقش سماءه.

جلستُ ممددة ساقيهما ومستندة بظهرها إلى صخرة ضخمة، أحست ببرودة الجو تتضاعف، حضر بلوقيا فقط عبر صوت تنفسه وحركات خفيفة تصدر عنه بين برهة وأخرى. حدست أنه لا بد نادم على مصاحبته، ثم خطر لها أنه ليس كذلك، فالندم يتطلب أن يُتاح للمرء بدايةً خيار القبول أو الرفض. كي يندم أحدهم عليه أو لآ أن يكون حر الإرادة في توريث نفسه فيما يكتشف خطأه لاحقاً، وبلوقيا لم يملك القدرة على الاعتراض. هل جاء معها مرغماً؟ سألت نفسها، وأجبت بأن هذا أيضاً احتمال غير وارد. تكاد تثق من أنه سعيد باصطفائها له كي يصاحبها في رحلتها هذه. لمحتُ هذا أكثر من مرّة في عينيه وفي حديثه - غير المنطوق - إليها.

لم تعرف سبباً لإيغاله المفاجئ في الصمت، ومع هذا شعرت بأنه صمت مشحون بتوتر تغص به المسافة الضئيلة بينهما، سكوت موشى بكلمات لم يُتَح لهما أن يتبادلاها، وبرغبات تكثّفها الظلمة والسكون. مدّت يدها تبحث عن يده، ضغطت عليها علّها تستمد منها الدفء، ففرد ذراعه في المسافة بينهما وجذبها نحوه كي تستريح في رقدتها بجواره. أخذت تقلّب في رأسها احتمالات نجاتهما من عدمها. طمأنتها فكرة

وجود العنقاء بصحبتهما، وقررت أن يعودا إلى حيث تركاها ما إن تشرق الشمس من أجل الرجوع لـ«قاف».

بدأ لها جبل المغناطيس مخيفاً بظلامه هذا، وسكونه التام. اقتربت أكثر من الراقد قربها ودفنت رأسها في صدره، ضمها إليه دون التخلي عن صمته، فأملها بقوة أبعدت عنها أشباح الرهبة. أغمضت عينيها وراحت في النوم. لم تنتبه إلى ما اعتراه من رجفة. قضى ليلته برفقة الأرق، مجترًا أحداث حياته، ومغالباً رغبتة في النائمة بين أحضانه، ساهيةً عمّا به.

استيقظت زمردة قبل شروق الشمس بقليل، اعتدلت في جلستها، وهي تحاول تحديد موقعها من العالم: أين هي؟ وماذا تفعل؟ والأهم هل تغادر فوراً أم تكمل ما بدأته؟ كانت جائعة ومرهقة، وكان ثمة زقزقة لطيور بعيدة، وما يشبه نباحاً متقطعاً، وخرير ماء أذهلها أن أذنيها لم تلتقطاه في هدأة الليل.

لم يكن بلوقيا نائمًا بجانبها، رجع بعد قليل بثمار لم تسد جوعهما. طلبت منه التحرك إلى حيث تركا العنقاء بالأمس، فتاها من جديد في أحشاء الجبل حتى بلغا غايتهما. لم يكن هناك أثر للعنقاء، كأنما تبخرت أو احترقت، وتطاير رمادها متحدًا بذرات الهواء.

ارتعبت الأميرة مما قد يسببه هذا الاختفاء من تبعات. بحثت مع بلوقيا عنها حتى هدهما التعب. أفلقها خاطر أن يقطع أبوها اعتكافه في قصر الياقوت فجأة فيكتشف غيابها هي والعنقاء. لطالما حذرهما من المغادرة على متنها قبل بلوغ الحادية والعشرين، لكنها استسلمت لشططها وعليها أن تدفع الثمن. تمنى فقط ألا يكون الثمن باهظاً تترتب عليه أضرار لـ«قاف». امتلأت بحقد، غير منطقي، على ملكة الحيّات، أقنعت نفسها بأن لعنة الحيّة سبب ما يصادفهما من حظ عاثر.

رمت نفسها على الأرض. جلست ورأسها للأعلى تراقب سماءً لا تعد بشيء، كانت الشمس قد أشرقت منذ مدة، لكنها متوارية خلف غيمة قاتمة. تابعت زمردة طيورًا عملاقة تكاد تحجب الأفق، قبل أن تستغرق في تأمل هاوية تطل عليها الحافة القريبة. أشعرها هذا بضآلتها في مواجهة طبيعة غادرة.

كان بلوقيا منهكًا أكثر منها، غلبه تعب النهار وأرق الليل فكاد يغيب عن الوعي، ظل منكمشًا على نفسه فترة، ثم تمدد على ظهره وغرق في النوم، وعلى شفثيه تيبست ابتسامة لا تناسب ما هما فيه من ضياع.

نهضت زمردة محاذرة إحداث جلبة. سارت في الاتجاه المعاكس للذي سلكاه أمس. تسكعت مدققة في معالم الطريق حتى يسهل عليها الإياب. ارتأت أن الحركة أفضل من الانتظار المستسلم لاستيقاظ رفيقها. هكذا يمكنها أن تجد فاكهة تأكلها، أو جدول مياه تشرب منه، أو ربما تقع عيناها على حجر فضي خاطرت بالمجيء إلى هذا المكان الموحش من أجله.

شعرت بأنها أبعد ما تكون عن نفسها كما تألفها، اكتشفت بداخلها طاقة جديدة، ساورها خاطر أنها نضجت بما يؤهلها لأن تكون ملكة قاف. مع المسير لاحظت أن جغرافيا الجبل تتبدل من حولها، ابتعدت عن المنطقة الصخرية الجرداء - التي لم تبصر غيرها منذ وصلت - وخطت في مناطق أجمل وأكثر خضرة. صادفتها نباتات غريبة عليها، تتسم ببهاء غير مُروّض. انتعشت لمرأى أشجار تُزُرُّ الأفق، فغمرها النشاط رغم إرهاقها، لمحت من بعيد حقلاً ممتدًا يعج بالمئات. أسرع صوبه وهي تهجس بكل الاحتمالات الممكنة.

لَمَّا دنت تيقنت من أن ما تراهي لها لم يكن سرابًا. كان الحقل يغص



بمزارعين منكفيين على نبات قصيرة لقطف ثمار يكوّونها في أكوام على مسافات متساوية بين خطوط الزرع. كانوا منهمكين بحيث لم يرفع أحدهم رأسه ولو لمرة، ينتهون من كومة ويبدأون في تكويم أخرى، ثم يعاودون الانحناء على الشجيرات. أملت أن يرشدوها إلى الأحجار الفضية، غير أنهم ذابوا ما إن داست داخل الحقل. بات فارغاً إلا من ثماره المكوّمة.

التفتت حولها فلم تبصر أثراً للحاصدين. التهمت بضع ثمار وحملت بعضاً منها عائدة إلى حيث تركت بلوقيا نائماً. حكّت له بينما يأكل عمّا رأته. بشرته بوجود أناس على مقربة، وطلبت منه مرافقتها إلى هناك. طاوعها على الرغم من تأكده - عبر جولاته الاستكشافية السابقة مع إيليا - من أن جبل المغناطيس مهجور.

قطعاً الطريق نفسه، ومع هذا لم يقابلا أشجاراً ولا أيّاً من معالم كانت زمردة سجلتها في ذاكرتها. حين وصلا إلى حيث من المفترض أن يجدا الحقل وفيه الحاصدين، فوجئا بقصر باذخ من الرخام الوردي تعلوه قبة فيروزية تخطف النظر، وتحيط به حديقة شاسعة، تفوح منها روائح عطرية أخاذة. تجولا بين الورود والنباتات، مستمتعين بمرأى جداول مياه، ونوافير على هيئة تماثيل لنساء عاريات بأجساد من مرمر ونحاس أصفر. كان بلوقيا مأخوذاً، أما الأميرة فاعتراها الفزع وهي تسأل نفسها كيف انبعث هذا القصر من العدم.

في إحدى قاعاته المؤثثة بأرائك مكسوة بالحرير وبُسط من الفراء، وجدا مائدة عامرة بأفخر أصناف الطعام: خراف مشوية وفراريج محشوة بالفستق وفواكه وحلوى وخمور معتّقة. بدون حذر تسابقا على الأكل من كل الأصناف، وشربا من الخمر حتى كادا يغيبان عن الوعي. بنصف انتباه

استمعا إلى موسيقى تعالت في أرجاء القاعة مصحوبة بغناء لم يفهما كلمة منه. شعر كلاهما بأنه يبحر في عوالم مبهجة جديدة عليه. تحركا بين قاعات القصر وغرفته وعلى لسانيهما مذاق خمر يعجزان عن وصفه، قبل أن يستسلما لفضاء أبيض حملهما بخفة إلى براح الحلم.

استيقظا صباحًا متعانقين في العراء، ولم يكن ثمة أثر لقصر البارحة الباذخ. تبادلوا حكي ما مرابه، بعد التهام الطعام الشهوي، وشرب الخمر الذي كان مذاقه لا يزال حاضرًا، أما القصر نفسه فتلاشى.

أكد بلوقيا أنها في الاتجاه الصحيح إلى حيث إيليا والأحجار الفضية، وإلا لماذا تحوّل الدرب إلى متاهة، تتلاعب بهما وتضللهما عن وجهتهما بتبديل معالمها، وابتكار إجراءات تحيد بهما عن مواصلة سعيهما إلى نهايته. طلب منها أن تتبعه وألاّ تنشغل بأي شيء يخيلهما. تابعا مسيرهما من دون الالتفات حولهما، مرًا بطيور ملونة بألوان قوس قزح، لاحقتهما، فلم يعيراهما اهتمامًا. أبصرا عجوزًا تنتحب تحت شجرة لم يعرفا ما ينافس ثمارها جمالًا، توصلت العجوز إليهما أن يساعدها على النهوض مقابل كل طرح شجرتها، فلم يستجيبا رغم تعاطف زمردة معها.

قرب نهاية الطريق ظهرت فتاة باهرة الحسن متكئة شبه عارية على صخرة بازلتية، اندفع بلوقيا نحوها كأنما سلبته إرادته، لكن زمردة قبضت على كفه وشغلته بسرد سيناريوهات لما يمكنهما فعله حين يعودان إلى جبل قاف. ما إن تجاوزا الفتاة حتى تبخرت، ولحظتها فقط عاد جبل المغناطيس مألوفًا لبلوقيا، استعاد إحساسه باتجاهاته. التفت حوله متأملًا الصخور السوداء والمدرجات الصاعدة والهابطة، وقاد زمردة متجهًا إلى حيث ترك إيليا آخر مرة.

وصلا إلى أجمة الأشجار القريبة من جدول الماء. كان إيليا قد بنى كوخاً لنفسه وجلس أمامه يشوي غزالاً اصطاده في الصباح. تهلل وجهه حين رأى بلوقيا. احتضنه بلهفة، وسلّم على زمردة بتحفظ. قادهما إلى داخل الكوخ، وغاب بالخارج لبرهة ثم ارتدّ بالغزال المشوي. أكل ثلاثتهم بنهم بينما يسرد بلوقيا لصديقه ما مرّ به منذ أن تركه ذات صباح، راقبت زمردة السحنة المتجهّمة لإيليا المنصت دونما تأثر، بدا لها كشخص واجه أهواً حصّنته ضد الدهشة.

قال في النهاية: جئتُما من أجل مغناطيس الأجساد؟ سأمنحكما بعضه بعد تغطيته كي لا تقعا تحت تأثيره.

ردّت زمردة بتفاخر: أنا محمية منه بتعويذة من أبي ملك الجبال والأحجار الكريمة.

اصطحبها إيليا معه، فيما خرج بلوقيا للتجول في الجوار. عندما عاد وجد زمردة جالسة في الكوخ تنصت مبهورة الأنفاس إلى حكاية إيليا منذ ارتحل بحثاً عن الليل، حتى استقرت به الحال فوق قمة جبل المغناطيس. أثار كلامه عن مسوداته فضولها، فرّجته أن يطلعها عليها. أشار إلى الركن حيث تلة صغيرة من رقوق وجلود لم تكن زمردة لاحظتها. انغمست فيها تاركةً المجال للرجلين لمسامرة ممتدة أمام الكوخ.

في مسودة حديثة قرأت:

«الآن فقط، أفهم مغزى وجودي. أو من بأني ما وُلِدْتُ إلا من أجلها، وما خاطرت بحياتي على دروب وعرة سوى من أجل لحظات مختلصة تتراءى لي فيها. أربيعينية فاتنة، ذات سمت ملكي، تخطو كطيف بين شعاب الجبل، تبتسم للفراغ أمامها، وتربت على الأحجار الفضية وهي تتفحصها بشغف. مثلما تظهر فجأة تختفي بلا مقدمات. تعقبها مرّة

فأخذتني إلى طريق تتغير معالمه باستمرار، تنبعث فيه قصور وأشجار  
وحقول سرعان ما تزول كسراب. وحدها المرأة تحافظ على حضورها  
وخطوها الرشيق.

أشعر بطيفها يرافقني حتى في الأحلام، أغفو فأفاجأ بأني بصحبتها،  
جالسًا أتابع مراحل مختلفة من حياتها. أراها طفلة في مدينة تقع فوق  
جرف يمتد بين جبال زاهية الخضرة، وبحر تتلاطم أمواجه بصخب، ثم  
صبية، ثم ملكة واثقة على عرش من زمرد مُطعم بالياقوت، ثم وهي تحمل  
رضيعة بينما ترنو للبعيد بأسى. امتلكت قلبي، وربطني بجبل المغناطيس  
بحيث لم أعد أتخيل مستقرًا سواه. يداخني يقين بأنها تكن لي المشاعر  
نفسها، المرّات القليلة التي التقت عيوننا فيها أسرت لي بوعود خلاصة  
ثمنها حياتي».

في الصباح، انفردت زمردة به في الكوخ وسألته عن المرأة المكتوب  
عنها في مخطوطه، فصمم على أنها متخيلة ولا وجود لها في الواقع،  
وعندما ألحت عليه أقسم أن ما تبقى، من امرأة أحلامه، مجرد طيف  
يؤنس وحدته. شرد مقلّبًا بصره بين الصخور المجاورة، ثم أعطى زمردة  
حجرين فضيين ملفوفين بعناية، وخرج. بعد قليل غادرت بصحبة بلوقيا،  
حمل هو الحجرين الملفوفين بعناية، فيما دسّت هي بين طيات ملابسها  
بضعة رقوق مختلصة.

عادا في طريق التيه ذاته. تجاهلا كل ما قابلهما من مغريات. هذه المرّة  
فاجأهما الطريق ببساتين كروم من فضة وذهب، وجداول مياه رقراقة بلون  
أرجواني زاهٍ، وبحيرات من خمر تفوح رائحتها. لم يلتفتا، استمرا في  
سيرهما بهدف الوصول إلى حيث هبطت بهما العنقاء قبل يومين، ابتهلا  
كي تعود لحملهما. محل القصر الباذخ الذي قضيا فيه ليلتهما الثانية في

جبل المغناطيس، فوجئا بشق في جسم الجبل يكاد يختفي خلف نباتات متسلقة كثيفة الأوراق، حاولا إسراع الخطى للابتعاد عنه، لكن قوة جذب هائلة انبعثت منه وشدتهما صوبه.

انطلق من داخله غناء استحوذ عليهما، مع الوقت كان الصوت يتضح أكثر ليملأ فضاء مغارة جدرانها سوداء، أسلمهما الشق لها، تبتّغاه إلى العمق مرتبكين، دخلا سرداباً ضيقاً، غفلا فيه عن حقيقة أنهما ابتعدا عن غايتهما في الوصول إلى حيث أنزلتهما العنقاء.

أوصلهما السرداب بدوره إلى قاعة مزدحمة بنساء مخمورات، لم يبد عليهن أنهن لاحظن دخول بلوقيا والأميرة اللذين توقفا للحظات قبل أن يواصلتا التعمق في الداخل. خرجا من القاعة ليدلفا إلى ممر مظلم ابتلعهما، تحسسا طريقهما بصعوبة وكادا يتعثران غير مرة.

في النهاية بان لهما شعاع ضوء أملاً أن يقودهما للخارج. لم يكن من أشعة الشمس كما تخيلا، إنما من مصباح باهر معلق في سقف قاعة جديدة، محيلاً ظلمتها إلى نهار. خلفا وراءهما الممر المظلم وقاعة النساء الهائمات، ليلجا بعد البهو المضاء، آخر جدرانها زمردية، وبه شموع موضوعة في كوى على مسافات متساوية من الحائط. اهتز لهب الشموع مخلّفاً ظلاً متداخلة تراقصت فوق تحت منحوت من الصخور يقبع في صدر المكان.

شعرت زمردة بأنها انتقلت إلى أجواء مغايرة كلياً لأجواء جبل المغناطيس، عززت الجدران الزمردية هذا الشعور لديها، وأمدتها بالألفة، اخترقها مزيج من روائح هجين، جلست فوق التخت الصخري طلباً للراحة. أشارت لبلوقيا أن يحذو حذوها، فوضع الحجرين، الملفوفين بعناية، على الأرض، وجاورها.

تخفت من ملابسها. وصلت يدها إلى الرقوق التي اختلستها من إيليا ولقّتها حول وسطها، وضعتها بحرص على الأرض، فيما يتابعها بلوقيا متحفزاً. كانت شبه عارية حين اقترب منها، ولثم فمها بارتباك. أغمضت عينيها، في حين غمر هو وجهها ورقبتها بالقبلات، ثم نزل بشفتيه إلى صدرها. تأوهت بدلال، فغرق بلوقيا أكثر في تضاريس جسدها الذائب بين أصابعه والمؤتمّر بلمساته.

حين تصاعد لهما المتشي معاً في اللحظة نفسها، وأراح رفيقها رأسه على صدرها، اختفت الرائحة الكثيفة، وبقيت الأضواء المهترئة والظلال المتراقصة. رقدا على ظهريهما متجاورين لبعض الوقت: هو يحرق في السقف مجتراً ما اختبره لتوّه، وهي تلاحق الظلال على الجدران الزمردية غير راغبة في النطق بأي كلمة.

في النهاية قاما بتثاقل، ارتدت ملابسها أولاً ثم تبعها هو، وحمل حجريّ الجنون فيما نسيت هي رقوق إيليا. خرجا من باب تكاد تحجبه شجرة ضخمة، ليكتشفا أنهما في جبل الزمرد. انتبها لذلك عندما لمحا صخوراً زمردية في كل مكان حولهما وإن لم يفهما كيف يربط هذا السرداب العجيب بين جبلين تفصل بينهما بحار ومحيطات.

كانت السماء زرقاء والجو صحواً. ثمة حقل شاسع من الصبار امتد في مواجهة باب المغارة، وتشكيلات صخرية من الأحجار الكريمة تناثرت هنا وهناك. ابتعدا دون الالتفات خلفهما. في الداخل كان ثمة طيف ينحني للقبض على رقوق دونها من أفتن يوماً بالبحث عن شيء خارق الجمال يدعى الليل.

\*\*\*

مختفية خلف الشجرة على باب مغارة أرض الجنيات، وقفت مروج تتابع الأميرة وبلوقيا بينما يتعدان.

اصطخبت في عقلها الظنون، وتأرجحت دقات قلبها وغارت بداخلها، شعرت بغصة بينما كانت تنصت إلى لهاتهما وهمسات غرامهما قبل قليل، حمل لها السرداب المعتم، حيث توارت بجوار الطيف، حرارة الجسدين الغائبين في النشوة، فتمنت لو كانت تراهما رأي العين، لا ترهف حواسها لتسول اختلاجات الشوق الصادرة عنهما. اختلطت غصتها بالإثارة والفضول.

غابا عن مجال بصرها مبتعدين، فدخلت لتجد الطيف متربعا فوق تخته الصخري، يقرأ الرقوق المنسية مبهور الأنفاس، غير قادر على رفع عينيه بعيداً عن السطور المكتوبة بعشوائية، جلست بجانبه، تحاول اختلاس النظر. بدت لها الحروف المتشابكة أشبه بطلاسم، واندهشت من قدرته على سبر غورها. تشاغلت بتدوين ما جرى بين بلوقيا وأميرة الجبل، وبوصف المغارة السحرية من الداخل، لم تنتبه قبل اليوم إلى ربطها بين قاف وجبل المغناطيس. بان لها الطيف لأول مرة ككائن كلي القدرة، يخفي أضعاف ما يُظهر. أقلقها هذا، غير أنها سرعان ما نفضت مخاوفها، واحتمت بحروف تخطها.

انتهى الطيف من القراءة، فألحت عليه أن ينقل لها فحوى ما قرأ. بصبر بدأ يسرد محتوى الرقوق، فيما انكبت مروج على تدوين الخطوط العريضة لما يقول، وقد شغفت بالخيال الجامح لمدون هكذا نصوص. في الليل تربعت على أرضية الكهف تكتب، على الضوء المرتعش للشموع، ما حفظته ذاكرتها مما نقله الشيخ عن الرقوق التي نسيتهما الأميرة. غير عابئة بالأصوات والأصداء المترددة بين جنبات أرض الجنيات، استعانت بالخيال وبما سبق ودونته من خطوط عريضة لإعادة خلق حكاية عملاق باحث عن الليل، ومدينة تغيرت أقدارها لتصير أخرى مترددة بين نهار

غادر بلا رجعة وليل يأبى الوصول، حكاية من عاش أيامًا وليالي وشهورًا  
وسنوات يدوّن بلا انقطاع، تفاصيل حقيقية وأخرى مخترعة بينما تهيم  
روحه بين كوخ في غابة على مقربة من بحيرة، وآخر متكشف في وحشة  
جبل المغناطيس.



## رابونزل

تموت كلماتي ما إن أنطق بها، لا تغادرنى،  
تلاحقني أشباحها لمعاقبتي على جرم غامض.

في ماضٍ بعيد، كانت «رابونزل»!

لم يكن ثمة برج عالٍ أو ساحرة شريرة أو أمير وسيم. لم يكن ثمة فجل مسحور أو صوت يسلب العقل، وبالطبع لم يصلح شعرها كحبل يتسلقه حبيب ما إلى محبسها، لكنّ نادية كانت «رابونزل» الجميلة ذات الشعر الطويل وكانت رابونزل إياها.

حتى سن العاشرة امتلكت شعرًا طويلًا يصل إلى أسفل ظهرها، خصلاته بنية ضاربة للشقرة، تسير فتكاد تتعثر فيه، تتابعها أمها بفخر، وترمقها باقي الأمهات بحسد، وتخجل هي من العيون التي تتجاوز وجهها وجسدها متوقفة دائمًا لتأمل شعرها.

اعتادت أمها أن تتعامل مع شعر بناتها كميّار وحيد تقيس به تفوقها على بقية الأمهات، ولسبب ما تحملت نادية وحدها مسؤولية أن تكون دليلًا على مهارة الأم وعلو كعبها. الأولاد في الشارع يقولون إنها جيّة، ورغم هذا يقفون منتظرين أمام بيتها أملًا في رؤيتها حين تقف في الشرفة أو تخرج للحديقة، والبنات ذوات الشعر القصير ينظرن لشعرها بازدراء غيور، وهي رغبت في التخلص من هذا العبء. صرخت وبكت وامتنعت

عن الطعام من أجل التخلص مما ليس في نظرها أكثر من حبال طويلة  
تقيد حركتها.

بعد ثلاثة أيام من الضغط المتوالي رضخت الأم مضطرة لتنفيذ مطلب  
«رابونزل»، ثم امتعضت حين رقصت الأخيرة مبتهجة، لم تمالك نفسها،  
أشاحت بوجهها، وتحسّرت على سوء حظها مع بناتها.

تخلت «رابونزل» عن شعرها فصارت تمتهن التخلي، وتتقن فن  
الخسارة، كان تدريبها المبكر على الهجر، ومع أنها لم تكن أجمل  
بشعرها القصير، لم تندم قط ولم تتأثر بتحسر أمها وأقاربها على جدائلها،  
وقد أصبحت «ألا جارسون»، بسبب نزقها وتصميمها. لم يعاود شعرها  
النمو سريعاً، بل ببطء شديد كأنما ينتقم من صاحبته التي لم تكن مهتمة  
أصلاً. وصل إلى الكتفين بصعوبة بعد ثلاث سنوات من قصه.

تواصل حزن الأم طويلاً كأنها أم لهذا الشعر فقط، ولا يربطها  
بابتها شيء غيره. تعجبت لأنها قامت بكل الطقوس اللازمة كي ينمو  
على نحو أفضل. قصّته والقمر بدرًا، والتقطت الخصلات المقصوفة  
بحرص ووضعتها في كيس، ألقته في النيل مصحوبًا بأمنيات أن يكون  
الشعر الجديد أغزر وأجمل من سابقه. لم تغادر موقعها بجوار شجرة  
الصفصاف، المائلة أغصانها على مياه النهر بحنو كأنها تسجد له، إلا  
بعد التأكد من أن تيار الماء جرف الكيس معه. قامت بالطقس على نحو  
صحيح، لذا لم تفهم لماذا تأخر نمو شعر صغيرتها، استنتجت أن نبتة ورد  
نيل أعاقت جريانه، أو الاحتمال الأسوأ أن تكون إحدى جنيات النهر قد  
أخفته، ساعتها لن يعود كما كان أبدًا.

وحدها نادية فرحت بأن شعرها لم يعد يضايقها، وحرصت فيما بعد  
على ألا يطول عن حدود كتفيها.

لكنّ علاقتها بالتخلي لم تبدأ بقصّه، إنما قبل هذا بأربع سنوات على الأقل. كانت في الخامسة من عمرها تلعب فوق سطح بيتهم بطائرة ورقية ملونة. الهواء يعاثر شعرها فيكاد يخفي وجهها، ويدها الصغيرة تمسك بخيط الطائرة بأقصى قوة ممكنة، النيل وأشجاره والحقول المحيطة به تبين من بعيد وطيور الإوز العراقي البيضاء تكاد تلامس ماءه قبل أن تطير مجدداً، في حين ينقر طائر أبي قردان في تربة حقل مجاور. وهي كانت غافلة عن هذا كله لأن عينيهما كانتا متشبهتين بالطائرة الورقية في رقصتها الصاخبة مع الهواء المشاكس.

سعيدة حد النشوة، ودت لو تطير مع الطائرة إلى ما لا نهاية، لكنها فجأة وبلا مقدمات تركت الخيط يفلت من يدها ووقفت تراقبها تبتعد عنها. لم تحزن ولم تندم، فقط ظلت ساكنة تتابع المشهد كاملاً. بتخليها عن الطائرة انتبهت لجمال منظرها على خلفية النيل بنباتاته وأشجاره، والحقول المحيطة به.

هي رابونزل! هذا ما أنا متأكدة منه. غير أنني لو اخترت لها شخصية أخرى، سأختار «ريميديوس». سأقول لها بتأكيد: «أنت ريميديوس الجميلة». وإذا نظرت إليّ مستفهمة، لن أحدثها عن جارسيا ماركيز، ولا عن جميلته التي طارت إلى السماء. سأكتفي بكلمة واحدة: «كانت إياك!». اعتادت الأم أن تغطي وجه ابنتها وهي رضية بقطعة شيفون شفافة، وحين تضبط أحداً من أطفال العائلة يكشف وجهها ليحملق فيه وهي نائمة، توبّخه، وتطلب منه الابتعاد. رأت ابنتها أجمل من أن تنكشف على الملأ هكذا لأعين الحاسدين والفضوليين. لكن لما كبرت نادية لم يعد من الممكن حجبتها.

كانت تعود باكيةً من المدرسة، وتساءل لماذا يحملق فيها الآخرون؟

فتطلب منها أمها ألا ترد على نظراتهم. لم يخبرها أحد أن جمالها فائق، فكانت كلما دخلت مكاناً، ولاحظت العيون المتجهة إليها، تظن أن ثمة خطأ ما في هيئتها يدعو الآخرين للتحديق فيها. عندما تزور بيت أقارب بعيدين أو إحدى زميلاتهما، تسألها أمها بمجرد عودتها، ماذا قالوا حين رأوك؟ لا تعرف كيف تجيب، ولا ما الذي يجعل رؤيتهم لها أمراً ذا أهمية؟

عندما تنظر الأم لابنتها الأخرى يرتسم شعور بعدم الرضا في عينيها وعلى قسمات وجهها. «ارفعي راسك»، «افردي جسمك»، «ابتسمي»، «شك مش ناقص». تردد الأم لهذه الابنة بلا ملل. لكنها تبتهج حين تبصر نادية. حتى لو لم تعطف عليها، أو تمدح جمالها بكلمة، فعيونها كانت تفعل، وما كان يغيظ الشقيقة ويضاعف من غيرتها في الوقت نفسه أن أختها لم تكن تكثرث بهذا أو حتى تنتبه له. تماماً كعدم اكتراثها فيما بعد حين كان المارة يتركون انشغالاتهم ويقفون متابعين نزولها من سيارة زوجها الأول كمال، أو خطوها الرشيق في الشارع بصحبة ابنتها هدير، إلا أن لا مبالاتها، في الحالة الثانية، كانت بطريقة الواثق من جماله، العارف به لا الغافل عنه.

الآن، في مهجرها البعيد، يخيل لنادية أنها غير مرئية. تتحرك بين الناس كظل تائه. لا أحد يعرفها، ولا تعرف أحداً. تشتاق لابنتها ولحياتها القديمة وتستعيد تفاصيل لطالما ظنتها تسربت إلى عالم النسيان. صارت تخيفها فكرة أن تموت مقطوعة عن جذورها. بدأ هذا الانشغال بمداعبة عابرة سرعان ما تشعبت لتستحوذ على واقعها ككابوس.

«إذا متُّ فلا تدفني في هذه البلاد الباردة». قالت لزوجها بينما تسوي شعرها بيديها أمام المرأة.

قصدت مداعبته، إذ تعرف أنه يمتلك مزاجًا اكتتابيًا، كما لا يحتمل فكرة فقدتها، وجملة مثل هذه ستجعله يقطب جبينه، ويوبخها بعبارة آلية من دون النظر إليها.

رغم مقصدها هذا فإن كلماتها خانتها وارتدت عليها، فلم تبصر فيها سوى مصيرها الآتي بلا ريب، لمحت ابتسامة ماكرة تلمع فوق شفثيه، فبدت لها نذير شؤم، ودلالة على تبدل أقدارها.

لأول مرة تفشل في توقع رد فعله. كانت واثقة من قدرتها على قراءة ما يعتمل بداخله، وتعتمد أن تضعه في مواقف بعينها لمجرد التأكد من عدم قدرته على الخروج عن السيناريوهات التي تتوقعها، إلا أن الرجل المبتسم أمامها بمكر وتشفي وضعها بقسوة أمام عبارتها القبيحة.

لم تشغل قلبًا بالموت، وليست مؤمنة بما يكفي لتهتم بما سيحدث لها بعده، لكنها دون مقدمات وبعد أن اندفعت الكلمات السوداء، التي أرادتها لعبوبًا من فهمها، انتابها خوف طفولي، من إمكانية موتها ودفنها، سواء في مقبرة الحي الأشبه بحديقة عامة، أو في مقبرة عائلتها بقريتهم التي لم ترها في السنوات الأخيرة سوى مرات قليلة. انتبهت لعبثية دفن إنسان في مكان لا علاقة حقيقية تربطه به.

كانت ستخضع لعملية جراحية طارئة، وأرادت التلذذ برؤية خوف زوجها وانزعاجه عليها، ولما لم تر هذا انزعجت هي. ركبت السيارة بجواره في طريقهما إلى المستشفى محاولة إبعاد وساوس المرض عن ذهنها: سيناريوهات متعددة تؤدي كلها إلى نتيجة واحدة، يخبر الطبيب مريضته مرتبًا أنها تواجه مرضًا لا شفاء منه. «أمامك ستة أشهر» هذا ما يردده الأطباء عادة في الأفلام الميلودرامية القديمة، يتغير الممثلون والمخرج والديكور لكن الجملة لا تتغير، ومعها النهاية، حيث تحدث معجزة الشفاء دونما تقديم مبررات مقنعة.

رغم علمها بأن مرضها ليس بهذه الخطورة، تمتّ للحظات أن تختبر مشهداً مماثلاً، فقط كي يشعر زوجها بأنه أخطأ عندما ابتسم بمكر ساخر هكذا.

جلست في الكرسي المجاور له بينما يقود السيارة وهو يدندن بأغنية مرحة، قبل أن يرفع صوت الكاسيت ويصمت تاركاً المجال لـ«بينك فلويد» وأغنيتهم «الجانب المظلم من القمر»، رمقته بغضب كأنه تعمد اختيار أغنية موجّهة ضدها، لتضخيم مخاوفها الوليدة. تشاغلت بالنظر عبر النافذة إلى المدينة، زجاج السيارة كان يحجز البرد القارس في الخارج. وصوت الـ«بينك فلويد» يتعالى من أغنية لأخرى من دون أن يبدد هواجسها.

السيارة المسرعة نقلتها إلى زمنها الماضي، إلى الطفلة ذات الثماني سنوات التي كانت، وصدقت أن نبتة قمح عملاقة سوف تنمو داخل أذنها، وتخرق جذورها طبلة الأذن لتفقدنا سمعها نهائياً.

كانت تلعب في إجازة الصيف فوق كومة القمح في شرفة بيتهم. ترمي نفسها في بحر حبوب القمح وتندرج فوقها. حاولت الوقوف على يديها: رأسها للأسفل، وقدمها للأعلى. اختل توازنها ودُفِن رأسها في كومة القمح الأشبه برمال متحركة. قامت مسرعة تنفض حبات القمح عنها، خاصة ما تسرب لمنها إلى أذنها. تخلصت منها جميعاً باستثناء حبة مشاكسة استقرت في تجويف الأذن اليسرى. خافت أن تبكي أو تصرخ كي لا تعاقبها أمها على شغبها الدائم.

خرجت إلى الحديقة حيث أشجار البرقوق والليمون وتكعيبة العنب. قضت ساعتين في اللعب القلق من غير أن تنسى الحبة المستقرة في أذنها، حين عاد والدها الذي يتواطأ معها ضد الجميع، أخبرته بما حدث.

طلب منها أن ترتدي ملابس الخروج فوراً كي يصطحبها إلى الطبيب. أكد لها أن حبة القمح لو تُرِكت، سيطالها الماء، وسوف تنبت ممتدة أفقياً للخارج. أو قد - وهذا هو الأسوأ - تخترق جلدها وأنسجتها مستطيلة رأسياً بداخلها. أرعبتها الفكرة.

سارت بجواره وهي تغالب دموعها. قالت بميلودرامية إن هذا ربما يكون يومها الأخير، فأمن على كلامها بهزة من رأسه وهو يقاوم الضحك. شعرت بالأسف من أجل حياتها التي بدأت بالكاد وها هي ستنتهي في لمح البصر، فكرت أنها يجب أن تصالح شقيقتها التي خاصمتها لأنها لم توافقها على أن الفأر جيرى أكثر ذكاءً من القط توم. كما عليها أن تخبر أمها أنها من كسر برطمان مربى المشمش لأنها لا تطيق مذاقه.

«بما أنه يومك الأخير، إيه رأيك أعزمك على سباتس وجيلاتي؟»، سألتها أبوها، فنظرت له بلوم ولم ترد. لم تفهم لماذا لا يبدي بعض القلق عليها طالما أكد لها خطورة حالتها. سحبها من يدها إلى «كافيتريا» مجاورة. طلب لها زجاجة سبيرو سباتس كولا، و«آيس كريم» فانيليا، وتابعها مبتسماً.

جلست تغالب توترها، بفستان أحمر قصير مُزَيَّن بالدانتيل الأبيض، وبشعر ملموم للخلف بمحابس صغيرة ملونة على شكل زهور وفراشات وقلوب صغيرة، أزاحت زجاجة سبيرو سباتس جانباً، وبدأت في تناول «الجيلاتي» وهي تتأمل لافتة تحمل اسم الطبيب فوق واجهة المبنى المقابل. بدا أبوها مستمتعاً لدرجة ضايقتها، ومنحازاً لإيقاع بطيء لا يفضُّله عادةً.

يعرف أنها تكره الأطباء، وترتعب من الحقن والأدوية، غير أنها - في لحظتها تلك - كانت تتعجل الذهاب للطبيب، وتكره إصرار أبيها على تأخير هذه الخطوة. ندمت على أنها لم تخبر أمها بما حدث لها.

في النهاية اتجها إلى العيادة. ضحك الطبيب حين علم بقصة حبة القمح، وقرصها من خدها مداعبًا ثم أعطاها شيكولاتة. رفعها لتجلس فوق الكرسي العالي، واقترب منها بأداة لم تتبينها لأنها أغمضت عينها خوفًا وعصّت على شفرتها السفلى. شفت القمححية دون ألم يُذكر. وساعدها على النزول. لم تصدق بساطة الأمر، ولم تسامح أباهَا على سخريته منها.

الآن وبعد هذه السنوات الطويلة، وبينما تتجاهل الأغنيات المنطلقة من كاسيت السيارة، وترنو لناطحات السحاب الأنيقة والمارة المسرعين في الوسط التجاري لمدينة يخترق بردها العظم ويترك آثاره في الروح، راودتها أحاسيس مشابهة لما مرت به قبل الذهاب إلى الطبيب وهي طفلة، عادت صغيرة يقوم زوجها بدور أبيها في إغاضتها ببروده وسخريته، أمالت رأسها جانبًا، وضعت كفها أسفل أذنها، واستغربت عندما لم تسقط منها حبة قمح. التفت إليها زوجها متسائلًا عمّا تفعل، فطلبت منه بما يشبه الرجاء... «ممكن ناكل آيس كريم ونشرب حاجة ساقعة قبل ما نروح للدكتور»!

في تورنتو، حيث المستشفى بالغ النظافة والنظام أخبرها طبيب أشقر بابتسامة جذابة ونظرة ساخرة، أنها تحتاج إلى عملية جراحية صغيرة في الرحم، لا تستدعي كل هذا الخوف البادي عليها. «كفاية سخرية بقي».

خرجت من العملية سالمة، لكن فكرة الموت لم تغادرها، بل عششت داخل جسدها الجميل، ولوّنت رؤيتها للعالم. حاولت طمأنة نفسها، غير أن استعادتها لرد الفعل البسيط وغير المتوقع لزوجها كان يُدخلها في موجة كآبة لم تستطع التخلص منها بسهولة.



استعصى عليه فهم أسباب اكتئابها، بالغ في تدليلها والاهتمام بها، اصطحبها لبيتاع لها هدية تختارها بنفسها. استسلامًا لموجات حنين شرعت تداهمها بلا سابق إنذار، رغبت في القبض على بعض من ماضيها، اختارت خاتمًا مزينًا بفص من الزمرد شبيهاً بالذي كانت تملكه وضاع منها، وتمنت أن تجد أي قطعة مجوهرات على شكل رأس المسيح لكنها لم تعثر عليها.

عادت مع زوجها إلى منزلهما تكاد تطير من الفرح بخاتم الزمرد، لم يفهم سبب سعادتها الفائقة، إذ سبق وأهداها هدايا أثنى لم تسعدها بالقدر نفسه، لكنه ارتاح لاستعادتها كثيرًا من ألقها المحبب له.

أما هي فكانت ترفل في دهاليز زمن بعيد حملت فيه رأس المسيح! أو لو شئنا الدقة، تزينت فيه لسنوات بسلسلة ذهبية بها «دلالية» على هيئة رأس المسيح، اشتريتها مع خاتم الزمرد الذي أضعته هدير.

كانت في سستها الجامعية الأولى في القاهرة في الثمانينيات، طالبة غريبة تتعرّف على المدينة وتتحرك فيها بمزاج سائحة ترسم بخطواتها خريطة متخيلة لمدينة تخصصها وحدها. أخذتها قدمها إلى محل ذهب في شارع متوارٍ خلف جامع السلطان حسن على واجهته لافتة: «مصوغات جورج». وقفت تتفرج على الحلى الذهبية المعروضة في «الفاترينة» فخطفت السلسلة المنتهية برأس المسيح انتباهها. في البداية لم تدرك لمن الوجه، ظنته لفيلسوف يوناني: أفلاطون مثلاً أو سقراط.

دلفت إلى المحل، وأشارت إلى السلسلة التي ترغب في شرائها. للحظة بانّت علامات الاندهاش على وجه الصائغ الأبيض السمين المزينة أصابعه بخواتم ذهبية عديدة. رمق رسغها الأيمن فلم يجد وشم الصليب عليه، فتهلل وجهه وراح يمدح تسامحها وتحضرها، الأمر الذي نبهها لماهية الرأس.

باع لها السلسلة بخصم جيد. وضعتها حول رقبتها على الفور، وراحت تتفرد على الخواتم والأقراط المعروضة داخل المحل. طمعاً في كسب زبونة جديدة، فتح الصائغ خزانة مجاورة وأخرج تشكيلة من الخواتم قال إنه لا يعرضها إلا على زبائنه المفضلين.

فرد التشكيلة على زجاج مكتبه طالباً من نادية إلقاء نظرة عليها. تجاوزت خواتم مزينة بفضوص من الماس، الياقوت، والفيروز، وفي وسطها خاتم بفض زمرد خطف بصرها. تأملت زمردته بشغف، ارتدته فبان خلافاً في بنصرها. المال المتبقي معها لم يكن يكفي لشرائه، فباعت للصائغ خاتماً وسواراً كانا في يدها اليمنى.

تمنت أن يشاركها معارفها انبهارها بخاتم الزمرد، لكن لم يتب له أحد، وركزوا جميعاً على السلسلة المنتهية برأس المسيح. بعضهم تأملها بدهشة. وهناك من سألوها عن دياتتها رغم معرفتهم بها، أو قالوا باقتضاب إنها غير ملائمة، في حين تقربت منها زميلاتهن المسيحيات بفضول مشوب بالامتنان.

وهي شعرت بالخذلان قليلاً لأنهم لم يقدرُوا خاتمها الزمردى حق قدره.

كان الخاتم الجديد الذي اشتراه لها زوجها يشبه القديم لدرجة كبيرة، شعرت أنه يمنحها درجة أعلى من الانسجام مع محيطها. الخاتم وحوض أسماك الزينة، والمرايا العديدة التي تكسو الجدران، ونباتات الظل داخل المنزل وأشجار ونباتات الحديقة منحوها الكثير من التناغم، وقللوا من إحساسها بالغرابة، واحتياجها إلى الدفء، بمعناه الحرفي، في أجواء بالغة البرودة لم تعدها بعد.

## ناسجة الحروف

ليكن هذا انتقامي منك: أن أكفر بك، أن أضيّعك أولاً كي أستعيدك وأستبقيك بداخلي.

تسللت زمردة إلى القصر، متمنية ألا يراها أحد بملابسها المتسخة، وشعرها الأشعث. كان مظهرها فوضى عارمة. طلبت من بلوقيا ألا يظهر بورشته في حدائق القصر إلا مع حلول المساء، ففضى النهار في التسكع بالشوارع والأزقة.

لحسن حظها لم يلمحها أحد وهي عائدة. كان والدها لا يزال معتكفاً بقصر الياقوت، فمشت على أطراف أصابعها من قاعة إلى أخرى حتى بلغت غرفتها. ارتمت فوق فراشها فلم يتأخر النوم عليها.

مع حلول الليل. اغتسلت، ورطبت جسدها بماء الورد والدهون العطرية، ثم ارتدت ثياباً نظيفة، وهي تفكر في أمها، كانت واثقة من أنها المرأة التي كتب عنها إيليا، رغم زعمه أنها محض خيالات، ثم عودته ليؤكد أنها طيف يتراءى له. هل يمكن أن تكون ماتت، وبقي شبحها يطوف في أرجاء جبل المغناطيس؟ أزعجها خاطر. اتجه ذهنها إلى ملكة الحيّات، وصبرت نفسها بأن أو ان مواجهتها قد آن. ذرعت القاعة الملحقة بغرفة نومها، جيئة وذهاباً.

عادت تنظر إلى العالم وفق منطق أبيها. في جبل المغناطيس كانت

نفسها فقط. استرجعت كل ما مرّ بها متخيلاً رد فعل والدها إذا علم بما فعلت. أكثر ما أخافها كان هروب العنقاء. ابتهلت كي لا يكتشف علاقتها بالأمر. لم تكن تعلم أن الطائر المقدس آب إلى عشه في قاف بمجرد أن ابتعدت عنه هي وبلوقيا.

قضت ليلة من أرق. وحيدة في مواجهة سهادها، كانت كأنها تحفر قلبها بإبرة بحثاً عن لا شيء. دارت الأفكار في ذهنها برتابة فلم تسلمها إلا إلى الفراغ.

قُبيل شروق الشمس خرجت إلى حديقة المتاهة النباتية، تسكعت بين ممراتها حتى وصلت إلى الخميلة المجاورة لبحيرة اللجين، ومنها تسللت إلى ورشة بلوقيا، أمرته أن يوافيها إلى جوار شجرة الجميز المعمرة الواقعة عند الطرف الغربي للمملكة، ومعه حجرا الجنون والزمرد المسيل لأحداق الحيّات. سمحت له بامتطاء جواد يختاره من الجياد الملكية.

تعرف أن ملكة الحيّات في مثل هذا الوقت من النهار تلتجئ إلى جحرها في تجويف الشجرة العملاقة التي يخشى جميع سكان قاف الاقتراب منها. سبقت بلوقيا إلى هناك على متن جوادها الأشهب، وقد أخفت معظم وجهها بلثام حريري.

بدأت لها الشجرة كجبل قائم بذاته. تأملت أوراقها، وجذعها الضخم، وثمارها النابتة على خشب الأغصان، أثار المكان في نفسها رهبة ضاعفها فحيح مزعج تردد صداه. كان الجو معتدلاً، وهبّت نسمة خفيفة زادت من لطفه، لكن زمردة لم تنتبه إليها في انتظارها المتوتر لبلوقيا الذي تأخر عمّا توقعت.

أخيراً وصل. رأته مبتسماً على صهوة الجواد المفضل لو الدها فازداد

توترها. لم تفهم سر هدوئه، عزته لكونه غريباً عن الجبل بنواميسه  
وتقاليده. كان يسبح في بحيرة من جهله بخطورة ما هما مُقدمان عليه.  
قفز عن الحصان، فاتجه الأخير إلى جوادها الواقف على مقربة.  
أعطاهما بلوقيا قطع الزمرد بالغة النقاء، والحجرين الفضيّين ملفوفين  
كما هما. لفت نظرها إلى أنه لا يستطيع أن يساعدها كثيراً خوفاً من تأثير  
حجري الجنون، فطلبت منه أن يبدأ بالزمرد، ثم يتركها لتكمل هي المهمة.  
اقتربا بحذر من جذع الشجرة القابعة على حافة الجبل، أثارت زمردة  
جلبة كي تخرج ملكة الحيّات من مخبئها دونما فائدة. غيرت إستراتيجيتها  
وبدلاً من الضجيج شدت بأغنية شجية، أنشودة حزينة عن وطن قديم  
وأسلاف رحلوا ومشاعر هاربة لا سبيل إلى القبض عليها. بدا صوتها  
كأنما ينبع من الجنة. هي نفسها فوجئت باختلافه عمّا عهدته. أما بلوقيا  
فكان مسحوراً.

بدأ صوت زمردة يخفت تدريجاً، كأنما تهدد طفلاً لينام. وهنا فقط  
أطلت ملكة الحيّات برأسها من تجويف جذع الشجرة، ثم زحفت خارجة  
بكامل جسدها. كانت كأنما خلقت من بلور أخضر مضيء؛ وجهها وجه  
إنسان مفعم بالسكينة، وعيناها مسكونتان بحكمة عسية على التفسير.  
بهتت زمردة لمرآها، إذ كانت قد جهزت نفسها لمقاتلة وحش بشع  
الخلقة، فإذا بها أمام كائن بالغ الجمال، يفيض حضوره بالرقة والرهافة.  
قدّمت نفسها للحية الحارسة، فقالت الأخيرة إنها تعرفها. سألت دون  
مواربة عن مصير أمها، فأجابت الحية بحياد:

قبل سنوات قليلة، لجأت إليّ الملكة نورسين، ورجتني أن أساعدها  
في السفر إلى جبل المغناطيس، فرفضت. بكت وسجدت على الأرض  
متوسلة، تمرغت في التراب، وهي تترنم بابتهالات غير مألوفة لي.

أخبرتها أن عزلة قاف قدرية ما دمتُ حية، وأن الطيور والجان فقط يمكنها الارتحال منه وإليه. لم أطلب منها اللجوء للعنقاء كوني أعرف أنها ممنوعة، بأمر ملكي، من الاقتراب من عشها. ذكرت لي شيئًا عن مدينتها الواقعة بين جبال مكسوة بنباتات زاهية الخضرة، وبحر هائج دومًا، عن رجل بملابس داكنة عاش حياته مرتحلًا، وأحجار فضية تجذبها نحوها بلا أمل في الفرار. قالت إنها على وشك الجنون، ويجب أن تلتحم بمصيرها. بدت لي كائنًا معذبًا يبحث عن خلاصه. ظلت ليلة كاملة تنتحب بجوار الشجرة، ثم هددت بالانتحار قبل أن ينتبه الملك لغيابها. لاحظتها فقط خطرت لي الكيفية المثلى لدعمها. التفتت بجذعي حولها، ففهمتُ هدفي، ابتسمتُ لي بامتنان فاعتصرتها على مهل. همستُ لها بأن هذا هو السبيل الوحيد كي تتحرر روحها وتسافر إلى حيث تشاء. لم يبد عليها أي انزعاج أو تألم، أغمضت عينيها ورفعت رأسها لأعلى، تطايرت خصلات شعرها الطويل فبدت في ذروة جمالها. حين أسلمت الروح كان ثمة بسملة عذبة تضيء ملامحها مقرونة بشعور بالسلام لم يصادفني قبلاً.

أدارت ملكة الحيّات رأسها لتخفي دموع غافلتها، وغرقت زمردة في بكاء صامت، احتارت هل تحقد على غريمتها، أم تشكرها على تليبتها رغبة أمها؟ كادت تتراجع عمّا خططت له، لولا تذكرها بأنها تسعى لهدف أسمي، هو تخليص قاف من عزلته، وربطه بالعالم خارجه. زحفت ملكة الحيّات رافعة رأسها الجميل بأسى. اتجهت إلى حافة الجبل وتبعثها زمردة بوجل. توقفت فجأة واستدارت نحو ضيفتها التي صوّبت إلى عينيها أحجار الزمرد المسيلة للأحداق. ولدهشة زمردة لم تشح الحية الحارسة بوجهها بعيدًا، بل حدّقت في الأحجار بإمعان وقد تألقت

عينها، اقتربت أكثر حتى كادت حدقتها تلتصقان بقطع الزمرد، دارت حول نفسها في حلقات بينما يصدر عنها فحيح يشبه عواء ذئب متألم، وإن حافظ وجهها على اطمئنانه.

سارعت زمردة إلى حيث وضعت حجري الفضة، نزعت غطاءهما، وأمسكت كل منهما في يد، وركضت نحو الحية الراقصة في دوائر. دارت مثلها وقد وجهت الحجرين نحو العينين مباشرة. ارتعشت ملكة الحيات. واصلت فحيحها. استحالت سكينتها تشنجا، والتفت حول زمردة.

كان بلوقيا يقف على مقربة. منذ أزاحت زمردة الغطاء عن الحجرين، نظر للجهة الأخرى خوفاً من مغناطيسهما، غير أنه حين سمعها تستغيث بينما تلتف الحية على جذعها، هرع إليها دون تفكير. ما إن لمسها حتى التصقت يدها بالحجرين، اللذين أفلتا من يديها. بات بلوقيا وحجرا الجنون الفضيين شيئاً واحداً. فزعت زمردة حين سمعته يغرق في ضحك هستيري، بينما ابتعدت عنها ملكة الحيات والتفت حول جسده هو، منجذبةً هي الأخرى إلى مغناطيس الأجساد، ومواصلةً فحيحها الموجه. شرع الجوادان في الصهيل ليضيفا بضمتهما الخاصة على مهرجان الأصوات الصاخبة. حاولت زمردة الاقتراب من بلوقيا المنغمس مع ملكة الحيات في رقصة مميتة، لكن الاثنين ابتعدا عنها متوحدين بمغناطيس الأجساد، ومتجهين دون قصد نحو حافة الجبل.

امتزج صوت الضحك المجنون بالفحيح ليتحولاً معاً إلى صرخة مرعبة ضاعفها الصدى. حين هوى الجسدان من قمة الجبل، انخرطت أميرة قاف في صراخ ملتاع. فرّ الجوادان وخلفا وراءهما غباراً كاد يخفيها. في سقطته من عل، غابت عن ذهن بلوقيا تفاصيل حياته. تاهت

عنه ذكرى زمردة وجدته ومعلمه الفارسي. نسي كل ما يخص يتيماً حالماً  
أغواه جبل من زمرد، فلاحقه غير عابئ بما عداه.

\*\*\*

الملل عدو ينبغي الحذر منه، يجعل اللحظات تتشابه، يقتل التفرد  
والدهشة، بل وقد يدفع صوب أقدار مشئومة. حارس ضجر هو من انتبه  
إلى مروج بينما تراقب ما يبين لها من حديقة المتاهة النباتية بقصر الزمرد.  
في موقع المراقبة الخاص به فوق سور القصر الشبيه بقلعة محصنة، كان  
الحارس فريسة وقت يمر بطيئاً وبلا تغيير يُذكر، وهو مصلوب في مكانه،  
وعيناه مصوّبتان نحو الخارج، ممنوع عليه النظر إلى الداخل.  
«لا شيء حدث، لا شيء يحدث، ولن يحدث شيء!» قال لنفسه،  
متحسراً على عمر يضيع بلا فائدة. دفعه السأم للتركيز فيما حوله، ربما  
تأخذه نظرتة إلى شيء أكثر إثارة من رتبة حياته.

راقب لبرهة سرباً من النمل يحمل أفراده فتافيت طعام إلى شق لا يكاد  
يبين فوق السور العريض، فأدهشه كيف استطاع النمل الدعوب تسلق  
السور حاملاً مؤونته معه. ملّ سريعاً، فانتقل ببصره إلى السماء متتبّعاً  
السحب البيضاء، متخيلاً إياها في صورة حيوانات خرافية تتسابق، قبل  
أن تتجه نظرتة صوب سطح البيت القابع قبالتها، تفصله عن محيط القصر  
ساحة هادئة. خيّل إليه أنه لمح ظلّاً يتوارى. أعقب هذا جلبة كأن هناك  
من تعثر وندّت عنه صرخة ما لبث أن كتمها.

يعلم الحارس أن البيت مهجور منذ اختفى صاحبه عقب هروب  
زوجته. ضاعف هذا من فضوله لاكتشاف من تسلل إلى سطحه. غادر  
موقعه مسرعاً، واصطحب زميلاً من حرس البوابة، لاستطلاع الأمر.  
هناك كانت مروج مختبئة - بعد أن تعثرت ولوت كاحلها - وهي



تبتهل ألا يكون الحارس قد انتبه إليها. منعها ألم الكاحل من الهرب السريع، فاختبأت أملاً في التسحُّب خارج البيت ما إن ينشغل الحارس. فوجئت برؤيته هو وزميله، ومفاجأته هو لم تكن أقل.

اتجهت عيناها لتقائماً صوب البرج الذي يتوسط السطح، فدخل الحارس إليه ليفاجأ ببعض من رقوقها. حملها مسرعاً، وطلب من زميله القبض على المرأة المتكوّمة على نفسها كأنما ترغب في التلاشي.

اصطحبها من غير أن يفهما تماماً حقيقة الأمر، كل ما فكر فيه أن وجود رقوق مع امرأة أمر مثير للريبة. لم يكن أي منهما يجيد القراءة، لذا قررا الذهاب بها إلى كبير الحرس كي يقرر بنفسه مصيرها هي وما معها. تناول كبير الحرس الرقوق بيد مرتبكة، وأمر بتفتيش ملابس مروج قبل الزج بها في الحبس إلى أن يُتَّ في شأنها.

في المساء كان القاضي يقرأ مرتعشاً ما دونته. بالنسبة له كانت جريمته مزدوجة، فهي أولاً ارتكبت إثم التدوين المحرم على النساء بخلاف زمردة، وثانياً كتبت سيرة مفترضة للأميرة، وهو الأمر الممنوع على الجميع.

أبلغ الملك ياقوت بما حدث، فقطع اعتكافه وعاد من فوره إلى قصر الزمرد لمتابعة التحقيقات بنفسه. فاجأته الحالة المزرية التي وجد ابنته عليها. كانت وحيدة في غرفتها، لا تكف عن النحيب، ملابسها غير مهندمة وشعرها أشعث، والأهم أنها غرقت في الصمت من جديد. زاد هذا من نقمته على من جرّوت على تدوين سيرة ابنته. خشّي أن يكون جبل قاف على عتبة لعنة لا قبل له بها، إذ لم يحدث من قبل، في حدود علمه، أن أقدمت امرأة من عامة الشعب على انتهاك حرمة التدوين، ناهيك عن أن تدون سيرة أميرة الجبل وولية عرشه.

طلب من القاضي والحرس استنطاق مروج، لمعرفة الدافع وراء جريمتها، والوصول إلى كل ما دونته لحرقة في طقس علني، على أمل أن يخفف هذا من العواقب المشؤمة لفعاليتها لكنها اعتصمت بالصمت، أبدت بسالة مدهشة، وتحملت مختلف صنوف السَّحل والتعذيب، دون النطق بكلمة واحدة.

راحت تستدعي كلمات ونبرات الطيف. شغلت نفسها رغم الألم والعذاب بترديد نبوءاته في سرها محاولة أن تفهمها. فكرت في زمردة وتساءلت عن سبب امتناعها عن التنزه في حديقة المتاهة النباتية في الأسابيع الأخيرة.

داومت مروج، قبل القبض عليها، على مراقبة الحديقة كعادتها. ومع هذا لم تلمح طيف زمردة أو بلوقيا. غابا عن المكان، وتركها للحيرة والانتظار، حتى قاد حظها العاشر، الحارس الضجر إليها.

في إحدى نوبات نومها المتقطع بمحبسها، زارها الطيف في الحلم. في منامها لم يكن طيفاً بل رجل من لحم ودم بابتسامة هادئة تكاد تحتل كامل وجهه. كان أكثر وقاراً مما عهدته. سحبها من يدها إلى الجميزة العملاقة، حيث لم تجرؤ يوماً على الاقتراب. هناك ومن خلف صخرة زمردية ضخمة راقبت مشهداً مهتزاً لما سبق ودار بين زمردة وملكة الحيات، ارتعشت بينما تتابع السقوط المروع للحية وبلوقيا. وعندما سجدت زمردة باكية، تمت لو تستطيع احتضانها لمواساتها.

نظرت إلى الطيف فوجدته هادئاً لا يزال، قالت كأنما تكلم نفسها:  
- اللعنة قادمة لا محالة، ودوري أن أسرع مجيئها كي يمكنني إبطال مفعولها فيما بعد.

هز رأسه موافقاً وفي عينيه لمعة إعجاب بفتنتها، واصلت بالنبرة نفسها:

-من يحرق الأميرة يتمكن وحده من استعادتها، من يزلزل الجبل  
يقدر دون غيره على بعث أميرته مرة أخرى!  
غام المشهد أمامها فجأة، واختفت زمردة عن مجال بصرها، خلف  
عاصفة من غبار سبقها سهيل حاد.



## في الضباب

تلك هي لعنتي.. لعنة الوريث؛ مَنْ يكون  
امتدادًا لغيره.

على بعد خطوات قليلة من هدير، ثمة حياة تأفل في شرفة جدتها. حياة  
تنسحب تدريجًا، من نبتة جاردينيا اشترتها قبل مدة. قصة غرام جمعتها  
بالزهرة البيضاء الرقيقة في لحظات شحوبها. كانت تلقي نظرة عليها كل  
نصف ساعة، تمسح الأوراق الخضراء بعطف، متخيلةً أن حنوها عليها  
سيعيد لها رونقًا بدأت تفقده بسبب أشعة الشمس الملتهبة. بحثت عبر  
الإنترنت عن سبل إعادة إحيائها، وحينما يُست جلسست تتأمل انزواءها.  
ثمة ما هو مأساوي في الأفلول الخافت لزهرتها، معها تذوي الحياة  
بكاملها وتنسحب. مثلما تذوي زهرة جاردينيا في شرفة مشمسة، شيء  
ما بداخل هدير يأفل أيضًا. خجلت من نفسها، إذ كيف يسرقها الاحتضار  
البطيء لنبات تحبه من الأهوال الجارية حولها؟

لم يخبرها أحد أن هذا الذبول استعارة عن القتل المنتشر بالخارج،  
وحزنها عليها وعجزها عن إنقاذها من صميم الحزن والعجز اللذين  
يكبلانها أمام الموت الغادر للأبرياء على شاشات الفضائيات.

ببما تنقر أزرار «لوحة المفاتيح» متنقلة بين مواقع الإنترنت، وهي  
ترثي في سرها زهرة جاردينيا لا تهم أحدًا غيرها، ثمة في مدينتها: قنّاص

يصوّب بندقيته إلى عين شخص أعزل، أم تبكي ابنها الشهيد، أو تتحایل على جوع طفلها الباكي. خائف ينتظر من قد يقتحم عليه بيته ويأخذه إلى المجهول.

تذكرت هذا، فانشغلت عن موت زهرتها، ولامت نفسها لأنها تورطت معي أنا وكريم في ما لا تفهمه، وتركت ما كان عليها الاهتمام به.

لكم تغيرت هدير خلال الشهور السابقة!

لم تعد تلك الفتاة التي اعتادت متابعة برنامج الصباح في إذاعة «نجوم إف إم»، والدخول في مباراة يومية غير معلنة مع مستمعة أخرى تدعى «ملك» على من ستكون الأولى في الاتصال ببرنامجهما المفضل.

في الغالب كانت هدير تسبق الأخرى في الاتصال بالبرنامج، باستثناء صباحات قليلة. تحب محمد منير، وتطلب دومًا أغنيته «كان فاضل بس يا دوب». من كان يستمع إلى البرنامج في تلك الفترة سيتذكر في الغالب هدير كمال باتصالاتها ورسائلها اليومية، بملاحظات خفيفة الظل وصوتها المتحمس ذي الغنة الملفتة، كما كان سيلاحظ اهتمامها بمقدم البرنامج، إذ اعتادت التعبير عن إعجابها الشديد به، وتجاهل زميلته المرححة الضاحكة على نكاته أكثر مما تتكلم هي.

ثم حدث أن غابت هدير لشهور، انخرطت في أجواء مدينة تنزلزل بالثورة، ثم حين هاجرت نادية، انكفأت الفتاة الشابة على نفسها، سافرت إلى مدينة بعيدة لتقابل كريم وینفتح أمامها باب لا تعلم ما سيقودها إليه؛ باب أغرقها في عمل لا تفهم أبعاده، وفي ملاحقة أشياء ما كانت تتخيل أن تهتم بها يومًا.

في خضم هذا كله، خفتت لمسة اللامبالاة المرححة في صوتها. اكتست نبرتها بغلالة جدية، وباتت تكتفي بجمل قصيرة حاسمة لم تتنازل فيها

عن سخرية لاذعة صارت أكثر مرارة. نضجت فجأة! علينا، أولاً، إعادة تعريف الكلمة. النضج بالنسبة لها، يعني انزياح الغمامة من فوق الأعين، استعادة القدرة على الرؤية بلا رتوش ولا خداع. التدرج على قسوة فتح العيون على ما لا يراه الآخرون من خراب، على تفاصيل القبح المتوغل في كل شيء، على حشود من معدمين لا يهتم أحد بتحسين ظروفهم، وطواير بلا نهاية أمام الأفران ومستودعات توزيع أسطوانات الغاز ومحطات الوقود، وفساد ينخر في جسد مهترئ.

حاولت هدير استعادة سذاجتها القديمة، طراوة صوتها المفقودة ورنه الفرحة التي كانت تحلّق في فضائه. وإلى أن يتحقق لها هذا، أدمنت السير في شوارع مدينة ملونة بالتناقضات، مثقلة بتجاذبات السياسة، ومنهكة تحت وطأة أزمات لا تنتهي. مدينة عجوز، تحترف النسيان وتمتحن الضجيج.

صارت ترتب المدينة بعينها، تعيد رسمها في خيالها. تمحو تفصيلاً هنا، وتضيف أخرى هناك. «تفلتر» المشاهد أمامها، وتنقي الهواء من عوادمه بروائح الذاكرة. وحده الصوت يثقل عليها ويصيبها بالوهن. مدينتها، مدينة الأصوات المتعانقة في رقصات هستيرية صاخبة، لا تني تحاصر أذنيها بضوضائها. أصوات، أُضيفت إلى القائمة الطويلة، وصارت هدير تستحضرها في تجوالها الأبدي: هتاف ورسااص وصراخ لا ينقطع، يذكّرنا بعام تراه الأهم في عمرها.

وسط هذا، كان عليّ أن أجرّها بعيداً عن ركاب الواقع ووحله، وأدفعها إلى حيث تنتمي فعلاً، وبها من مهمة صعبة. لم تظنّ إلى محاولاتي المستترة، وكنت مجبرة على التقية كي لا أخيفها. لو تكلمتُ معها بشكل مباشر لما صدقتني. هل كانت ستفهمني لو نصحتها أن تعلق فوق هذه الهويات الضيقة، وتنشغل بالأهم.

تمشي هدير بخطوتها الراقصة فتتأرجح ذراعها، وتتطاير خصلات شعرها المموج. تحملق في كل شيء. تطيل النظر فلا تبصر سوى الغموض المغلف للوجود بأسره، كأن ستارة شفافة تخايلها وتضفي الالتباس على العالم من حولها. تتذكرني فتسكن الكآبة محياها، تعرفها إليّ أورها شعورًا بالغرق؛ كثّف الغموض فصار ضبابًا ثقيلًا يجرها لقاع معتم.

في طريق عودتها من شقتي بعد أن قرأت أجزاءً من «الفتاة التي أضاعت خاتم الزمرد»، فضّلت الترجل من التاكسي بعيدًا عن بيت جدتها، وأكملت طريقها سيرًا على الأقدام.

كانت مشوشة ومذهولة تسأل نفسها: كيف وصلت إلى كل هذه المعلومات عنها وعن أمها؟

رأت نفسها كحشرة بائسة بين خيوط عنكبوت سام. كانت الأفكار تتصارع في ذهنها، والأرض تهتز تحتها.

حين وصلت إلى الميدان الذي يشرف عليه البيت، طالعها المتشرد أخضر العينين واقفًا تحت شجرته المعتادة مصوبًا نظره نحوها بإمعان. لم تشغل نفسها به من قبل، اعتادت أن تصادفه في ذهابها وإيابها، تتأمل لافتاته محاولة أن تفهم فحواها، فلا تخرج بشيء. جمل بلا معنى لا تعرف منها هل يعترض على شيء ما؟ أم فقط يكتب «فضفضات» إلى لأحد؟ رغم إجادتها للإنجليزية بطلاقة ولقليل من الفرنسية، لم تصل هدير أبدًا إلى ما يريده، كأن ما يكتبه مجرد طلاس وإن بحروف مألوفة.

تجاهلته، وواصلت سيرها، فاعترض طريقها بينما تمر بالقرب من شجرته. لم ترغب في صده، مع أن تبادل الحديث مع مجنون يضيّع أيامه عبثًا، كان آخر ما ينقصها في تلك اللحظة. قالت لنفسها إن لديه ما يكفيه من عذابات وليس عليها أن تضيف إليها المزيد.



اقترب المتشرد منها حتى كاد يلمسها، وخرج صوته كصوت لم يُستعمل منذ سنوات، همهم بأصوات لم تفهمها، وصمت مترجعاً. لمحت في عينيه رغبة في أن ييوح لها بشيء ما، لكنه تركها وعاد إلى جلسته تحت الشجرة غير عابئ بوقفها المنتظرة. أثار فضولها ورغبت في معرفة ما يريد، ولماذا أوقفها اليوم بالذات؟ غير أنه غاب في عالمه الداخلي وأخذ يرتب لافتاته، ويعبث بمقتنياته من زجاجات فارغة وأغطية زجاجات كولا وبيبسي، وأوراق مفضضة لماركات من الشيكولاتة والحلوى. تصرف كأنها غير موجودة، فخطت نحو بناية جدتها، وهي تلعن الحمقى الذين تغص بهم المدينة بدايةً مني مروراً بهذا الرجل، وانتهاءً بكل مجنون آخر لم يصادفها بعد.

امتنعت عن مغادرة البيت بعدها لأيام، أخبرت جدتها أنها في إجازة من عملها بسبب الإرهاق. كان الفضول يعثب بها لمعرفة السر ورائي، وفكرت أن الاختفاء لفترة سيدفعني للسعي خلفها وعندها لن تعود قبل معرفة كنه ما يحدث، وسر اهتمامي بتسجيل قصة حياتها هي وأمها، والأهم كيف وصلت إلى تفاصيل يغيب معظمها عنها هي.

لاحظت ارتياح جدتها لمكوئها الدائم في البيت. لطالما تخيلت أن العجوز تفضل البقاء بمفردها كما تعودت خلال سنوات طويلة، لكن طمأنينة شيرويت والتصاقها المفاجئ بها جعلها هدير توقن أنها كانت مخطئة. انتبهت إلى أن جدتها تشرد كثيراً بينما تجالسها، تكون بجوارها منغمسة في حديث ما، فتسرح بعيداً، وقد حجبت غيمة حزن عابرة صفاء ملامحها المعتاد. ثم تثرثر بلا انقطاع: حكايات تافهة وتفاصيل بلا مغزى تكررهما وتضحك منها، فتفكر هدير في أن شيرويت تخنفي خلف ركام ثرثرات، لتهرب من شيء ينغص عليها حياتها، ولم يلفت انتباه حفيدتها من قبل لأنها كانت غارقة حتى أذنيها في عالمها الخاص.

بينما تتحدثان في الشرفة، فردت شيرويت أمامها صفحة من جريدة، وأشارت بسبابتها إلى صورة لامرأة وقور بابتسامة حذرة. قرأت هدير النعي ثم نظرت إلى جدتها مستفهمة، صمتت الأخيرة لبرهة ثم قالت:

- سمية رفعت. صديقة قديمة كانت مسئولتي الحزبية.

- البقية في حياتك.

- دي ماتت من شهر.

صمتت هدير منتظرة أن تستطرد جدتها في الحديث عن صديقتها المتوفاة، إلا أنها شرعت في مراقبة الشارع بوجوم. لم يكن الجو باردًا، ومع هذا أوقد المتشرد نارًا وجلس يتأملها تحت شجرته، سارقًا انتباه شيرويت. تابعته هدير بدورها، بدا لها كأنما ينصت إلى النار لا ينظر إليها فحسب.

سألت جدتها فجأة:

- إيه حكاية الرجل ده؟

أجابت شيرويت وهي لا تزال تتابعه:

- مسكين!

- أكيد مسكين، بس قصدي مش غريب إن متشرد فقير بيعرف إنجليزي وفرنساوي؟ وكمان عمري ما شفته بيقبل فلوس من حد.

قالت شيرويت إنه ظهر في المنطقة قبل سنتين، هناك من يقولون إنه رجل أعمال سابق خسر ثروته كلها فلم يحتمل الصدمة، ومن يؤكدون أنه لا يزال ثريًا لكنه فقد عقله بعد خيانة زوجته له. قالت هدير إنه ليس مجنونًا أو على الأقل لا يبدو كذلك، فهزت جدتها كتفيها.

في المساء دخلت على هدير غرفتها، جلست بجانبها فوق السرير وفي يدها صفحة الجريدة مطوية. فردتها أمامها ثانيةً، ودون أن تبعد

عينها عن صورة سمية رفعت، حكمت عن شابة أرسقراطية خرجت على عائلتها، وانخرطت في السياسة. حلمت بالعدالة الاجتماعية وثورة تحقق الحلم على الأرض. أفاضت في الحديث عن صداقة جمعتها بمسئولتها الحزبية، وعن مزيج من حماسة وإخلاص ورايكية، لم يقو على الصمود لشهرين فقط في المعتقل.

قالت الكثير، من بين دموعها، عن ورقة اعترافات أجبرها ضابط خشن على التوقيع عليها، وعن رفاق دفعوا سنوات من حياتهم بسبب انهيارها تحت التعذيب؛ رفاق من بينهم سمية التي أُبعدت عن طفلها لسنوات ست دون أن تعلم أن لضعف صديقتها المقربة علاقة بالأمر.

احتضنت هدير جدتها، فكفكفت الأخيرة دموعها. لم تكن تريد مواساة أو تعاطفاً، رغبت فقط في أن يسمعها شخص يهتم بأمرها، ويحمل معها سراً أثقل صدرها لعقود، وتضاعف ثقله بعد وفاة من دفعت الثمن.

لم تخبرها جدتها أنها زارت سمية، في شقتها بحي الزيتون، قبل وفاتها بسنوات قليلة. ذهبت للاعتراف بما اقترفته قبل عقود، لكنها جُبت.

شيء ما في سميت رفيقتها القديمة دفعها إلى إغلاق باب الماضي، شعرت أن العجز التي رأتها ابتعدت عن سنوات النضال، بحيث لم تعد تعني لها شيئاً. ظنّت شيرويت أنها ستنجح أخيراً في دفن هذه الذكرى المؤلمة، لكنها حين فوجئت بخبر وفاة سمية رفعت قبل شهور، تيقنت من أن التسامح مع خطيئتها مستحيل. تسامحها هي الأساس. ما واساها بعض الشيء أن سمية رأت قبل وفاتها مباشرة بوادر تحقق حلمهم القديم بالثورة، ورحلت قبل أن تشهد ارتباكاتة وعثراته.

في الصباح التالي، استيقظت شيرويت على صراخ ينطلق من مكان

قريب وجلبة تعم الميدان، خلال العام الأخير اعتادت أن تلتقط أذناها أصوات طلقات عشوائية تحطم الصمت والسكون. صارت تميز بين طلقات الرصاص، والسلاح الآلي، وضجيج الألعاب النارية، بين الرصاصة الطائشة، وتلك التي تصيب الهدف. تخيلت أنها تحصنت ضد الفرع، غير أن الصراخ الصباحي المتواصل أزعجها.

قاومت وجع ظهرها وساقها اليمنى، ونهضت من فراشها صوب الشرفة، لتجد هدير قد سبقتها إلى هناك. كان الصوت ينبعث من الشرفة المجاورة، حيث وقفت جارة بدينة تستغيث، وعيناها مثبتتان على الميدان، الذي ازدحم عن آخره.

أشارت هدير إلى حيث اعتاد المتشرد أخضر العينين الجلوس. دقت شيرويت النظر نادمة على أنها لم تحضر نظارتها. كان جسد المتشرد غريب الأطوار متدلياً من أحد الأغصان وحول عنقه التف حبل غليظ. جثة باردة برأس محني كانت تترنح على إيقاعات حركة الحبل إذ يهزه هواء الصباح، هي كل ما تبقى من معدم لا يتصرف كغيره من المشردين. لم يعرف أحد ملابس انتحاره، كل ما عرفوه أنه لن يجلس بعد اليوم في فيء الشجرة الظليلة، محاطاً بلافتات لا يفهمون فحواها. لن يمارس تمارين الصباح على مرأى من الجميع، ولن يتابعه شيرويت من شرفتها، كتسليّة وحيدة، بينما تتناول قهوتها الصباحية. كما لن تكون مضطرة لمدّه بطعام يومي مثلما تفعل مع القطط الضالة.

شعرت بالأسف عليه، كأنما بموته فقدت رفيقاً، تعودت على وجوده في روتينها اليومي. جلست إلى كرسي البامبو، تراقب الجيران في الميدان، وهم يتحلّقون حول الجسد الخامد، أحدهم يحاول الاتصال بالشرطة، وبعضهم يتابع بصمت، فيما انشغل آخرون بالثرثرة، وقد

وجدوا مادة شائقة للاختلاف حولها. لم تنتبه شيرويت، في خضم انفعالها بالحدث، أن أنفاس حفيدتها تكاد تتوقف، بينما تعلقت عيناها بالشجرة والجسد المتدلي منها.

استعادت هدير تفاصيل اقترابه منها، في طريق عودتها آخر مرة من عندي. كانت قد قررت، قبل نومها أمس، أن تسأله عمّا أراد أن يقول لها، إذ رأت أن معرفة حكايته ربما تشغلها عن ضباية تحاصرها منذ قرأت ما كتبه عنها، بل منذ تعرفت إلى كريم خان.

مضى اليوم رتيباً. طلبت شيرويت وجبة سمك للغداء من مطعم مجاور، وبينما تأكلان، خطر طيف حلم الليلة الفائتة في بال هدير، فاندھشت كيف نسيته.

كانت مع كريم! جاءها بينما تجلس في حديقة بيت جدها لأمها، تماماً حيث أضاعت خاتم الزمرد قبل سنوات. كانا كأن لا حدود ولا مسافات تفصل بينهما، كأنهما يواصلان شيئاً ممتداً في الزمن. سحبتته من يده وأخبرته أن الحديقة مكشوفة للمتطفلين. صعدت معه إلى السطح في جو ضبابي، كانت نائمة بجواره على أرضية السطح، احتضنته فيما بدأ يقبلها فاعترتها موجة لذة مدوخة، ارتجف لها جسمها كله. اعتدل قليلاً وأخبرها أنه مضطر للسفر بصحبة زوجة مفترضة إلى لندن، انقبض قلبها، ولدهشتها بدا أمراً مقبولاً لها في عالم الحلم أن تكون له زوجة وأن تتقبل هي وجودها ببساطة.

أكد أنه سيعود فوراً ثم اختفى، فيما ظهرت أمها ومعها زوجها. خافت هدير من إمكانية عودة كريم في حضورهما. لم تتصل به، خشية أن يرن هاتفه المحمول، أثناء صعوده إلى السطح، فيعرف أنه من تهاثفه. بعد قليل نزلت لاستطلاع الأمر، فوجدته منشغلاً في احتفال

صاحب بالأسفل، لا تتذكر هل لمحها أم لا! انتقل الحلم فجأة إلى مطبخ جدتها شيرويت، حيث وقفت تتطلع إلى ثلاث سمكات نيئة كبيرة الحجم، وتتفحصها باهتمام ربة منزل ماهرة قبل أن تفيق من نومها، بذهن مضطرب وأفكار متداخلة، على الصراخ والحادثة الكثيية.

عندما استعادت حلمها في نهاية اليوم، تعجبت لأن كريم لم يخطر ببالها منذ أكثر من شهر. ودّت لو تراه، وضايقها أن فرص هذا اللقاء ضئيلة. أخبرها عقلها أنه يكاد لا يفكر فيها، غير أن قلبها تمنى لو أن هذا غير صحيح.

في رسائله الإلكترونية العديدة تبحث عن أي بادرة حميمية، عن جملة، زائدة على المعنى خارجة عن السياق، قد تعكس اهتمامًا خاصًا، وتعيد قراءتها مرّات. مثلما حدث عندما أخبرها، بلا مبرر، أن بوسي سكرتيرته ولا علاقة خاصة تجمع بينهما، أو حين كتب لها، خارج سياق رسالة ما، أن المطر كان غزيرًا في «فيينا» بالأمس، وأنه خرج إلى متنزه (Stadtpark) ليستنشق رائحة المطر في اتحادها مع أريج الزهور والأشجار. أو أنه زار «بلفيدير» وغرق بين أعمال جوستاف كليمت لأكثر من ساعتين، قضى جزءًا لا بأس به منها متأملًا لوحة «القبلة». تفاصيل عابرة، لكن هدير تقرأها بعينين مختلفتين، وتخترع لها تأويلات تقر به منها.

فوجئت عندما هانفها كريم، بعد يومين من موت المتشرد أخضر العينين، ليخبرها أنه في زيارة مفاجئة للقاهرة ويرغب في رؤيتها. التقيا في اليوم التالي في مطعم هادئ بوسط البلد، فعرفت أنه جاء خصيصًا لمقابلتها بناءً على طلبها. قال لها إنني على علم بأنها قرأت «الفتاة التي أضاعت خاتم الزمرد» خلصة، ولأنني لن أستطيع شرح ماهية الأمر لها على نحو مقنع، لجأتُ إليه لإدراكي أنه أقرب إليها مني.

ذكر لها ما يعرفه عن جبل قاف وحكاية ابنة ملك الجبال، عن أسلافنا الذين اضطروا للنزوح من أرض أجدادهم وتاهوا في شعاب الجبال المختلفة محاولين، قدر استطاعتهم، إحياء ذكرى الأميرة وحفظ حكايتها، وكيف أن أجزاءً مفصلية من الحكاية حُرِّفت مع مرور الزمن، وأن وجود هدير لا غنى عنه لاستعادة الحكاية الأصلية تمهيداً لانبعاث الأميرة من رماد احتراقها وعودة قاف إلى سابق عهده.

اعترف لها بأنه كذب عليها حين أخبرها أن «سيرو دي لا بوبا» في ثاكايتيكاس يُسمَّى بـ«جبل الحياة»، وأنه ألصق به إحدى التسميات التي أطلقها أسلافه على قاف في محاولة منه لجذب انتباهها.

«كنت بتدوري على بستان، وما تعرفيش إنها منتظرالك من سنين». قال، ثم أضاف أنني أخذت أنسج خيوط ما أعرفه من الحكاية المقدسة، ساعيةً في الوقت نفسه إلى ملء ثغراتها، وعبر قواي السحرية الموروثة رحت أبحث عن المغناطيس الكفيل بلضم أجزاء الحكاية معاً وكشف التفاصيل المُحرَّفة تمهيداً لمحوها.

- كان فيه ريحة مميزة في ثاكايتيكاس، صح؟ سألها. أجابت بهزة من رأسها، فتابع.

- الريحة دي يشمها بس اللي لهم علاقة بقاف، ريحة بتزيد في المدن والمناطق الجبلية، وبتدل اللي لهم علاقة بجبل الزمرد وأسطورته على روايحه الأصلية.

التزمت هدير الصمت لأنها لم تعرف كيف ترد عليه، بدا لها في هذه اللحظة كنسخة ذكورية مني؛ شخص مسكون بهواجس لا تخصها ولا تفهمها. تفحصته بحياد فواصل ناظرًا في عينيها مباشرةً:

«أنت مغناطيسنا يا هدير. اللي يشوفك من المنحدرين من قاف

هينجذب لك زي حديد بينجذب إلى مغناطيس . ما أقصدش انجذاب جنسي أو عاطفي، إنما هيحس إنك مرتبطة بشكل ما بماضيه». استولى عليه توتر مفاجئ بسبب صمتها، فقال وهو يبعد نظره عنها، إنها ليست وحدها، هناك عديدات ينطبق عليهن الأمر نفسه، لهن صلة ما - حتى ولو غير محسوسة من جانبهن - بالزمرد. بعضهن وُلد تحت العلامات الفلكية نفسها التي وُلدت تحتها الأميرة الغائبة، والبعض الآخر فيه من خصالها، أو ارتبط طالعه بالحجر الأخضر الكريم منذ مولده. وإنها في مكان ما من العالم ستجد طفلة أخرى أضاعت خاتماً زمردياً تملكه أمها وشعرت بمشاعرها نفسها حين فعلت هذا.

- يا سلام على المصادفات!

ردت هدير ساخرة فأكد بحزم:

- مش مسألة مصادفات. أكيد سمعتِ عن العوالم المتوازية، المسألة هنا أبسط، مجرد أحداث وشخصيات متوازية، بتكرر أفعال بعض، إما على فترات زمنية مختلفة أو في زمن واحد وأماكن مختلفة. اختلافات بسيطة ممكن تحصل وتسبب اختلافات أكبر، لكن جوهر الفعل واحد. إحنا نسخ من بعض، مفيش مجال للتفرد إلا في حالات نادرة.

- زي حالة أميرتكم؟ سألته بغيظ مكتوم.

- صحيح. زمردة ملهاش مثيل. أجاب بجدية أدهشتها.

أخبرها أن النبوءات المكتوبة على هيئة أشعار غامضة هي ما قادتنا إليها، وأنها رغم إلغازها تحوي الكثير عن حياتها هي وأمها، وأني من جانبي جمعت ما استطعت من معلومات مُكَمَّلة، وسددت الثغرات بالخيال. احتجت بأن ما كتبه قبض على مشاعر لم تصرح بها لنفسها



وليس مجرد تخيل، فاضطر لقول إنها باحت له، وهي نصف غائبة عن الوعي، في مطعم الجبل في «ثاكا تيكاس»، بكثير من أسرارها. صدقته وأضفت كلماته، رغم عدم منطقيتها، بعض المنطق على سلوكي غير المفهوم لها. لم تستسخ هدير أبدًا جديتي المفرطة إزاء تفاصيل تراها هي لا تستحق التوقف عندها. من وجهة نظرها، أتعامل مع نفسي كأني في مهمة لإنقاذ البشرية. ومع كلمات كريم فهمت هدير أني في مهمة مقدسة، من وجهة نظر جماعتي على الأقل.



## النزوح إلى العالم

فلأستمد الرؤية من رصف الكلمات لتكوين  
أحجية تُخبئ بداخلها السر بينما تتظاهر  
بكشفه.

كانوا يواجهون العالم خارج جبلهم لأول مرة!  
أجسادهم كأنما تجف تحت الشمس المحرقة، وأرواحهم الملتاعة  
تحلّق حول المشهد الأخير لأميرتهم المخلوقة من ضوء. ينظرون خلفهم  
فيفاجأون بالجبل، وقد بدأ يفقد لونه الأخضر الزمردى تدريجًا، ويصير  
إلى بُهوت كما لو كان مثل حرباء مُحَنَّكة، سيتقمص لون الصحراء التي  
حاصرته من كل صوب.

حشود هاربة تسير في مجموعات. الصحراء حولهم كون شاسع لا  
نهائي: مفازة خاوية نبعت من لا مكان، رمال تذروها رياح مُنذرة بالأسوأ،  
وأفواج تئن من العطش والجوع والإنهاك. كلما زاد التعب، وطال الطريق  
تخفف الفارون من بعض متاعهم الذي فرّوا به.

الهواء يحمل صدى صراخ بعيد، تنقله الرياح ليرطم بجنات الجبل،  
فيتعملق الصوت مرّات ومرّات. أحدهم يمسح بيده عرقًا غزيرًا عن  
جبينه، ويترنح قبل أن يستند إلى كتف زميل له بالكاد يقوى على الوقوف.  
آخر يلقي بجسده المهودود فوق الرمال ويتمدد باسطًا ذراعيه بشكل أفقي  
ليرسم صليبيًا هائلًا.

من ينظر، من أعلى، للحشود الهاربة يرى أجسادًا هامدة متروكة على طول الطريق. لم يملك الرفاق رفاهية الوقوف لإغاثتها، أو حتى دفنها. أجساد تبدو من على كنقاط سوداء تُرَقَشُ الدرب. في المقدمة سار متصوفة وحكماء الجبل، يقاومون الموت بنقاشات هادئة تتقد شعلتها لدقائق، قبل أن تنطفئ لساعات.

كان المصير المفاجئ للأميرة يحيرهم، وتزلزل الجبل وارتعاشه يثيران خوفًا كامنًا في نفوسهم. لم يتخيلوا لأنفسهم موطنًا غيره، وها هم الآن في مواجهة عالم قاسٍ غريب لا يعرفونه. فقط قرأوا عنه حكايات ظنوها أساطير، وسمعوا به في حواديث عجائز مخبولين وسحرة مخادعين. في خضم مأساتهم وألمهم على الطريق الشاق نحو المجهول، راحوا يقلّبون الأمر على وجوهه كافة، محاولين البحث عن السبيل المثل لحفظ تراث قومهم. الرقوق والمخطوطات لا خوف عليها، كونهم حملوها معهم، وعلى أتم استعداد لبذل دمائهم حمايةً لها. ما كانوا يناقشونه، هو كيفية صون تراث قاف الشفاهي: النشأة، التاريخ، الأهازيج، العادات، وتفاصيل الحياة اليومية، فضلًا عن قصة حياة الأميرة التي غابت للتو واستحالت تراثًا أمام أعينهم.

سمعوها بأذانهم في لحظات احتراقها تقول إن التذكر هو السبيل الوحيدة لانبعاثها من رمادها الذي يحمله كبيرهم في بلورة خاصة كجوهر لا تقدر بثمن بعد أن منحته إياه مروج. قالت الأميرة أيضًا إن عليهم ترديد حكايتها بلا كلل، وتدوينها كي لا تتوه في غياهب العدم وظلماته. «الحكاية ستعيدني. وكاهنة الأبيض والأسود ستجمع شظاياي!» كان هذا آخر ما نطقت به.

اختلفوا حول تأويل كلماتها، لكنهم تعاهدوا على جمع كل ما يخصها

لتفسيره في حكاية غير قابلة للمحو؛ حكاية شفوية، عليهم وحدهم، يقع عبء تخليدها بعد أن استنطقوا «مروج» كل ما تعرفه. كانوا منهمكين في أفكارهم ونقاشاتهم، بحيث لم ينتبهوا لمن سقطوا على امتداد خط السير، لم يلتفتوا تأوهات الوجع والتعب، ولم ينصتوا لصدى الصراخ البعيد المتراقص في الفراغ من حولهم. نمط حياتهم الزاهد في الماضي حماهم من مشقة هذا التيه. بدوا كمن يمارس تمرينًا جديدًا على الزهد والتخلي. اختبار روحي عليهم اجتيازه بقوة الإيمان لا غير.

بعد المسير لأسابيع، وصل الناجون إلى ما ظنوه نهاية الصحراء. واحة من أشجار مانجو عملاقة تكوّن غابة صغيرة. بعضهم جلس يستريح في ظلها، وآخرون رموا أجسادهم على الأرض كيفما اتفق، فيما وقف فريق ثالث محددًا فيما قطعه من الطريق أملًا في إلقاء نظرة أخيرة على جبلهم، لكنه كان قد غاب ولم يعد ماثلاً عند خط الأفق. بدا كأنما تبخر، أو تلاشى واستحال رمادًا كأمرتته المحبوبة.

تجولوا بين الأشجار حتى عثروا على عين ماء، وقطفوا من الثمار ما يقتاتون عليه. اقترح بعضهم البقاء حيث هم والاعتماد على الصيد، غير أن حكماء قاف رفضوا الاقتراح قائلين إنهم سيواصلون مسيرتهم صباحًا، ولن يرتضوا بغير الجبال سكنًا لهم، موقنين أن إخلاصهم للطريق وتوحدهم به يعينان أن مسافات تستغرق سنوات في المعتاد، ستطوى لهم في أيام، وهو ما حدث لاحقًا.

في الصباح، أفاقوا ليجدوا أن كثيرين شنتقوا أنفسهم فوق أغصان أشجار المانجو، وبقيت أجسادهم الخالية من الحياة معلقة كثمار عملاقة. كانوا في معظمهم من الفريق الذي تشبثت أنظاره حتى آخر لحظة بـ«قاف»، من الصامتين، السائرين بوهن، والملتفتين طوال الوقت

إلى الوراء، كأنما يرغبون في حفظ صورة جبلهم حية في أذهانهم للأبد. لم يُصدَم رفاقهم لمرأى العيون المحدقة برعب ميت، ولا الأجساد المتدلّية. بعد ما لاقوه لم يعد شيء بقادر على ترويعهم. فقط خرجت من بعض النساء صرخات مكتومة، وتأوهات حزن عابرة. فعلمن هذا كمن يقلد رد فعل يعرف أنه المتوقع منه في موقف مماثل.

في حلقات صغيرة أكلوا ما تبقى من زاد، كانوا قد التقطوه على عجل، بينما يغادرون بيوتهم، وشربوا من مياه النبع الذي يتوسط غابة أشجار المانجو، وحملوا مؤونة من ثمارها معهم في طريقهم لمواصلة تيههم الإيجاري.

قاموا متفضين، وانطلقوا دون الالتفات إلى جثث زملائهم المتروكة للريح والطيور الجارحة. مدوا خطاهم محافظين على نظامهم نفسه. الحكماء في المقدمة لكن صامتين هذه المرة، تتبعهم أفواج من مجموعات صغيرة يخطو أفرادها خطوات تائية، وتغيم نظرتهم تهباً من مستقبل لا يعد بالكثير.

انطلق فجأة صراخ مرعب من الخلف. استداروا لاستبيان الأمر، ففوجئوا بمروج ملقاة على الرمال وقد طعنت قلبها بخنجر. سألت دماؤها لتلوّن الرمال، بلونها الأحمر القاتم. استنتجوا أنها تبعتهم خلسة، وأقدمت على قتل نفسها ندمًا على ما اقترفته في حق الأميرة.

لولا الكلمات الأخيرة لأميرتهم، وأمرها بتدوين حكايتها، بالمخالفة لنواميس قاف، لكانوا أحرقوا «مروج» كما أحرقت ابنة ملكهم. عندما رأوها مطلقة السراح، تهم في الشوارع - غير عابئة برائحة الحريق ولا بالدخان المُسيج للهواء - استوقفوها، أرادوا فهم سبب فعلتها النكراء، سمعوا قصتها، وأخذوا منها رماد احتراق زمردة.

اندهش كبير الحكماء من غزارة معارفها وسعة اطلاعها، لذا صدقها حين أخبرته بضرورة النزوح من الجبل. قالت إن هذا قدر حتمي، كونه السبيل الوحيدة لاستعادة قاف كما كان يوماً ما. كان الجبل قد توقف عن الاهتزاز مؤقتاً، اختفى قصر الملك بمن فيه، كأن الأرض انشقت وابتلعت، وغارت المياه في الآبار والينابيع، وفسدت الثمار والمزروعات.

قالت لهم مروج إنهم إن لم يرحلوا فوراً ستحترق أجسادهم جميعاً لحظة تلاشي جبل الزمرد، وسينعدم الأمل في تجسده مرة أخرى مستقبلاً. جمعوا أنفسهم على عجل بما استطاعوا حمله، وبدأوا رحلة تيههم متخيلين أن المرأة المطلعة على ما ليس لهم به علم لن تلحق بهم. شيء ما في نظرتها المنكسرة، ولمحة من عدمية ويأس سيطرت على محياها، جعلتهم يظنون أنها غير قادرة، أو بالأحرى غير راغبة في مغادرة الجبل، ومع هذا لم يندهشوا حين اكتشفوا مجيئها في إثرهم، كما لم يصددهم انتحارها. على العكس شعروا بالراحة لأنها - في النهاية - عوقبت بشكل ما على خطيئتها.

\*\*\*

أخيراً، وعقب السير لمدة لم يستطيعوا حسابها، وجدوا أنفسهم خارج أسوار مدينة عامرة. دخلوها بتردد، وهم ينقلون أبصارهم بين مبانيها وشوارعها وأسواقها. القافلة خائرة القوى، التي فقدت كثيراً من أفرادها، حطت رحالها في نهاية الأمر وسط بشر آخرين.

تجولوا على مهل في السوق، غير قادرين على فهم اللغة الغربية المنطوقة من رواده وتجاره. حاولوا، عبر الإشارات، التفاهم مع البائعين لشراء ما يقتاتون عليه، فاكتشفوا أن نقودهم بلا قيمة خارج جبلهم. طلب حكماء قاف السبعة من الباقين أن ينتظروهم في مكان حددوه

على أطراف السوق، وتوغلوا هم داخل حناياه ودهاليزه بحثاً عن محال «الصاغة» وبائعي الجواهر. كالمسرّنين خطوا في طرق ملتوية كابية كأمعاء ضيقة بعيدة عن مملكتهم التي يلاعب فيها الضوء الماء، وينغمسان معاً في رقصات دافئة تكوّن ظلالاً منتشية بنفسها.

خرجوا من أمعاء المدينة ليجدوا أنفسهم في ساحة دائرية مشمسة تحيط بها محال الجواهرجية. شعور بالارتياح سيطر على الرجال السبعة، ما إن وصلوا إلى الساحة. في طيات متاعهم القليل، كانوا قد دسوا، وهم يفرون من الجبل، ما استطاعوا انتزاعه من أحجار الزمرد. يعرفون أن لا زمرد آخر يماثله في النقاء، وسمعوا كثيراً عن قيمته في بلاد بعيدة لطالما شكّوا في وجودها. بالنسبة لهم كان الزمرد يؤطر العالم من حولهم، ما إن يولدوا حتى يحيط بهم من كل جانب في هيكل الجبل، وجدران القصور، وفي كل شيء آخر.

دلّهم، على ارتفاع قيمة أحجارهم الخضراء البراقة، انبهار بلوقيا بها، وما حكاها لملكهم عن قيمتها المرتفعة. ذكر لهم من اخترق عزلة جبلهم، أن حجراً واحداً بهذا الصفاء النادر يساوي ثروة في البلاد النائية حيث وُلد وعاش، قبل أن يعرف ب«قاف»، ويتملكه هاجس الوصول إليه.

اختار كبير الحكماء أصغر حجر زمرد بحوزته، ودار به من صائغ لآخر. التقط على الفور نظرة الانبهار في عيني كل منهم ما إن تقع على الزمردة بالغة النقاء. بلا كلمات رفض السعر المعروض عليه من الصائغ الأول، فالثاني، مع أنه لم يفهم ما إذا كان مناسباً أم لا. فقط لم يُرد أن يبدو في مظهر الغرّ الذي يقبل بأول ثمن يُعرض عليه.

وافق على بيع جوهرته للصائغ الثالث بعد رابع سعر قدرها به. اقترح الرجل سعراً فأخذ الحكيم الجوهرة متظاهراً بإعادتها إلى مكانها في



ملا بسه، فاقترح الصائغ ثمنًا جديدًا، وفي رابع مرة وافق الحكيم. قبض على أكياس العملات الذهبية الممنوحة له، ونادى على زملائه المنتظرين بالخارج. وزعوا الأكياس بينهم، ودس كل منهم ما معه في ملابسه، وضمها على جسده بقوة، وعادوا إلى أفراد جماعتهم على أطراف السوق.

اختاروا أكثر خانات المدينة أمنًا، ووزعوا أنفسهم، رجالًا ونساءً عليها، وفي نيتهم السؤال، عقب أيام من الراحة والنقاهة، عن أقرب الجبال إلى هذه المدينة العامرة. بعد نقاشات ومجادلات طويلة خلص الحكماء إلى ضرورة الانقسام إلى مجموعات عدة، كل مجموعة يقودها حكيم، وتختار جبلًا معينًا للجوء إليه والاستقرار فيه حتى يحين موعد عودتهم إلى جبلهم الأم ما إن ينتصب قائمًا من جديد.

قررُوا أن يتجه كبير الحكماء ومعه جماعة من الرجال والنساء إلى الجبل الأقرب، في حين يواصل الآخرون ترحالهم، وعند الجبل التالي في طريقهم ينفصل حكيم آخر بجماعة أخرى، ويرسل للجبل الأول من يخبر اللاجئين إليه بمقر جماعته، وبالوصول إلى الجبل الثالث تلجأ إليه جماعة أخرى مع حكيمها، وترسل رسولًا يخبر المجموعتين السابقتين بمقر جماعته، وهكذا حتى استقرت المجموعات السبع في سبعة جبال.

\*\*\*

الكتابة موت الكلمات!

كل كلمة نخطها مشروع قتيل ننحره، ونمثّل بجثته قبل أن نحنطه على الورق!

في الشفاهي يعاد إحياء الكلمة، تكتنز بدلالات تضيفها عليها تعبيرات الوجه، ونبرة الصوت. هو الصوت تحديدًا ما يحيي الكلمات، ما يجعل

الكلام حضورًا والكتابة غيابًا. الكلام حيوي، مندفع، وصاحب. والكتابة محاكاة باهتة له. الكلام هو الأصل، والكتابة نسخة مزيفة.

في زمان قاف الأول عاشت حكايات أهله وأساطيرهم منطوقة في جنة الشفاهي. تراقص فرحًا، أو تشتعل غضبًا، أو تتقاذف حماسًا على وقع إيقاعات الصوت وموسيقاه.

كانت الكلمات حاضرة، حية، مُشعة. لكنّ ثمة حوادث مفصلية في تاريخ الجبل أخذت تبتهت. استمات حكماؤه من أجل استعادتها كما كانت عبر إعادة حكيها مرارًا، فُصِّدِمْوا باختلافات طفيفة محكومة بتنوع الحكائين. كان كل منهم يسرد نسخته موبوءة بتلاعبات ذاكرته وانتقائيتها، وملوثة بمشاعره وانفعالاته وانحيازاته. خطر لهم أن التدوين قد يكون الضمانة الوحيدة لإعادة إحياء من ماتوا، ممثلين في كلماتهم. غير أنه إحياء مقترن بالموت، فمع كل خيانة أو تحريف لما نطقوا به كانوا يموتون مرات ومرات.

مع الوقت فطن الحكماء القدامى إلى أهمية الكتابة رغم كرههم لها. بدا لهم أنها السم والترياق في آن. بعد التشاور فيما بينهم، وأخذ الإذن من الملك ياقوت، فسَّموا أنفسهم إلى مجموعات يعكف كل منها على التدوين في حقل بعينه. جمعوا كل معارفهم وصلبوها فوق رقوق وجلود. صممت الكلمات. ماتت وحُطِّت بين دفتي مخطوطات محفوظة ككنوز باردة. كانت الكتابة سمًا زعافًا على حكماء جبل الزمرد ونسآكه القدامى ارتشافه حتى الثمالة. وحدها حكايات ملوكهم رفضوا تدنيسها بالتدوين. منعوا تسجيل أي حرف عن الأميرة وأبيها الملك وآبائه من الحكام السابقين، أرادوا أن يظل كل ما يخصهم حيًّا في قلوب الرعية وعلى ألسنتها، كما حرّموا التدوين على النساء، باستثناء زمردة. علمها

كبير الحكماء الكتابة منذ كانت طفلة صامته يظنها الجميع بكما، غير أنها مثل الآخرين مُنعت من تدوين أي حرف يخصها أو يتعلق بوالدها وأجدادها.

لم يعلم كبير الحكماء، أن سلفه حكيم المملكة السابق، كان قد خرق الناموس وعلم ابنته الكتابة، وأنها بدورها علمت، قبل موتها، ابنتها «مروج» أن تخط الحرف وتقرأ مخطوطات جدها السرية، وتفسرها وفقاً لأهوائها، بل وتنسج على منوالها.

لو علم بهذا مبكراً، وأضاف إليه أن «مروج» لم تكتفِ بخرق الناموس هي وأمها وجدها، بل ارتكبت خطيئة أخرى بالبده في تدوين سيرة زمردة، خالطة الحقائق بالأوهام والوقائع بالتخيالات، لتزلزل الأرض تحت قدميه، وتوقف قلبه على الفور. لكن لربما أيضاً كان قد نجح في وأد الخطيئة في مهدها قبل استفحالها وتسببها في كل ما ترتب عليها من نتائج سوداء.

فكر في هذا، بعد فوات الأوان، في طريق النزوح الاضطراري من قاف حين سمع صرخة مروج وعاد إلى الخلف مع رفاقه ليفاجأوا بها وقد طعنت قلبها تاركةً دماءها تصبغ الرمال.

بتفتيش ثيابها، عثر مساعد الحكيم على الرقوق التي دونت فيها سيرة الأميرة، مربوطة حول خصرها. أعطاها لمعلمه، الذي خبأها بين طيات ملابسه، وظل طوال الطريق واضعاً يده عليها، خوفاً من فقدانها.

كان جد مروج قد أقدم على تعليم ابنته القراءة والكتابة، وأوصاها قبل رحيله بأن تعلم ابنتها بدورها، لأنه لم يقتنع أبداً بتحريم التدوين على النساء. كان يرفع الكتابة إلى مرتبة الإلهي المقدس، فيما اعتبر الشفاهي وليد البشريّ الخطأ متعدد التأويل والمختلف من موقف لآخر.

آمن بأن النساء أقدر على الإلمام بالتفاصيل، وتحليلها ووضعها في سياقها الصحيح، لو كان الأمر بيده لاختار من بينهن حكيماً وناسكاً وكاهناً. غير أنه خاف من التصريح بما يؤمن به خشية أن تُعتبر آراؤه تجديفاً يقوده إلى الإعدام أو الحرق، ويقود عائلته من بعده للتشرد.

كان مساعده وخليفته فيما بعد، الحكيم الأكثر تطرفاً في الالتزام بما رآه ناموساً مقدساً لا يجوز المساس به، وكان يدعمه رأي عام بين نخبة الحكماء والنُّسَّاك والكهنة، والأهم قناعة راسخة من الملك ياقوت، بتحريم التدوين على النساء والعوام، وحظر تسجيل سيرته هو وأفراد أسرته. من هنا احتفظ جد مروج بقناعاته لنفسه، وعكف على تدوين مخطوطات سرية تضيء الطريق لابنته ومن بعدها حفيدته.

مع بدء التيه التالي لاحتراق الأميرة، وتزلزل جبل الزمرد، شاع التدوين بين عوام الجبل التائهين في أصقاع الأرض. رغم عزلتهم النسبية فوق قمم جبال بديلة استوطنوها، تخلصوا رغماً عنهم ببعض خصال أهالي منافيهم، حين كانوا ينزلون للشراء أو البيع مع سكان المدن المجاورة، كانوا يكتسبون منهم بعض عاداتهم. على الأقل تلك العادات التي بدت ضرورية كي لا يشتبه فيهم أحد.

دَوَّن عدد منهم ذكرياتهم عن قاف وعصرهم الذهبي فيه، قدموه كما لو كان مكاناً أسطورياً وجوده غير مؤكد للتمويه على الفضوليين والمشككين في آن. ومع هذا تفادوا تسجيل حكاية أميرتهم الحبيبة، خافوا من تدنيسها وجلدها على صليب برديات أو جلود ورقوق، إذ كيف لهذه المواد الفانية أن تحفظ حكاية مقدسة كتلك؟

أرادوها مصانة في ذاكرتهم، حية متألقة في أصواتهم وهم يتبارون في حكيها بأصوات ملؤها الشغف والتوق والحنان. يمسك أحدهم بخيط

الحكي من حيث انتهى رفيقه في ليالي الشتاء الباردة فوق قمم اغترابهم،  
أو في أمسيات الصيف العذبة بينما يتحلقون حول نار هادئة تنير لهم ليل  
الشتات القاسي.

من جانبه قرأ كبير الحكماء مخطوطات مروج عن سيرة زمردة، وهو  
يرتعش. تملكه شعور بالذنب، كأنما يرتكب إثماً لا غفران له، ومع  
هذا انغمس في القراءة لآخر خلية في جسده. غلبه الفضول والنهم إلى  
المعرفة. حَمَّن أن دافعاً قاهرًا هو لا بد ما حثَّ حفيذة معلمه الروحي على  
التورط في خطيئة بشعة كتلك، وأخبره حدسه أنه سيصادف هذا السر  
مطويًا بين ثنايا سطورها وكلماتها.

قرأ مذهولًا وقائع من المستحيل أن يعرفها إلا الأميرة ذاتها: حوارات  
بينها وبين بلوقيا، تفاصيل رحلتها إلى جبل المغناطيس الذي لا يمكن  
لمروج أن تكون زارته بأي حال، وخواطر جالت في بال ابنة الملك ياقوت.  
قال الحكيم لنفسه إما أن «مروج» تختلق جزءًا كبيرًا من المكتوب، أو  
أنها تمتلك بالفعل قوى خارقة تمكنها من قراءة الأفكار ومعرفة ما يدور  
في أماكن بعيدة. استقر رأيه على أنها ساحرة بدليل أنها بمجرد ترتيب  
كلمات غير مفهومة، أحرقت زمردة وزلزلت الجبل وأخفت قصر الزمرد.  
واصل القراءة محاولًا إقناع نفسه بأن المرأة الغامضة، مجرد مدعية،  
تمتلك خيالًا جامحًا، يساعدها على التزييف والتحريف. دفعته البلبلة  
الناجمة عن غرابة ما يقرؤه إلى تهمين إيمانه الخاص بضرورة حرمان  
النساء من التدوين. قال في سره؛ لو أن معلمه امتنع عن تعليم ابنته  
وبالتالي حفيذته، لنجا الجبل وأميرته وسكانه. كانت مروج ستختلق  
ما ترغب في اختلاقه شفويًا، ولن تجرؤ على نشره بين الآخرين. كان  
سيُدفن معها ويزول بزوالها.

أخفى الأجزاء التي رآها تقلل من شأن زمردة أو تهز صورتها في أعين رعيثها، حرّف أجزاءً أخرى لتناسب مع رؤيته لما يجب أن تكون عليه صورة أميرة قاف. تجاهل أن كل تحريف في الحكاية طعنة نافذة في جسد زمردة ونازراً إضافية تزيد من أمد احتراقها. تناسى وصيتها الأخيرة بضرورة تدوين حكايتها بدقة إن أرادوا استعادتها.

قرأ في نهاية ما خطته مروج ما اعتبره سر خروجها المقيت على قوانين قاف، وهو إيمانها بأن الأميرة تسببت في لعنة للمملكة، لعنة لن تُفك إلا بالإسراع بالمصير المحتوم، أن تقوم مروج بنفسها بحرق الأميرة، كي تتمكن لاحقاً، عبر تدوين الحكاية، من بعثها واستعادة العصر الذهبي للجبل من جديد. لم يفهم كيف آمنت مروج، بأنها من سوف تساعد على بعث الأميرة، ومع هذا انتحرت فوق رمال صحراء التيه الملتهبة!

حرق بعض ما رآه غير ملائم من المخطوطات، واحتفظ ببقيتها في مخبأ سري في الكهف الذي التجأ إليه بجبل «دماوند» مضافاً إليه ما دونّه هو عن تفاصيل رحلة النزوح من قاف. كان لا يمل من حكي حكاية الأميرة كما تروق له بين حواريه وأبناء مجموعته من النازحين. حفظها عنه وبالغوا في ترديدها وإعادة تمثيل مشاهد منها. بعضهم حولها إلى سيرة شعبية ينشدها الرواة والمنشدون في الحوار والازفة خارج حدود العوالم الضيقة للمنحدرين من قاف.

لم يفتن كبير الحكماء أن مساعده غافله، واختلس بعض مخطوطات ووثائق مروج، ومن بينها نبوءات مكتوبة على هيئة أحجيات شعرية سيعرف المساعد، بينما يقرأها في منفاه بجبال الـ«ديلم»، أنها تنتمي لمن تطلق عليه مروج بتوقير لقب «الطيف».

على عكس معلمه، آمن المساعد الشاب بما حملته مروج من

مخطوطات جدّها، وما كتبتّه من شروح وتعليقات عليها، كما صدّق النبوءات التي دونتها نقلاً عن «الطيف»، وعكف على حل ألغازها في ليالي منفاه الطويلة. أورثها لأحفاده من بعده مصحوبة بشروح لها، وما فهمه من الأحجيات عن «كاهنة الأبيض والأسود» التي ستنقي الحكاية وتسد ثغراتها وتبعث الحياة في رماد زمردة بمساعدة فتاة جامحة، أنجبها امرأة تضحك لها المرابا.

في الزمن الأول للتيه، لم يحتج عوام النازحين من قاف إلى رقوق أو مخطوطات عن حكاية أميرتهم. كان ما عايشوه من تفاصيلها حياً في أذهانهم، أضافوا إليه ما أفشته مروج خلال محاكمتها بجرم التدوين قبل أن تحرق زمردة مباشرةً، ورددوه بلا ملل كأنه حكاية شخصية لكل منهم. عقب تلاشي قصر الزمرد، وفرار العنقاء إثر هذا، بقي الجبل يرتعش بعد أن توقف عن الزلزلة. غمرتهم ارتدادات قاف، ونقلت إليهم دواراً أسلمهم إلى حالة من الغثيان وعدم الاتزان.

لم ينتبهوا إلى أي شيء في هذه الأثناء. كافحوا المجرّد البقاء أحياء. البيوت القديمة تهاوى الكثير منها، وصدوع الجبل تصدعت أكثر وباتت خطراً محدقاً كفوهة فاغرة لابتلاع من يقترب منها. ترحموا على ملكة الحيّات؛ حامية قاف وحارسته. «لو ظلت حيّة لما حدث أي من هذه الكوارث»، قالوا بإيمان راسخ.

بعد أن استقر الجبل نسبياً، وهجر ارتجافه الدائم، تابعت سلسلة حرائق لا يعرفون لها سبباً. اشتعلت الغابات والأحراش على أطرافه القصية، وصار الدخان أشبه بضباب أسود يغطي الفضاء ويحجب السماء. من الشوارع المضطربة بالدخان خرجت لهم مروج بردائها الأسود الفضفاض، وقد تمزق في أكثر من موضع، وشعرها وقد أصبح أشعث، ونظرة زائغة جعلتهم يظنون أنها فقدت عقلها.

أرادوا تمزيقها انتقاماً لما فعلته بأمرتهم وجلبهم، غير أن كبير الحكماء  
أنقذها منهم. كانت حزينه كما لم يسبق لهم أن رأوا الحزن، عيناها  
مغرورقتان تغزوهما شرابين حمراء تكاد تغطي على بياضهما. تساءلوا  
إذا كانت مغمومة هكذا على زمردة، فلماذا فعلت بها هذا؟ لم ينتبهوا إلى  
أن ملامحها لم تحمل أي لمحة ندم. فقط حزن رواقى مستسلم لما تؤمن  
بأنه مصير محتوم.



## مطر من زمرد

الكتابة انغلاق الدائرة، خيانة المعنى لذاته!

لستُ لي! لطالما تيقنتُ من هذا. منذ وعيت ترافقي سيرة زمردة،  
أتنفسها وأحياها كأني أمام واقع معاش وامرأة من لحم ودم تشاركني  
أنفاسي.

روحي موشومة بماضي أسلافي وأخطائهم ومعارفهم. في أحلامي  
أجد نفسي في أماكن لم تسبق لي رؤيتها، وأزمنة لم أعش فيها قط.  
حتى الأفق الداكن، الذي يتراءى لي من وقت لآخر، وأشعر أحياناً  
أنه على وشك ابتلاعي بداخله، هذا الأفق يذكرني بما سمعته عن فضاء  
قاف في الأيام التالية لاحتراق زمردة، وما أعقبه من حرائق، في الغابات  
والأحراش، أحالت الكون كله إلى دخان أسود وانتهت باختفاء الجبل.

لستُ لي! أقول لنفسي. ثمة من يعبث بمزاجي ويتركني مفعمة  
باللباس مسرّباً لي شعوراً مقلّماً بأن الروح التي تحتل جسدي مطبوعة  
ببصمات غريب، ومُخلفاً لي في الوقت نفسه ما يميزني عن الآخرين.

حلمتُ قبل يومين بأني في مكان موحش، وسط صحراء قاحلة،  
خلفي صفوف متوازية من أشجار مانجو عملاقة على أغصانها مشنوقين  
لا أعرفهم. كالناجية الوحيدة من مذبحه مروعة، جلست أنتحب محملة

بكل ألم الآخرين ورعبهم. بعدها بلحظات رأيت نفسي أجر خطوتي  
مقتنية أثر جموع منهكة. كانوا يسبقونني بمسافة كبيرة، ظهورهم منحنية  
وأجسادهم تحمل رؤوسهم بالكاد. لم يشغلني اللحاق بهم. ارتيمت  
على الرمال الساخنة وطعنت قلبي بخنجر مسموم. حين استيقظت  
ضايقني شعور مختل بأنني، لا شخص آخر، لي يد فيما أصاب المعلقين  
على أشجار المانجو.

لاحقني الضباب الأسود بضرارة، خُيِّل إليّ أنه ينبعث من داخلي،  
يتكشف ويتعق في خلايا جسدي، قبل أن يتسرب ليستحوذ على ما  
حولي، ومع هذا لم يمرر لي أي إحساس بأنني على وشك بلوغ غايتي.  
وقعت فريسة ليأس شامل ظننت معه أن لا أمل يرجى مما أقوم به، وأني -  
كآلاف سبقوني من الجبلين - لن أنجح في استعادة الأميرة الغائبة، ولن  
أشهد هطول المطر الزمردى الذي أفنى أسلافي أعمارهم في انتظاره.

في شرفتي، وبملابسي السوداء، جلستُ شاردة، تأملتُ الطرقات  
ذات الأشكال الهندسية بين نباتات المشتل، وتتهت في متاهتها. لم أفهم  
كيف لم يطلعني كريم خان حتى الآن على نتائج حديثه مع هدير، جاء من  
«فيينا» على وجه السرعة بناءً على طلبي كي يقنعها بالعودة لمساعدتي،  
وها هو يختفي، تاركًا إياي في شباك هواجس تلقي بي في لجة الجنون  
والليأس.

كأنما استدعيته بمجرد التفكير به، إذ هاتفني بعد دقائق قائلاً إنه في  
الطريق إلى شقتي بصحبتها. انتزعني صوته من هاوية كنت أتردى فيها.  
غادرني أطياف الكآبة واللا جدوى، اتجهت صوب غرفة مكثبي،  
أخرجت مخطوط «الفتاة التي أضاعت خاتم الزمرد» وتركته فوق  
المكتب، فتشت أرفف مكثبي بحثًا عن الكتب والمخطوطات الأخرى

التي قد أحتاج إليها لإقناعها بخوض الشوط لآخره. رصصتها أمامي، وجلست أنتظر بلهفة.

حين وصلا، قدتهما إلى حجرة المكتب. تخلّيت لهدير عن الكرسي الخاص بي، وجلست أنا وكريم إلى كرسيين متقابلين أمامها. أعطيتها «الفتاة التي أضاعت خاتم الزمرد»، فبدأت في القراءة من حيث توقفت آخر مرة. لهثت وهي تلتهم ما كتبته عن مستقبلها.

تابعت أمها وحيدة يفترسها البرد القارس في كندا، امرأة تغالب الحنين بالغرق في أعمال روتينية لا تنتهي، تتأمل سمك الزينة في حوضه الضخم، وتبتسم كعادتها للمرايا وهي تجرّب ملامحها الجميلة في تعبيرات متنوعة. شاهدت هدير نفسها بجوار أمها هناك، امرأتان تسيران معاً كصديقتين قديمتين على حافة بحيرة شبه متجمدة. أو تنوغلان في غابة وهما تثرثران في مواضيع شتى مستمتعتين برائحة المطر الممتزجة بعبير الزهور ورائحة العشب.

تغافلت عن وجودي أنا وكريم، وضاعت بين السطور. بدوري فتحت كتاباً آخر بعد يقيني من أن الفرصة مواتية تماماً مع غوص هدير في القراءة، بصوت خافت بدأت في ترتيب تعاويذ وعيناى مثبتتان على الشابة الجالسة أمامي، ابتهلت بأقصى ما أملك من إيمان.

مع آخر جملة قرأتها هدير، شعرت بأنها تطير. تطفو فوق العالم، بتفاصيله التافهة، بمشكلاته الجادة، بأسئلته غير القابلة للإجابة. كانت خفيفة، منسجمة مع نفسها ومع الكون من حولها. شعور رائع بالصفاء والتناغم مع الذات هيمن عليها.

أحسّت بأنها غير مرئية من الآخرين، تعلو رويداً، وكلما علت أكثر تخففت من أعبائها. غاب جزء من ذاكرتها، واستعارت في مقابله جزءاً بديلاً من ذاكرة الجبل وأميرته.

نظرت للأسفل فأبصرتُ البنائيات والأشجار والمرتفعات وقد صارت أصغر، والبشر وقد تحولوا إلى ما يشبه النمل. كانت القاهرة بضجيجها وتعبها تتقرَّم وتباعد عنها. لم تكن ثمة عنقاء أو طائر رخ ليحملها إلى حيث قاف، هي نفسها تحولت إلى طائر قادر على اجتراح المستحيل. أطبقت جفنيها، ومع هذا ظلت قادرة على الرؤية. أبصرت تلالاً من الزمرد تسابق الغيم، وحدائق من فضة وذهب، وجداول وينايع من اللجين، ومرايا ممتدة تعكس حيوات ثرية، أبصرت في المرايا: أميرة فاتنة تعرفت فيها إلى زمردة كما تخيلتها، وشخصاً معلقاً في ساق طائر رخ ضخم يحلق به في الأعالي، وضريراً يتكى على عكاز مواصلاً السير بلا انقطاع، وحشوداً منهكة هائمة في مفازة قاحلة يتساقط أفراد منها جثثاً هامدة بين وقت وآخر.

في مرآة جانبية كانت ثمة غابة مانجو معمرة ثمارها بشر فارقتهم الحياة، تحت الأشجار وقفت امرأة تعرفت فيها هدير إلى أمها نادية، وقد أعطت ظهرها للمعلقين فوق الأغصان، وراحت تراقب بشغف سرب طيور ملونة يحلق أمامها، كأنما تتعامى عن رؤية فظائع العالم وحقائقه. واصلت هدير الصعود، فألفت نفسها في غمامة بيضاء تسبح فوق الغيم، وقد بدت هي نفسها كقطعة منه. صارت خفيفة وهشة مثله؛ على حافة التحول إلى قطرات مطر إذا صادفتها لفحة هواء بارد. نظرت إلى جسدها فأبصرته يشف رويداً، فكرت في أنها تخلصت من عبء الجسد وباتت روحاً خالصة، غمرتها روائح تلخص معنى العطر وفكرته.

استعادت كل ما رأتَه بصحبة كريم فوق «سير ودي لا بوفنا» في المكسيك: تلال الزمرد السابحة في الفضاء، البشر المتحركين بحبور، قصر الزمرد المزين بالماس والياقوت وقاعات الذهب والفضة.

لم تصدق سرعتها الفائقة، وتساءلت: هل أراها أنا وكريم في رحلة صعودها أم لا؟ ثم لم يعد هذا يهمها في شيء، رأت طفلة تفتش كومة قش بحثًا عن خاتم من الزمرد، وشابة تسير فوق رصيف متكسر في شارع صاخب وهي تجر حقيبة ملابسها خلفها، ثم الشابة نفسها وهي تقرأ مخطوطًا غامضًا عن فتاة أضاعت خاتم أمها. مرّت حوادث حياتها ببالها، وكل حادث يخطر لها ينمحي في الحال من ذاكرتها ليحل محله حادث آخر ينتمي لحياة أميرة قاف.

لا تعرف الكثير عن سرعة الضوء، ومع هذا كانت متأكدة من أنها السرعة التي تطير بها. حدس عابر أسرّ لها بأنها، في هذه اللحظة، استحالت كائنًا من ضوء، وكما سعدت فجأة، وجدت نفسها تنخفض جزئيًا بلا مقدمات، كأن ثمة قوى ناعمة تجذبها نحو الأسفل بينما تحافظ على سرعة طيرانها. بدأت ترى العالم الجديد الذي تحلق فوقه، تقع عينها على أشياء لم تعرفها قبلاً، فينبثق اسمها وتعريفها في ذهنها في الحال.

طافت فوق جبلي الماس والسحاب، وكادت تختفي أعلى قمة جبل الدخان، عبرت جزر الواق واق سريعًا، وفقدت ذاكرتها بالكامل في سماء أرض النسيان قبل أن تستعيدها مجددًا بمجرد أن عبرتها. أوشكت أن تصير جثة محنطة بينما تراقب مدينة النحاس من عل، وأن تصبح حجرًا في سماء مدينة الأحجار، لكن قوة سحرية كانت تحفظها، وتجذبها نحو السلامة.

أبطأت حركتها فوق قمة قاف، لم تستطع سحب نظرتها بعيدًا عن زمردة البراق، ومحوره الياقوتي، وحدائقه الغناء، طارت مبتعدة وهي تنغمس أكثر في أعماق ذاتها، بعده مرت بسبعين أرضًا من ذهب،

وسبعين أرضاً من فضة، وسبعين أرضاً من مسك. حلقت فوق سبعين أرضاً تسكنها الملائكة حيث لا حر ولا برد إنما اعتدال دائم.

التقت عفاريت تسبح في سماوات المدن، وجناً يقابلونها بمرح لاهٍ أو تجهم أو ذهول قبل أن تعود أدراجها نحو قاف؛ مقصدها ومبتغاها.

هبطت في بستان حافل بروائح زهور نادرة وتغريد متواصل لطيور تجهل أسماءها، ريشها بألوان قوس قزح. خطت فوق أرض صخورها من زمرد وماس، وترابها من حناء وزعفران ومسك تنمو فيه نباتات وأشجار غريبة، بثمار متنوعة الأشكال والألوان. يمتزج تغريد الطيور بخير ماء. واصلت سيرها في ممرات الحديقة وهي تنسم أريج ورودها، حتى وصلت إلى مصدر الخير: بحيرة يترقرق ماؤها بلمعة لم تعهد لها هدير في الماء، ويتوزع على جداول عدة تخترق أرجاء الحديقة صعوداً وهبوطاً. جلست على حافة البحيرة وانحنت لتأمل ماءها بالغ النقاء والبريق، فواجهها انعكاس وجه ليس وجهها.

حدقت في الماء مطولاً تتأمل عينين واسعتين، وأنفاً دقيقاً، وشعرًا طويلاً يمنحها فتنة مضاعفة. كانت تحمل وجه زمردة كما رأتها في رحلة صعودها. انتبهت إلى أن أميرة قاف تشبه أمها نادية كثيرًا. لو غيرنا لون العينين إلى العسلي بدلًا من الأخضر، والشعر إلى البني الضارب للشقرة وقصصناه حتى الكتفين، وتقدمنا بها في العمر قرابة عقدين ونصف العقد لأصبحت نسخة من نادية.

لم تندش هدير لامتلاكها المفاجئ لوجه الأميرة الغائبة، لأنها منذ رحلة صعودها بدأت تحمل الكثير من ذكريات الأخيرة، لدرجة شعرت معها أنها هي، وإن لم تفهم سر التطابق الغريب بين زمردة وأمها. نهضت من جلستها لتكتشف أن جسمها صار أكثر انسيابية وأثوثة. خطت برقي

بعيد عن خطواتها الراقصة القديمة فبدت كأميرة حقيقية. انتهت إلى شرفة جدرانها من رخام وردي، وأرائكها وطاولاتها مُطعممة باللؤلؤ والماس، عبرتها إلى قاعة من زبرجد وعقيق تعلوها قبة فيروزية بتعريقات أرجوانية فريدة.

انتقلت من صالة إلى أخرى ومن دهليز إلى آخر حتى وصلت إلى قاعة العرش. في الوسط جلس الملك ياقوت متربعاً وإلى جواره ابنته زمردة في ثوب أزرق تتخلله نقوش فضية، كان الثوب يتطابق مع ما ترتديه هدير منذ هبطت فوق قاف. تحلق الوزراء والأمراء وكبار المملكة في نصف دائرة تواجه العرش وعلى وجوههم ترقب مضمين.

لم ينتبه أحد إلى دخول هدير، وقفت، كأنها جزء من الجدار الزمردى، تحاول فهم ما يحدث. أدركت بعد برهة أن ثمة محاكمة منعقدة. مكبلة في أصفادها، كانت تقف في ركن منزو، امرأة برداء أسود، شعرها فاحم وعيناها واسعتان. حافظت المرأة على رأسها منحنيًا لأسفل. بدت لهدير كأنما تتلو في سرها تائم وتعاويد ما، فيما يتهمها القاضي الواقف في الجهة الأخرى بممارسة السحر الأسود، والاجترار على القوانين المقدسة لـ «قاف»، ليس فقط بارتكابها، وهي المرأة، خطيئة التدوين، بل أيضًا بتدوين سيرة أميرة الجبل.

رفعت المرأة رأسها بكبرياء. كانت ثمة كدمات على وجهها وتورم في عينيها اليمنى وأثار تعذيب على معصميهما وعنقها، ومع هذا بانة نظرتها حازمة. دافعت عن نفسها بأن حياة الأميرة يجب أن تُدوّن اتقاءً للجنة لا بد قادمة لو لم يحدث هذا. أردفت أنها وهبت حياتها لإنجاز هذه المهمة. تبتع الأميرة خطوة بخطوة ما إن كانت تغادر القصر. جمعت كل ما تعرفه، وما استطاعت الوصول إليه عنها. سهرت ليلًا بلا نهاية

تنسج خيوط الحكاية، لكن نسجها تعقد بظهور بلوقيا الذي قلب حياة أميرتها ونقض نسجها هي، لحظتها أيقنت أن اللعنة آتية، وعليها أن تسرع من مجيئها وتهبى لها الظروف تمهيداً للعمل على إبطال مفعولها لاحقاً. -ماذا تقصدين؟ سأله القاضي، وسط حنق الملك وذهول الحضور، فأجابت:

-من يحرق الأميرة يتمكن وحده من استعادتها، من يزلزل الجبل يقدر دون غيره على بعث أميرته مرة أخرى!  
حثها الرجل على شرح كلامها الملغز، غير أنها بدأت هذياناً ضاعف غموضها، صرخ الملك فيها فلم يبد عليها أنها سمعته. مغمضة عينيها، ورافعة يديها المكبلتين أمامها، واصلت هذيانها الذي استحال تدريجاً إلى كلمات مفهومة تحكي فيها عن علاقة الأميرة ببلوقيا، وعن وقائع غرام جرت في مغارة بأرض الجنيات.

حين أخذت المرأة تسرد تفاصيل دقيقة، اندفعت زمردة نحوها لمنعها من فضح المزيد من أسرارها. ما إن اقتربت منها، حتى راحت مروج تلقي تعاويذ بلغة غريبة وبصوت مرتفع كأنه صراخ، وهي تشير بسبابتها اليمنى صوب ابنة ياقوت التي تجمدت للحظات في مكانها قبل أن يتحول جسدها إلى كتلة مشتعلة.

كالطلقة ركضت كتلة النار بين جنبات القصر، كأن الركن وحده سيطفئها، ثم عادت للقاعة نفسها متبوعة بعويل أب يائس يجاهد لإنقاذها، وبنحيب حاشية مذعورة. استقرت في المنتصف تماماً أسفل قبة الفيروز، صاحت بينما تحترق: «التذكر هو الطريق الوحيد لانبعاثي من رمادي. عليكم تدوين حكايتي وترديدها بلا كلل».

ثم أضافت بصوت ملتانع:



«الحكاية ستعيدني. وكاهنة الأبيض والأسود ستجمع شظاياي!»  
تأكل جسدها وتَفَحَّم سريعا على مرأى من الجميع، ثم تحوّل إلى  
حفنة رماد على أرضية من الرخام الوردي.  
ما إن احترقت بالكامل، حتى انهار الملك ياقوت وتزلزل الجبل،  
كأنه سيتهاوى. هرب الجميع هلعين، باستثناء هدير غير المرئية ومروج  
المكبلة في أصفادها. بعد أن تأكدت من خلو القاعة، وبدون أدنى خوف  
من تأرجح الجبل واهتزازه، عادت مروج لترديد تعاويذها المبهمة،  
فانكسرت قيودها. جمعت رماد الأميرة بيديها، والتقطت قارورة بلورية  
من فوق طاولة، ووضعت فيها حفنة التراب، ثم أغلقتها وخرجت بها  
بخطوة عرجاء من أثر التعذيب.

طمأنيتها انتقلت بالعدوى إلى هدير، فتبعتها غير عابئة هي الأخرى  
بالزلزلة ولا بالعويل الآتي من كل مكان. اختفت المرأة بين أشجار  
الحديقة، وغابت. مادت الأرض بهدير حين تصاعد الصراخ، وبدأت  
جدران القصر في التصدع من خلفها. لم تستطع السيطرة على نفسها  
فسقطت على الممشى الجرانيتي في الحديقة وغابت عن الوعي، بينما  
تردد في أذنها ضجة كأنما صادرة عن تحطم الكون بأسره.

\*\*\*

كنت لا أزال جالسة إلى مكتبي في مواجهة أوراق بيضاء، ولا أثر  
لكريم أو هدير. في رأسي تركض مشاهد وأفكار متلاحقة. المدينة  
بالخارج تشحب وتخفت في مخيلتي، أنفصل عنها وعن كل ما تستدعيه  
في نفسي. روائح وأجواء «ألموت» تبخرت أيضًا ومعها أبي، غاب  
عني صوته وبهتت ملامحه في ذاكرتي. لم يبق منه إلا بعض الحكايات  
والكلمات.

لوهلة لم أعرف من أنا! ولا ما يجدر بي فعله! ساورتني لمحة من خوف بينما أستعيد ملامح امرأة قوية تشبهني، وهي تتلو تعاويذ محرقة، ولا ترتجف في أشد اللحظات رعباً.

«من يحرق الأميرة يتمكن وحده من استعادتها، من يزلزل الجبل يقدر دون غيره على بعث أميرته مرة أخرى!» تكررت الجملة في ذهني بلا نهاية، أتفكر فيها فتغيم نظرتي، وأطرق وقد امتقع لوني.

تابعتُ مع هدير كل ما قابلها في رحلة تجليها، وكل ذكرى اكتسبتها ذاكرتها دون أن تعاشها: تفاصيل الصعود، الراعي الوحيد في كوخ متقشف على حافة المملكة، بلوقيا إذ وطأ القاف، إيليا في عتمة عماء، مغناطيس الأجساد، الأميرة والمخفي في سيرتها، رحلة النزوح إلى العالم، وزلزلة الجبل ثم تلاشيه.

في خيالي كان ثمة مطر من زمرد يهمني بغزارة. حبات زمرد براقية لم أشاهد ما يشبهها غمرت الأفق وتراصت على الأرض. اقتربتُ من مكتبتي، أخرجت الطبعات المختلفة من «ألف ليلة»، وفتشت فيها الواحدة تلو الأخرى، كانت حكاية «جبل الزمرد» تتوسطها جميعاً كأنها لم تغادرها قط.

اعترتني رعشة خفيفة، بينما تحلقت ذاكرتي في فضاءات زمن موعغل في القدم، غارق في ضباب النسيان، كالمنومة، بدأت أكتب، وأنا أغلب انفعالي:

«أضاعت هدير زمردة في طفولتها، وقدرها أن تضيع طوال حياتها بحثاً عنها!

مَنْ كان ليخبر الطفلة ذات السنوات الست أن خطأً بسيطاً، أو فعلاً منسياً نقوم به دونما قصد قد يرسم مصيرنا. لو لم يخلب الفص الأخضر

البراق لُبَّها. لو لم تشتهييه وهو يتوّج بنصر أمها. لو لم تلتقطه خلصة من  
دُرج التسريحة، وتخرج به إلى حديقة بيت جدها، ويسقط منها في كومة  
القش، لو لم يحدث كل هذا، لربما عاشت هدير حياةً أخرى.. لربما ما  
كان لحكايتنا أن تكون. لكن، من يمكنه إقناع الشابة الجامحة بمثل هذا  
بعد أن فات الأوان؟».

القاهرة

2012 نوفمبر 9



شكرًا للصديقيين: ياسر عبد الحافظ ومحمد الشحات على ملاحظتهما القيّمة على مخطوط الرواية، وللصديق إيوت كولا على النقاشات المطولة - خلال زيارته للقاهرة في 2011، 2012 - حول عوالم الرواية و«ألف ليلة وليلة». وشكر أخير للصندوق العربي للثقافة والفنون - آفاق.

قرأت المؤلفة أثناء كتابة العمل عددًا من المؤلفات أهمها: «ألف ليلة وليلة».. طبعة بولاق، «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمري، «محاورة فايدروس» لأفلاطون، ترجمة أميرة حلمي مطر، «صيدلية أفلاطون» جاك دريدا، ترجمة كاظم جهاد، «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» لابن الوردي، «عجائب الهند» لبرزك بن شهريار، وطبعًا «منطق الطير» لفريد الدين العطار.



## المحتويات

7	غبار الطريق
19	مغناطيس الأجساد
33	وحدها في مدينة صاحبة
53	الباحث عن الليل
71	جبل الحياة
87	بلوقيا يطأ قاف
101	الطريق إلى بستان البحر
113	الغرق في مرآة
121	مدينة مبللة بالمطر
131	أرض الجنيات
143	الفتاة التي أضاعت خاتم الزمرد
155	طريق التيه
169	رابونزل
179	ناسجة الحروف
189	في الضباب
203	النزوح إلى العالم
217	مطر من زمرد

